

آفاق الجمعة

روح وفكر

من منبر مسجد سيد هاشم بهبهاني

الشيخ عبيد الله بن عبد الله بن محمد

الجزء الأول





الشيخ علي حسن غلوم علي

آفاق الجمعة

روح وفكر

- ١ -

خطب الجمعة التي ألقى من على منبر
مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
في الفترة ما بين

٢٩ ربيع الثاني ١٤٣٨ هـ - ٢٧ يناير ٢٠١٧ م

إلى

٣٠ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ - ١٦ فبراير ٢٠١٨ م



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa66@yahoo.com



محتويات الكتاب



محتويات الكتاب

- ٠٠٠ مقدمة الكتاب بقلم د. خالد مهدي - ١٧ -
١. ٢٩ ربيع الثاني ١٤٣٨ هـ / ٢٧ يناير ٢٠١٧ م - ٢١ -
الخطبة الأولى: صخرة بريجيت غابرييل - ٢٢ -
الخطبة الثانية: الإسلام وأهل الكتاب - القسم الأول
٢. ٦ جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ / ٣ فبراير ٢٠١٧ م - ٢٦ -
الخطبة الأولى: لنكون أعزّ - ٢٧ -
الخطبة الثانية: الإسلام وأهل الكتاب - القسم الثاني
٣. ١٣ جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ / ١٠ فبراير ٢٠١٧ م - ٣١ -
الخطبة الأولى: الزهراء... وتُرى في غمد - ٣٤ -
الخطبة الثانية: الإسلام وأهل الكتاب - القسم الثالث
٤. ٢٠ جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ / ١٧ فبراير ٢٠١٧ م - ٣٨ -
الخطبة الأولى: العلاقة بين الإسقاط وذكر المعائب - ٤٠ -
الخطبة الثانية: هل الحل في العلمنة؟
٥. ٢٧ جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ / ٢٤ فبراير ٢٠١٧ م - ٤٣ -
الخطبة الأولى: الكذب وحقيقة الإيمان - ٤٥ -
الخطبة الثانية: تعديل المادة ٧٩ من الدستور
٦. ٤ جمادى الآخرة ١٤٣٨ هـ / ٣ مارس ٢٠١٧ م - ٤٨ -
الخطبة الأولى: يدٌ من عالم القدس - ٥٠ -
الخطبة الثانية: خصخصة العلاقة بالله
٧. ١١ جمادى الآخرة ١٤٣٨ هـ / ١٠ مارس ٢٠١٧ م - ٥٣ -
الخطبة الأولى: الإعراض عن اللغو - ٥٥ -
الخطبة الثانية: الميثاق الغليظ

٨. ١٨ جمادى الآخرة ١٤٣٨ هـ / ١٧ مارس ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: رسالة إلى الزهراء
الخطبة الثانية: الخطبة الأصلية
٥٩ -
٦١ -
٩. ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٣٨ هـ / ٢٤ مارس ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: الرضا بالقضاء
الخطبة الثانية: تقرير الإسكوا والصمت المخجل
٦٥ -
٦٧ -
١٠. ٣ رجب ١٤٣٨ هـ / ٣١ مارس ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: أهل البيت والتوحيد الخالص
الخطبة الثانية: انتهاك الأشهر الحرم
٧٠ -
٧٢ -
١١. ١٠ رجب ١٤٣٨ هـ / ٧ أبريل ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: الإمام علي يدعو إلى الإنصاف
الخطبة الثانية: ماذا بعد إغلاق المصفاة؟
٧٥ -
٧٧ -
١٢. ١٧ رجب ١٤٣٨ هـ / ١٤ أبريل ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: أصناف العلماء
الخطبة الثانية: الشهيد الصدر.. العالم، العامل، الرسالي
٨٠ -
٨٣ -
١٣. ٢٤ رجب ١٤٣٨ هـ / ٢١ أبريل ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: أوقاف الإمام الكاظم
الخطبة الثانية: الغدر
٨٦ -
٨٧ -
١٤. ٢ شعبان ١٤٣٨ هـ / ٢٨ أبريل ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: اللهم أصلح لي أبنائي
الخطبة الثانية: المعارضة السياسية
٩١ -
٩٣ -
١٥. ٩ شعبان ١٤٣٨ هـ / ٥ مايو ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: لماذا الخوف؟
الخطبة الثانية: الحكومة والمعارضة
٩٧ -
٩٩ -

١٦. ١٦ شعبان ١٤٣٨ هـ / ١٢ مايو ٢٠١٧ م
- ١٠٣. الخطبة الأولى: أعمال كالرماد المتطاير
- ١٠٥. الخطبة الثانية: الانتظار السلبي
١٧. ٢٣ شعبان ١٤٣٨ هـ / ١٩ مايو ٢٠١٧ م
- ١٠٨. الخطبة الأولى: أهواك معهم؟
- ١١٠. الخطبة الثانية: المتخاذلون
١٨. ٣٠ شعبان ١٤٣٨ هـ / ٢٦ مايو ٢٠١٧ م
- ١١٤. الخطبة الأولى: خطبة النبي في استقبال شهر رمضان
- ١١٥. الخطبة الثانية: صيام الصمت
١٩. ٧ رمضان ١٤٣٨ هـ / ٢ يونيو ٢٠١٧ م
- ١١٩. الخطبة الأولى: كاشف التقوى
- ١٢١. الخطبة الثانية: غياب حس المسؤولية
٢٠. ١٤ رمضان ١٤٣٨ هـ / ٩ يونيو ٢٠١٧ م
- ١٢٥. الخطبة الأولى: اللهم وفقني للخير
- ١٢٦. الخطبة الثانية: أثر فعل الخير
٢١. ٢١ رمضان ١٤٣٨ هـ / ١٦ يونيو ٢٠١٧ م
- ١٣١. الخطبة الأولى: الدعاء والكرم الإلهي
- ١٣٢. الخطبة الثانية: لماذا أدعوا فلا يُستجاب لي؟
٢٢. ٢٨ رمضان ١٤٣٨ هـ / ٢٣ يونيو ٢٠١٧ م
- ١٣٧. الخطبة الأولى: الباب لا يزال مفتوحاً
- ١٣٩. الخطبة الثانية: الهزيمة النفسية
٢٣. ٦ شوال ١٤٣٨ هـ / ٣٠ يونيو ٢٠١٧ م
- ١٤٢. الخطبة الأولى: توثيق الديون
- ١٤٤. الخطبة الثانية: نقطة الصفر العلمانية

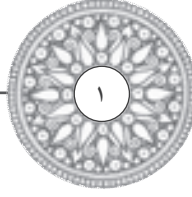
٢٤. ٢٧ شوال ١٤٣٨ هـ / ٢١ يوليو ٢٠١٧ م
- ١٤٧. الخطبة الأولى: لكل نعمة زكاة
- ١٤٩. الخطبة الثانية: الموصل، وزكاة الانتصار
٢٥. ٥ ذي القعدة ١٤٣٨ هـ / ٢٧ يوليو ٢٠١٧ م
- ١٥٢. الخطبة الأولى: القضاء وطلب الحق
- ١٥٤. الخطبة الثانية: نزاهة القضاء
٢٦. ١٢ ذي القعدة ١٤٣٨ هـ / ٤ أغسطس ٢٠١٧ م
- ١٥٧. الخطبة الأولى: ثغرة في الجدار
- ١٥٩. الخطبة الثانية: المشهد المقدسي
٢٧. ١٩ ذي القعدة ١٤٣٨ هـ / ١١ أغسطس ٢٠١٧ م
- ١٦٢. الخطبة الأولى: محكمات أم متشابهات؟
- ١٦٤. الخطبة الثانية: الذين في قلوبهم زيغ
٢٨. ٢٦ ذي القعدة ١٤٣٨ هـ / ١٨ أغسطس ٢٠١٧ م
- ١٦٨. الخطبة الأولى: أبناء صوحان العبدى
- ١٦٩. الخطبة الثانية: الشباب بين الحماسة والحكمة
٢٩. ١٧ ذي الحجة ١٤٣٨ هـ / ٨ سبتمبر ٢٠١٧ م
- ١٧٣. الخطبة الأولى: احترام المسجد ورعاية المصلين
- ١٧٤. الخطبة الثانية: عيد الغدير.. يوم المسؤولية
٣٠. ٢٤ ذي الحجة ١٤٣٨ هـ / ١٥ سبتمبر ٢٠١٧ م
- ١٧٧. الخطبة الأولى: باعوا آخرتهم.. ففسدوا
- ١٧٩. الخطبة الثانية: الاستشراق اليهودي والواقع العربي
٣١. ٢ محرم ١٤٣٩ هـ / ٢٢ سبتمبر ٢٠١٧ م
- ١٨٣. الخطبة الأولى: الحسين السبط
- ١٨٤. الخطبة الثانية: فك لغز الأسباط

٣٢. ٩ محرم ١٤٣٩ هـ / ٢٩ سبتمبر ٢٠١٧ م
- ١٨٨. الخطبة الأولى: من خطب الإمام الحسين
- ١٨٩. الخطبة الثانية: عاشوراء .. وسوء استغلال القوانين
٣٣. ١٦ محرم ١٤٣٩ هـ / ٦ أكتوبر ٢٠١٧ م
- ١٩٤. الخطبة الأولى: العقيلة العالمة
- ١٩٦. الخطبة الثانية: الأسباط .. حماة التوحيد
٣٤. ٢٣ محرم ١٤٣٩ هـ / ١٣ أكتوبر ٢٠١٧ م
- ٢٠١. الخطبة الأولى: الذكر عند الإمام زين العابدين
- ٢٠٢. الخطبة الثانية: لكي لا ينسانا الله
٣٥. ٣٠ محرم ١٤٣٩ هـ / ٢٠ أكتوبر ٢٠١٧ م
- ٢٠٨. الخطبة الأولى: طين وروح وعقل
- ٢١٠. الخطبة الثانية: المسكرات .. عنوان المهانة
٣٦. ٧ صفر ١٤٣٩ هـ / ٢٧ أكتوبر ٢٠١٧ م
- ٢١٤. الخطبة الأولى: وإلا... فمصيبتك أعظم
- ٢١٥. الخطبة الثانية: دم... لفطير صهيون
٣٧. ١٤ صفر ١٤٣٩ هـ / ٣ نوفمبر ٢٠١٧ م
- ٢٢٠. الخطبة الأولى: تغيير المشاعر والقناعات
- ٢٢١. الخطبة الثانية: نظرة على مشروع تحصين
٣٨. ٢١ صفر ١٤٣٩ هـ / ١٠ نوفمبر ٢٠١٧ م
- ٢٢٧. الخطبة الأولى: المسيرة الأربعينية
- ٢٢٩. الخطبة الثانية: مناهج التربية الإسلامية .. وقفة أخرى
٣٩. ٢٨ صفر ١٤٣٩ هـ / ١٧ نوفمبر ٢٠١٧ م
- ٢٣٤. الخطبة الأولى: قالوا أساطير الأولين
- ٢٣٦. الخطبة الثانية: قصة سليمان بين العهد القديم والقرآن

٤٠. ٦ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ / ٢٤ نوفمبر ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: التدريب على العقوق
- ٢٤٠ -
الخطبة الثانية: التحرش الجنسي - القسم الأول
- ٢٤١ -
٤١. ١٣ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ / ١ ديسمبر ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: من لوازم الأخوة الإيمانية
- ٢٤٦ -
الخطبة الثانية: مآسي الأمة والكفر بالنعمة
- ٢٤٨ -
٤٢. ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ / ٨ ديسمبر ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: التحرش الجنسي - القسم الثاني
- ٢٥٢ -
الخطبة الثانية: القدس القدس.. وعصّ أصابع الندم
- ٢٥٥ -
٤٣. ٢٧ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ / ١٥ ديسمبر ٢٠١٧ م
الخطبة الأولى: أكل المال بالباطل
- ٢٥٨ -
الخطبة الثانية: العملات الرقمية
- ٢٥٩ -
٤٤. ١٧ ربيع الآخر ١٤٣٩ هـ / ٥ يناير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: المسؤولية الفردية في الآخرة
- ٢٦٤ -
الخطبة الثانية: في بيتنا فرعون
- ٢٦٦ -
٤٥. ٢٤ ربيع الآخر ١٤٣٩ هـ / ١٢ يناير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: بين تجارتين
- ٢٧٠ -
الخطبة الثانية: الزوجة المتمرّة
- ٢٧١ -
٤٦. ٢ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ / ١٩ يناير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: أبناء متمرّدون
- ٢٧٥ -
الخطبة الثانية: آباء يستغيثون
- ٢٧٧ -
٤٧. ٩ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ / ٢٦ يناير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: اتقوا الله
- ٢٨٠ -
الخطبة الثانية: أين يقع المسجد الحرام؟!
- ٢٨١ -

٤٨. ١٦ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ / ٢ فبراير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: واستُرِجعت الوديعَة
الخطبة الثانية: خرافات دان جيبسون
٤٩. ٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ / ٩ فبراير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: زيارة أمين الله
الخطبة الثانية: قصّة القبلة في الإسلام
٥٠. ٣٠ جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ / ١٦ فبراير ٢٠١٨ م
الخطبة الأولى: قدوة النساء
الخطبة الثانية: أكلو لحوم البشر
- ٢٨٦ -
- ٢٨٧ -
- ٢٩١ -
- ٢٩٣ -
- ٢٩٨ -
- ٣٠٠ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الكتاب

قال الله عَزَّوَجَلَّ في محكم التنزيل ذي الظاهر الأنيق والباطن العميق: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ «الرعد: ١٧».

أن أندب لكتابة مقدمة لكتاب لا أعرف عن كاتبه سوى مقالته وقلمه وصلاحي سيرته، فهذا قد يعني لي الكثير في استبيان شخصية الخطيب المعتم بعمامة التاريخ، والمتوكل على عصا الفكر العملي والنافع لعموم المجتمع بأطيافه.

ما بين الدفتين سياحة مباركة في أخبار الغيب الذي هو هدى للمتقين وجواهر الكلم من أعمدة الحكمة، وسور الذكر الناطق، وما ينفع الناس في أمور دنياهم، ورؤى مدروسة من واقع منهج له ثوابت عقدية وفكرية، لم أستشعر فيها أية رغبة للخطيب في أن يفرس فكرة أو يمجّد رأياً.

تقع موضوعات الخطب في عدة مجالات لا تخرج عن البعد الوعظي أو المجتمعي ركني خطبة الجمعة. كما تمتاز نطاقات الخطب بمعالجات احترافية تلامس واقع الحضور، وتتخاطب مع ألسنة المحاورين في منتدياتهم الاجتماعية التقليدية أو الافتراضية في شبكات التواصل الاجتماعية.

تمثلت براعة الخطيب في الطرح السلسالي في مناقشة أطروحات واستشكلات عقدية أضحت أحاديث سطحية في جيل يتصف بالنزعة المشككة لما لا يستطيع

إدراكه بمادّيات الحسّ، وعاجز عن الدفاع عن موروثاته الغيبية، بالقدر الذي ينتفع بها المؤمن لتكون له زاداً، ولثوابته حصناً. ترى هذه الأطروحات جلية في معالجة مباحث أهل الكتاب و بالأخص اليهودية واستشراقها.. دان جيبسون وخرافاته.. حنان قهوجي وترهاتها.. والأسباط ولغزهم.

أجاد الشيخ علي في إبراز القضايا الوطنية والمحلية كونه ابن الوطن الذي يلامس واقعه المحلي كغيره، ليعالج ما يُثار بين الفينة والأخرى بمنطق التقوى ونظم الأمر دون إشارة، عبر تساؤلات مستحقة وردت في نزاهة القضاء وإغلاق المصفاة، الحكومة ومعارضتها، العملات الرقمية، تعديل المادة ٧٨ من الدستور، منهج السياسة الخارجية الإنساني لدولة الكويت في الحصول على العضوية المؤقتة لمجلس الأمن، موقف رئيس مجلس الأمة الكويتي في مؤتمر الاتحاد البرلماني الدولي، ومشروع تحصين، ومناهج التربية الإسلامية في وزارة التربية بنظرة علمية متفحصة.

وأما على صعيد السياسة الدولية، فقد أفاض الخطيب اللثام عن حوادث تخص الرأي العام العالمي والعربي على وجه الخصوص، أبرز خلالها تحليله وفقاً لمعطيات الحدث والمعلومات المتاحة، كسحب تقرير الاسكوا لأمنها ربما خلف، والمآسي الإنسانية للتفجيرات الإرهابية، وتحرير الموصل، وجريمة نقطة الراشدين، ودعوة الرئاسة النمساوية للتضامن مع الحجاب الإسلامي، وتفجير سيناء، ومأساة الروهينجا، وغيرها من مآسي الأمة.

تخللت مجموعة الخطب الواردة في هذا المجلد رسائل وعظية موجهة للفرد والأسرة والمجتمع، بأسلوب تحذيري من العواقب الوخيمة لأمراض نفسية واجتماعية يستوجب على كل واعظ أن يهتم بإعادة إرسائها بين الفينة والأخرى، دون كلل في الإعادة وإن أصاب الحضور الملل، فإنّ الوعظ والتبويه والتحذير من مواطن الفساد غايات خطب الجمعة الأسبوعية. فقد كان وما يزال المجتمع الإنساني مبتلىً بتتّمّر الزوجة، وفرعنة الزوج، وعصيان الأبناء، وغفلة المرء عن ما يُصلح آخرته ويرشده إلى جادة الصواب والاقتصاد في معاشه.

لم يترك الشيخ علي المناسبات الإسلامية دون بيان فضل الهادين المهديين من

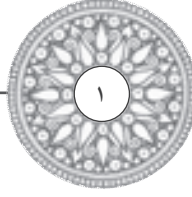
آل الرسول ﷺ مقتبساً وشارحاً لآليء الحِكم وجواهر الكَلِم من وصايا وخطب وأدعية ومواعظ يُسترشد بها جُدد الحق.

ختاماً، ما تفرضه علي الأمانة العلمية بعد أن أظهر احترامي وتقديري لكل أطروحة أوردتها الخطيب من وجهة نظره، بالأخص فيما يتعلق بالمسائل الدنيوية أن يكون لي رأيٌ مغايرٌ يحتمل الخطأ والصواب، داعياً بذلك القاريء إلى قراءة تحليلية ونقدية فيما يختص بالجوانب السياسية أو الاقتصادية أو التنموية.

باركت وبورك أيتها العالم الجليل ونفع الله بك البلاد والعباد.

الأمين العام للمجلس الأعلى للتخطيط والتنمية

د. خالد مهدي



الخطبة الأولى صخرة بريجيت غابرييل

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ «الشورى: ٥٢».

هذه باختصار شديد هي قصة الرسالة المحمدية، وحقيقة القرآن، وواقع الإسلام الذي يجب أن نبرزه، وأن ندافع عنه، في كل هذا الجو المشحون ضده من حولنا، وكل الممارسات السلبية التي تمارس باسمه.

في أجواء الانتخابات الأمريكية، انتشر مقطع فيديو للسيدة الأمريكية اللبنانية الأصل بريجيت غابرييل، واسمها الحقيقي حنان قهوجي، تقول في بدايته أنها ستعمل في غضون خمس دقائق على سحق وتهشيم الإسلام الذي امتد لألف وأربعمائة عام.

المقطع جاء ضمن دعاية انتخابية قامت بها لصالح الرئيس الحالي للولايات المتحدة، ولصالح الكيان الصهيوني أيضاً، ووظفت ما طرحته سياسياً بامتياز.

وهذا كله مفهوم إذا عرفنا أنها انتقلت خلال فترة احتلال الصهاينة لجنوب لبنان من بلدتها الجنوبية إلى داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وعملت هناك كإعلامية في إحدى القنوات التبشيرية المسيحية ضمن نشاط جماعة الصهيونية المسيحية.

ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة وعملت في المجال الإعلامي المتخصص في صناعة الكراهية ضد الإسلام، ونشطت بفاعلية ضمن جماعة الصهيونية المسيحية رافعة شعار: (ثمة سرطان ينهش العالم يُدعى الإسلام الفاشي، ومصدره القرآن).

فما هي الإشكالات التي طرحتها؟ وهل استطاعت بالفعل أن تسحق الإسلام في دقائق؟

الخطبة الثانية

الإسلام وأهل الكتاب - القسم الأول

• الوحشية والتخلف:

ذكرت المتحدثة أن خطابها يأتي لبيان الاختلاف الكبير بين الحضارة الغربية وبين العالم الإسلامي.. متهمة الإسلام والمسلمين عبر التاريخ بالوحشية والتخلف والرجعية.

والحقيقة أنها تتناسى كيف كان العالم الغربي يزرع في ظلمات الجهل والوحشية والتمزق والجهل والخرافة، بينما كان العالم الإسلامي يخطو خطوات مبهرة في العلم والحضارة، حتى قال المستشرق غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: (ولسرعان ما رأيتهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدّنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقاً)، وقد شهد بمثل هذا العشرات من المستشرقين والباحثين الغربيين، وهو أشهر من أن يحتاج إلى إثبات ودليل، وأضاف: (وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الإبداع الفني).

• قلة العدد:

ثم تحدثت في البداية - وبشيء من الاستخفاف - عن قلة عدد الذين آمنوا برسالة النبي محمد ﷺ في مكة.

وتناست أن السيد المسيح عليه السلام بكل المعجزات التي أتى بها من إحياء الموتى وإشفاء الأعمى والأبرص والإخبارات الغيبية التي كان يأتي بها، لم ينجح في أن يُقنع سوى العدد القليل من أبناء مجتمعه، على الرغم من أنه كان يدعو في مجتمع بني إسرائيل القريب جداً مما كان يدعو إليه فكراً وشرعياً، في مجتمع عرف النبوات المتتالية وآخرهم النبيان زكريا ويحيى عليهما السلام. وكان الشيء الوحيد الذي عليهم أن يؤمنوا به هو أنه نبي مرسل من عند الله، وأن الإنجيل كتاب منزل عليه من الله عز وجل.

بينما كان النبي ﷺ يدعو في مجتمع مشرك وثني لم يعرف النبوة لقرون متتالية، والفارق بين الصورتين كبير، خاصة وأن القرآن يؤكد أيضاً - كما في سور الأعراف والأنعام والإسراء - أنه لم تكن للنبي محمد معجزات مادية كإحياء الموتى وإبراء المرضى.. على خلاف السيد المسيح.

علماً بأن النبي محمداً لم يغادر الدنيا بعد قرابة العشرين عاماً من الدعوة إلا وقد دخل أهل الجزيرة العربية في دين الله أفواجا.

لقد أكد التاريخ المسيحي أنه إلى منتصف القرن الميلادي الثاني كانت المسيحية عبارة عن جماعات متفرقة صغيرة على هامش المجتمع ضمن الإمبراطورية الرومانية، بينما استطاع الإسلام أن يكون واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ في نفس هذه الفترة من الزمن. بالطبع هذا لا يعيب السيد المسيح عليه السلام، بل هذه هي طبيعة الدعوات الرسالية، وطبيعة ردود فعل المجتمعات.

• جذب اليهود:

وادّعت أن النبي ﷺ عندما قرر الهجرة إلى المدينة المنورة حيث اليهود، أراد أن يجذبهم بوسيلتين:

الأولى: أنه أخذ عن العهد القديم مجموعة من التشريعات وجعلها في القرآن،

وهو ما أوجد التشابه بين الإسلام وبين اليهودية، من قبيل: حرمة أكل لحم الخنزير، وتكرار الصلاة خلال اليوم الواحد. والحقيقة أن القرآن تحدث عن ذلك قبل الهجرة بمدة، وقبل وجود أي مؤشر للهجرة إلى المدينة، ففي سورة الإسراء النازلة في السنة العاشرة من البعثة تحدثت الآية ٧٨ عن الصلاة عدة مرات في اليوم، والسورة في ذات الوقت تذكر بالتاريخ الأسود لبني إسرائيل، فهل هذا فعل من يريد جذبهم؟ كما جاء تحريم لحم الخنزير في الآية ١١٥ من سورة النحل المكية النازلة بعد سورة الإسراء.

والوسيلة الثانية: أنه أثنى على اليهود في القرآن، بينما تغير الأمر لاحقاً... والواقع أن القرآن في العهد المكي قد عرض تاريخ بني إسرائيل بسلبياته وإيجابياته، وتضمن نقداً لسلوكياتهم كما في سورة الأعراف الآية ١٣٨، وفي سورة يونس ٩٣، وفي سورة الإسراء من الآية ٤-٨، وهكذا استمر الأمر في سورة البقرة التي تُعتبر من أوائل السورة المدنية، كما في الآيات من ٧٤ إلى ١٢٣.

ثم إن القرآن أثنى في السور الأولى على المؤمنين من أهل الكتاب كأصحاب الأخدود في سورة البروج، وهكذا في السور المتأخرة من العهد المكي كما في قصة أصحاب الكهف والرقيم، ثم استمر في الثناء على بعض أهل الكتاب في العهد المدني في أوج الصراع معهم: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ... لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ «آل عمران: ١١٠-١١٤»، ثم في نهايات العهد المدني كما في الآية ٨٢ من سورة المائدة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

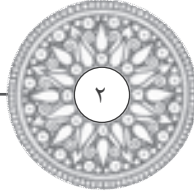
والمسألة التي لم تفهمها هي أن القرآن لا يجامل أحداً بل المسألة هي مسألة قيم ومبادئ والتزام.

• هجمة شرسة:

أعود وأذكر من جديد، أن الإسلام يواجه اليوم هجمة شرسة متعددة الأطراف

والغايات، تشكيكاً وتشويهاً، وافتراءً... ومن مسؤوليتنا أن ندافع عن ديننا، كل بحسبه. وإنَّ الاستغراقَ والإمعانَ في الخلافات البين مذهبية وتصعيد وتيرتها لن يخدم أحداً سوى المتربصين بنا جميعاً، سنةً وشيعاً، فرأسُ الإسلام، كل الإسلام، هو غايتهم.. فلنجعل من الدفاع عن الإسلام مادةً لتوحيد الكلمة والصف، ودافعاً للتركيز على ما نشترك فيه، ليكون منطلقاً للعمل المشترك في مواجهة عدوٍّ تناسى خلافاته العميقة والتاريخية، وتفرَّغ لتحطيمنا، بتوظيف كل الأدوات المتاحة لديه. إنهم لا يعرفون طعم الراحة في هذا الطريق، ونحن مستغرقون في استرخاء أبدي، إلا فيما يُمعن بتمزيقنا داخلياً أكثر وأكثر.





الخطبة الأولى لنكون أعر

من الكلمات الخالدة للعقيلة زينب عليها السلام قولها ليزيد: (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحيانا).

لم تأت هذه الثقة الواضحة في كلمة العقيلة من فراغ، بل انطلقت من إيمانها بالوعد الإلهي في قوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ، ثُمَّ نُنْجِي رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «يونس: ١٠٢-١٠٣». وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ «غافر: ٥١».

وإذا كان سعي أعدائهم لمحو ذكرهم وإماتة وحيهم أمراً واضحاً وبيّناً، فإن من الممكن أن يساهم في ذلك - أيضاً - محبّوهم ومدعو التولي والتشيع لهم.

لقد نبّه أئمتنا عليهم السلام على ضرورة مراعاة الجو العام بعدم طرح ما يمكن أن يثير الحساسيات، ويجر كراهية الناس، كما في المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: (حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَلَا تَحْمِلُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَتَغْرَوْنَهُمْ بِنَا).

وكالخبير الصحيح المروي عن أبي بصير قال: (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا حَبَبْنَا إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يُبَغِّضْنَا إِلَيْهِمْ. أَمَا وَاللَّهِ لَوْ يَرَوْنَ مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَكَانُوا بِهِ أَعَزَّ، وَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَحِطُّ إِلَيْهَا عَشْرًا).

وفي نص آخر أنه قال لرجل قدم عليه من الكوفة فسأله عن شيعته، فأخبره بحالهم، فقال: (والله، ما الناصب لنا حرباً بأشدَّ علينا مؤونةً من الناطق علينا بما ذُكر).. وفي نص آخر: بما نكره (ولو كانوا يقولون عني ما أقول ما عيأت بقولهم، ولكأنوا أصحابي حقاً).

إن النصوص السابقة وأمثالها تؤكد على أن أئمتنا عليهم السلام كانوا حريصين على أن لا يتحدثوا بما يسبب الشرخ في الساحة الإسلامية، وما يمكن أن يقدم صورة سلبية عنهم أو عمن يتولاهاهم.. وأنهم كانوا يوصون بذلك بشدة.. وأنهم كانوا يعتبرون أن ما نُسب إليهم مما يتنافى مع هذه القاعدة العامة إنما هو من وضع الناس لا من أقوالهم عليهم السلام.

وهذا يعني أن دعوى البعض بعدم ضرورة مراعاة الآخرين في ما نطرح، سواءً من حيث المضمون، أو من حيث الأسلوب، يعتبر مساهمةً منا في محو ذكر أهل البيت وإماتة وحيهم. فلنكن المسؤولين في حمل عنوان الولاء والتشيع لهذه المدرسة التي أوصانا بها رسول الله ﷺ في حديث الثقلين، ولنكن لأئمتنا زيناً، ولا نكون شيئاً.. أن نحب الناس إليهم، وأن لا نبغضهم فيهم، فإننا لوروينا محاسن كلامهم لكننا بذلك أعز وأحسن حالاً.

الخطبة الثانية

الإسلام وأهل الكتاب - القسم الثاني

تحدثت في الأسبوع الماضي عن مقطع الفيديو الذي تحدثت فيه السيدة بريجيت غابرييل مدعية أنها ستسحق الإسلام في خمس دقائق من خلال إثارة مجموعة من الشبهات التي تناولت بعضها. وقد ادعت حول مواقف النبي من أهل الكتاب عدة أمور:

• **الدعوى الأولى:** أن اليهود عندما رفضوا دعوة النبي ﷺ صار يقتلهم.

والتاريخ على خلاف ذلك تماماً، فبينما كان بإمكان النبي أن يقتل بني قينقاع ويبيدهم بعد استسلامهم، اكتفى بإجلائهم من المدينة بعد خيانتهم للميثاق القائم بينه وبينهم، وبعد أن رفعوا السيف بوجهه. وهكذا مع بني النضير وبني قريظة، وكلهم انتقلوا الى خيبر وسواها من المدن.

وعندما وقعت الحرب بينه وبينهم في خيبر نتيجة تأمرهم مع الروم ضد دولة الإسلام، ثم انتصر عليهم وفتح حصونهم العاتية، عفى عنهم مجدداً، وأبقاهم في خيبر وما سواها... ولم يُفْنِهِم.

والموقف القرآني واضح إذ لم يأمر بقتال المسلمين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ «المتحنة: ٨».

كما أنه أمر المسلمين بالإنصاف، والتزام العدل والتقوى في الخصومات حتى وإن كان الخصم من دين آخر، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «المائدة: ٨».

وكان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: (لا تعتدوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع....).

وأما في العهد القديم (سفر يشوع ٦: ٢١، ٢٤): (وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ بِحَدِّ السَّيْفِ.. وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا فِيهَا).

وفي العهد الجديد (إنجيل لوقا ١٩: ٢٧) نجد على لسان السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: (أَمَّا أَعدائي، أولئك الذين لم يُريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا وأذبوهم قدامي) ونحن نبرؤهم من ذلك.

• **الدعوى الثانية:** أنه بعد عام من الهجرة حوّل النبي اليهود والنصارى إلى أهل ذمة يدفعون الجزية مقابل حمايتهم، وأنه أذلهم بذلك.

وهذا الكلام غير دقيق لعدة لحاظات:

١. حكم الجزية الخاص بأهل الكتاب في القرآن نزل في السنة التاسعة للهجرة في سورة التوبة.

٢. لو كانت الغاية من فرضها إذلالهم لثم ذلك قبل سنوات في أوج الصراع الذي كان قائماً آنذاك.

٣. الجزية كالضريبة التي يدفعها المسلمون باعتبارهم من المواطنين، لهم حقوق وعليهم واجبات.

٤. عنوان أهل الذمة ليس سلبياً، بل هو إيجابي حيث يتضمن الإقرار بوجود ميثاق شرف بين الطرفين، كما أن عنوان أهل الكتاب إيجابي حيث يتضمن الاعتراف بالرسالات السماوية.

• **الدعوى الثالثة:** أن النصارى ما كان بإمكانهم قرع أجراس كنائسهم وهو ما يعارض الحرية الدينية.

إلا أن التاريخ يؤكد على أن النبي ﷺ كفل لأهل الكتاب الحرية الدينية ومما يدل على ذلك ما جاء مثلاً في نص المعاهدة بينه وبين يهود المدينة: (وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم...).

وكتب لنصارى نجران ضمن المعاهدة: (ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، وصلواتهم).

ولنتذكر أن وفد نصارى نجران دقوا أجراسهم داخل المسجد النبوي، ولم يمنعهم النبي، كما وسمح لهم بالصلاة فيه، وهذا هو المعيار الشرعي لموقف الإسلام. ولو صدرت مواقف مخالفة من بعض الحكام المسلمين فهي لن تعبر عن موقف النبي والإسلام.

ثم عرّجت السيدة بريجيت على الحديث حول ما أسمته الأوضاع السلبية للنصارى في العهد الإسلامي، وشجنت حديثها بالكثير من المغالطات التي تتلخص في تقديم صورة عن التهميش والإلغاء لمواطنيتهم ولأبسط حقوقهم.

ويكفي أن نتذكر عدد الوزراء والمسؤولين والمستشارين والعلماء والأطباء النصارى واليهود الذين عاشوا في الدول الإسلامية المختلفة عبر القرون وساهموا في حضارتها.

كما أن ليس من الإنصاف أن نحمل المسلمين اليوم وزر أخطاء وقع فيها آخرون سبقوهم.

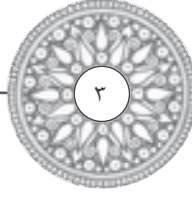
• الاضطهاد الغربي:

إننا في الوقت الذي نبرّي فيه كلّ الرسالات السماوية من الجرائم بحق الإنسانية، فإننا نقول بكل وضوح أن الغرب الذي تتغنى السيدة غابرييل بحضارته، كان يضطهد ويقتل ويحرق ويبيد ويشرد اليهود والمسلمين وأتباع المذاهب المسيحية المتهمين بالهرطقة والابتداع لمخالفتهم المذهب الرسمي للدولة، وبصور تفوق الخيال من حيث البشاعة.

وما محاكم التفتيش في أسبانيا التي قامت بقتل ٢٢ ألف مسيحي مهرطق حرقاً، بالإضافة إلى ٣٠٠ ألف حوكموا وأجبروا على تغيير مذهبهم، سوى نموذج من تلك النماذج الإجرامية. ثم لنستذكر جرائم الإبادة التي تمت على يد الأوروبيين المسيحيين وبحق عشرات الملايين من السكان الأصليين لما يسمى بالعالم الجديد، في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، وفي أستراليا، وقد تفننوا في ارتكاب تلك الجرائم من خلال نشر الأوبئة، وخيانة موثيق الأمان، وجوائز المطاردة، وغيرها.

وأخيراً لتساءل: هل كان هتلر مسلماً أم موسوليني أم ستالين؟ إن جرائم كل واحد من هؤلاء وعدد ضحاياهم فاقت مجموع جرائم الحكام المسلمين عبر التاريخ.. فإن كانت هي جاهلة في التاريخ كما قالت في بداية حديثها فنحن لا نجهله.





الخطبة الأولى الزهاء.. وتر في غمد

الأديب المسيحي الأمريكي المولد، واللبناني الأصل: الأستاذ سليمان كتاني، «ت ٢٠٠٤» يمثل نموذجاً من الكتاب الذين تجاوزوا إطار المعتقد، ليتفاعلوا مع الحقائق والشخصيات كما هي.

وحين قرأ السيرة النبوية وسيرة أهل بيته الكرام وجد في أصحابها نماذج تستحق أن تُقدّم للإنسانية بصورتها المشرقة، بعيداً عن تأثيرات الانتماء والتمايز.

في عام ١٩٦٧ أعلن النجف الأشرف عن مسابقة عالمية للكتابة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، اشترك فيها عشرون مؤلفاً، فحاز الكتاني على المرتبة الأولى عن كتابه الإمام علي: نبراس ومتراس.

وبعد عام واحد اشترك في المسابقة الأخرى التي أعلنت عنها كربلاء حول الزهاء عليه السلام، وحاز مجدداً على المرتبة الأولى، وصدر كتابه فاطمة الزهاء: وتر في غمد، وقد أبدع في تقديم صورة الزهاء عليه السلام في طهرها ومقامها الشامخ.

انطلق الأديب الكتاني - في النص التالي - من صورة الطهر والعفاف لدى السيدة مريم البتول ليقدم صورة أديبة رائعة لظهر وعفاف السيدة فاطمة الزهاء، ليمثلاً بذلك أيقونتان لتقوى المرأة.

إيه فاطمة!



يا ثَغْرًا تَحْلَى بِالْعَفَافِ، فَطَابَ رِضَابُهُ..
ويا عُنُقًا تَجَمَّلُ بِالْمَكْرُمَاتِ، فَذَكَ إِهَابُهُ..
لَقَدْ عَبَقَ خُطُّ وَصْلِكَ بِنْتِ عِمْرَانَ، يَا ابْنَةَ الْمُصْطَفَى..
فَتَلَكِ مَرْيَمُ، مَا فَرَشَتِ الْأَرْضَ إِلَّا مِنْ نُتْفِ الزَّنَابِقِ..
وَأَنْتِ النِّفْحَةُ الزَّهْرَاءُ، مَا نَفَثَتِ الطَّيِّبَ إِلَّا مِنْ مَنَاهِلِ الْكُوْثَرِ..
وَالخُطُّ خُطُّ الطَّهْرِ وَالْعَفَافِ، مَا زَنَرَ الْأَرْضَ إِلَّا خَفَّفَ إِرْهَاقَهَا..
وَلَا عَانِقُ الْأَجْيَالِ إِلَّا لَوْنُ آفَاقِهَا..
وَالْأَرْضُ - لَوْلَا هَذَا الْأَثِيرُ يَغْمُرُهَا - تَأْجُنُ..
وَالزَّمَنُ - لَوْلَا هَذَا الْعَبِيرُ يَرْشُفُهُ - يَأْسُنُ..
يَا بَتُولُ، يَا أُمَّ أَبِيكَ..
لَقَدْ كَانَتْ النُّبُوَّةُ طِفْلَكَ الْبِكْرَ..
دَاعَبْتِيهِ بِيَدٍ..
قَبَلْتِيهِ بِضَمٍّ..
عَانَقْتِيهِ بِعَيْنٍ..
رَافَقْتِيهِ بِقَلْبٍ..
حَضَنْتِيهِ بِرُوحٍ..
ضَمَمْتِيهِ بِشَوْقٍ..
فَاشْتَعَلَتْ بَيْنَ حَنَائِكَ أَشْوَاقُ السَّمَاءِ..
وَالْتَهَبَتْ فِي مَحْجَرِيكَ أَثْقَالُ الْمَعَانِي..
لَقَدْ ذَابَ التُّرَابُ، فِي الْمَصْهَرِ، يَا ابْنَهُ الْجَنَّةِ..
هَكَذَا - يَا ابْنَةَ أَبِيكَ - أَصْبَحَتِ الْوَصِيَّةُ..
يَا طَيِّبَ الْأُمُومَةِ..

يا منتهى العفة..
يا طهارة المردن..
يا نحيلة..
أي فتى هو فتاك؟
ما اندعمت في رحابه إلا كما يندغم النور في كأسٍ شفيف..
يا عناق الحب..
يا وصلة العمر..
يا امتزاج المسك بالعنبر..
يا اعتصار الشوق من قلب العُفر..
يا أم ريحانتين جسداً أشواق النبوة..
يا لبنة البقيع..
يا كبرياء النفس في عنفوان الجفر..
أية دمة ليس لها أن تحرق مُقلتيك؟
وأنت فوق ضريح، ثوى فيه مُحمل الكف، ورنوة القلب، ورنوة العين، وهلة الجبين،
ودفقة الميسم، وهالة كالديمة موصولة العبق بغار حراء..
ومسحة كالنور فيها كل العزاء..
وذاب حبر الوصية يا أنوق..
وبقيت على الخط الكريم..
يا عديلة مريم..
يا قيثاره النبي..
يا ثورة اللحد.. ويا وتراً في غمد .

«المردن: المغزل» «العفر: شدة الشوق» «أنوق: طائر الذي يعيش على القمم»

الخطبة الثانية

الإسلام وأهل الكتاب - القسم الثالث

هل كانت الحروب الصليبية لإنقاذ النصارى في المشرق من الاضطهاد الإسلامي؟ هذا ما صوّرته السيدة بريجيت غابرييل حين أثبتت على هذه الحروب، وافتخرت بها، وكأنها تتمنى تكرارها.

• موقف المشرق المسيحي:

والوقائع التاريخية تؤكد على أن كثيراً من النصارى في المشرق صاروا ضد الغزو الصليبي الأوروبي، وانضم بعضهم لجيوش المسلمين، فكيف كانت الحروب الصليبية لنصرتهم كما تدّعي؟

قال غوستاف ثوبون حول ما أحدثه الصليبيون من كوارث: (... فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً).

وكتب القس ألفس أرسانيوس المتحدث الرسمي باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: (لشدة غيظهم من عدم تعاون الأقباط معهم منعوهم من زيارة الأراضي المقدسة... كانوا في الحقيقة شديدي الحرص على أن يكونوا محايدين بل متعاونين في أحيان كثيرة مع المسلمين في مصر، لأنهم عنصران في بلد واحد، أما الصليبيين فهم غرباء وغزاة).

وكتب إلياس جبور وهو فلسطيني مسيحي: (العديد من المسيحيين العرب حاربوا مع المسلمين ضد الصليبيين، وتقول أدلة التاريخ أيضاً إن الغزاة الصليبيين

عندما اجتاحتها القدس عام ١٠٩٩ فإنهم لم يُقَصِّروا مذابحهم على المسلمين فقط، بل ذبحوا معهم المسيحيين أيضاً... وعندما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس رفض أن يدخلها إلا وبصحبه بطريرك القدس، وعندما استعاد أنطاكية أعاد معه بطريرك الروم الأرثوذكس) ومقالته برمتها مهمة في هذا المجال.

• ضحايا الحربين العالميتين:

ومن بين تخرّصاتهما: أنه بنهاية الخلافة عام ١٩٢٤ كان المسلمون قد قتلوا ٢٧٠ مليون نسمة!

وفي الوقت الذي نشكك فيه بهذه الإحصائية، نتساءل: هل نسيت أنه في الحرب العالمية الأولى التي قامت في العالم الغربي، وفي غضون ٤ سنوات، كان العدد الكلي للقتلى فقط في صفوف العسكريين والمدنيين قرابة ١٠ مليون نسمة. وكان عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية التي استمرت ٦ سنوات فقط ما بين ٦٢ إلى ٧٨ مليون قتيل. أي أن مجموع من قتلهم الحضارة الغربية المسيحية وفي ١٠ سنوات فقط أكثر من ٨٠ مليون نسمة.

• التقية عند النصارى واليهود:

وتحدثت السيدة غابرييل عن التقية، وأنها تمثل الكذب والخداع والنفاق الذي يدعو إليه الإسلام.

وتجاهلت النصوص العديدة في الإنجيل والتي تتحدث عن ممارسة التقية من قبل الحواريين، ومن أوضحها المقطع الذي يتحدث عن ملاحقة أتباع المسيح (متى ٢٦: ٦٩-٧٤): (أَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ جَالِسًا خَارِجًا فِي الدَّارِ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ قَائِلَةً: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ الْجَلِيلِيِّ!». فَأَنْكَرَ قُدَّامَ الْجَمِيعِ قَائِلًا: «لَسْتُ أَدْرِي مَا تَقُولِينَ!». ثُمَّ إِذْ خَرَجَ إِلَى الدَّهْلِيزِ رَأَتْهُ أُخْرَى، فَقَالَتْ لِلَّذِينَ هُنَاكَ: «وَهَذَا كَانَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ!». فَأَنْكَرَ أَيْضًا بِقَسَمٍ: «إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!». وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيْضًا مِنْهُمْ، فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ!». فَأَبْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ) أي يتبرأ من المسيح (وَيُخْلِفُ: «إِنِّي لَا أَعْرِفُ الرَّجُلَ!)). وأما اليهود فحالهم أشهر من أن يحتاج إلى دليل. والحقيقة أن التقية سلوك إنساني عام، والملام عليه الجلال لا الضحية.

• صلح الحديبية:

ومن إثاراتها حديثها حول صلح الحديبية، حيث ادّعت أن النبي كان عازماً على نقض الميثاق منذ البداية، وأنه سرعان ما نقضه حين توافرت الظروف لذلك. وهذا كذب محض:

أولاً: جاء الأمر بالالتزام بالمواثيق والعهود والعقود في عدة مواضع من القرآن الكريم، ونجد مثال ذلك ما جاء في قوله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ «التوبة: ١-٤».

أي أن إلغاء المواثيق مع المشركين إنما تم بحق أولئك الذين لم يلتزموا بها وأعانوا الأعداء على المسلمين، وأما مع سواهم فقد أمر النبي بالالتزام بها وإتمامها كاملة غير منقوصة.

ومن قبل، نهى القرآن عن الاعتداء: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ «البقرة: ١٩٠». وهي من أوائل ما نزل في المدينة. فما هو مفهوم عدم العدوان في أجواء الحرب سوى عدم البدء بالحرب وعدم الغدر والالتزام بالمواثيق؟

وفي الآية ٢ من سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

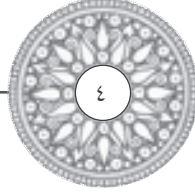
ثانياً: بخصوص صلح الحديبية فإن العودة إلى النصوص التاريخية تؤكد أن قريشاً هي التي نقضت الميثاق، وذلك حين غزت بنو بكر حليفة قريش خزاعة حليفة المسلمين، وأعانتها قريش بالسلاح، حينها تكون قريش قد انقلبت على مضمون الصلح وأسقطته عن الاعتبار.

• ضرورة الإنصاف:

حريٌّ بأي منصف مطلع على التاريخ أن يصل إلى حقيقة مفادها عظمة

الرسالة الإسلامية وعظمة صاحبها ﷺ، وأن الكلمات الحاقدة التي تعتمد على تزوير التاريخ، والتلاعب في المعطيات، وتهيج المشاعر السلبية، وتتطلق لخدمة الأجندات السياسية والانتخابية والمخابراتية سرعان ما تتحطم على صخرة الحقيقة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ «الرعد: ١٧».





الخطبة الأولى

العلاقة بين الإسقاط وذكر المعائب

لماذا ننظر - في أغلب الأحيان - إلى الآخرين نظرة الباحث عن العيوب؟ فكل إنسان يدرك أنه غير معصوم عنها، فلماذا إذاً لا ينظر إلى ما بنفسه من عيوب، ويركّز على عيوب الغير؟

من أسباب ذلك ما اصطلح عليه في علم النفس بعنوان الإسقاط، وهو آلية نفسية تتمثل في هجوم لا شعوري يحمي الفرد به نفسه، إما بإلصاق عيوبه ونقائصه ورغباته المحرمة أو المستهجنة بالآخرين، أو للتهرب من المسؤولية وتبرير فشله بإلقاء اللائمة عليهم.

إذاً، فلنتذكر أنه كلما صدرت مني كلمة أُعيب فيها على الغير فعلاً أو صفةً ما، فإنني أعيب نفسي أمامهم: إما لأنني فعلاً مبتلى بهذا العيب أو بما هو أكبر منه، وقد فضحت نفسي.. وإما لأنني ألصقت بنفسي عيباً وأنا بريء منه، لأن الناس سيعتبرون أنني أقوم بعملية إسقاط. ولذا كانت نصيحة أهل الحكمة دائماً: اشتغل بعيوبك عن عيوب الناس.

• نصيحة علوية:

ولأمير المؤمنين عليه السلام كلمة رائعة في نهج البلاغة في الخطبة برقم ١٤٠ يبين فيها مسؤولية من يجد أنه قد وُفق للسلامة من عيوب ما: (وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ) عندما يقيمون أنفسهم، ويقارنوها بغيرهم،

أولاً: (أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ) روح إنسانية عالية، روح لا تعيش ذهنية التدمير للناس الذين يخطئون، بل تعيش روحية الرحمة لهم. أيها المؤمن المتدين، لا تغتر بما حققت، لا تترفع على أهل العيوب، فتكون تلك لحظة سقوطك من عل وابتلائك بالعيوب بعد السلامة منه...

هذه هي المسؤولية الأولى، والمسؤولية الثانية: (وَيَكُونُ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ) وليتذكر لو سئلت له نفسه عجباً أن يطلق العنان للسانه بالعيوب أنه بين أمرين: (فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبُلُوَاهُ؟! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مَنْ ذُنُوبُهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ؟! وَكَيْفَ يَذُمَّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ؟! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بَعِيْنَهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ).

وحتى لو بحث في ذاته وتوصل إلى أنه لم يرتكب كبيرة كما ارتكبتها الغير فليعلم الحقيقة التالية: (وَأَيُّمُ اللَّهُ لَنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجْرَاتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عِلْمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ غَيْرُهُ).

• لا تفضح نفسك:

فلنحذر دائماً في أنفسنا ولا ننشغل بعيوب الآخرين فنفضح أنفسنا من حيث لا ندري، ونكشف عيوبنا من حيث لا نريد، أو نتهمها بما هي بريئة منه، ونحمل فوق ذلك وزر الكلمة اللامسؤولة التي أردنا أن نترفع بها على الآخرين، وإذا بها تهوي بنا إلى حيث لا نريد:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ «ق: ١٦-٢٢».

الخطبة الثانية

هل الحل في العلمنة؟

في أجواء المصالحة في سورية، وفي خضم الحديث عن التخطيط للمرحلة السياسية القادمة فيها، تحدث البعض عن أن خلاص سورية والحل الأمثل لها وطوق نجاتها: الدولة العلمانية.

قبل كل شيء، لا بد من تذكير سريع حول منشأ العلمانية، ومفهومها الأشمل، ودلالاتها الأوسع.

• الفطرة الإلهية:

ارتبط الإنسان - منذ ظهوره على الأرض - بالآله الخالق المالك المدبر.. وكانت الفطرة، والعقل والعلم والنبوات سبيله إلى ذلك. ولهذا الارتباط عدة أبعاد، من بينها العقدي، والعبادي، والتشريعي المتعلق بتنظيم العلاقة بينه وبين خالقه، وبينه وبين الإنسان، وبينه وبين البيئة التي يعيش فيها.

إلا أن الممارسات السلبية الصادرة عن الذين قَدَّموا أَنْفُسَهُمْ على أنهم الأمناء على الدين وَمَنْ يُمَثِّلُونَ كلمة الله عَزَّجَلَّ على الأرض، كتلك التي عبَّرَ عنها النبي زكريا عَلَيْهِ السَّلَام بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ «مريم: ٥» كان لها دور في دفع بعض المجاميع البشرية نحو التمرد على ما هو ديني.

على سبيل المثال: بيع صكوك الغفران، وإصدار الأحكام الإلهية الأخروية على الناس سلفاً، فهذا في الجنة وذاك في النار، ومحاربة العلم والمعرفة، ومصادرة حرية التفكير بدعوى المحافظة على سلامة العقيدة وحمايتها، والتحالف مع الحكام والولاة الظالمين، وتقديم التبريرات الكفيلة باضطهاد الشعوب، وشرعنة

الظلم والتعدي على الحرمات ونهب الحقوق.. وغير ذلك من الصور الكثيرة التي طفت بها كتب التاريخ والفكر والسياسة التي تناولت العلاقة بين الدين والسلطة.

• نشأة العلمانية:

ومن هنا ظهرت في مجتمعات غربية الدعوة - قبل عدة قرون - لما يُعرف بـ Secularism وتعني بالدقة: الدنيوية أو الدهرية، وتُرجمت في اللغة العربية إلى العلمانية اشتقاقاً من العالم أو بعبارة أخرى: الدنيا.

وتحدّث منظروها - بدءاً - عن علمانيتين: جزئية: وتعني فصل الدولة عن الدين.. وشاملة: وتعني فصل القيم والأخلاق والدين عن حياة الإنسان ككل، واعتبار المادة الأساس في كل شيء.

وأضافوا أن الدعوة إلى العلمانية اليوم هي دعوة للعلمانية الشاملة، لأن فصل الدولة عن الدين قد تحقق فعلياً.. ومن أحب الاطلاع أكثر على هذا الموضوع الحساس فيمكنه مراجعة كتاب العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة للمرحوم د. عبدالوهاب المسيري.

• الأصولية العلمانية:

وهكذا ظهرت الأصولية العلمانية.. العلمانية التي تحولت إلى عقيدة مخاصمة، تسعى لإلغاء الآخر المختلف وتحاربه حتى لو حصل - بأدواتها كالديمقراطية - على بعض المكتسبات السياسية.

وعلى كل حال، فإن الحديث عن أن العلمانية هي الحل السحري أمام الدول العربية، وأن خلاص سورية في المرحلة القادمة يكمن في ضرورة كونه علمانياً، وأن العلمانية هي الضمانة الوحيدة للتعايش السلمي وتحقيق الرخاء، هو في الواقع حديث لا يغني ولا يسمّن من جوع، ويأتي وكأن الحكومات التي عانت - وما زالت تعاني - منها الكثير من الشعوب العربية هي حكومات دينية، وأنه متى ما أمكن استبدالها بحكومات علمانية فسيتحقق الحلم!

فهل حزب البعث الحاكم في سورية الآن، والذي حكم العراق من قبل، حزب ديني مثلاً؟ وهل كانت الحكومات العربية التي ثارت عليها شعوبها المضطهدة وهي

تتّ من وطأة الفساد والظلم وكل صور القهر والتعذيب وتكميم الأفواه واستحواذ الأقلية على الثروة الوطنية حكومات دينية؟

• الدولة المدنية:

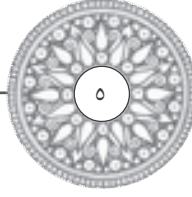
نعم، البعض يحلو لهم أن يسموها دولاً مدنية، إلا أنه في الدقة السياسية لا يوجد شيء اسمه دولة مدنية.. هذا مجرد تلاعب بالكلمات. وحكومات الغالبية العظمى من الدول العربية اليوم حكومات علمانية، فأين الصور الوردية الحاملة التي يقدمها دعاة العلمنة في الأوساط العربية؟

• الحكم القادم في سورية:

ولذا فإن الحديث عن طبيعة الحكم القادم في سورية، والتغيرات السياسية التي تفرضها المرحلة المقبلة، وضمن التعقيدات الموجودة على الأرض، ومنها بروز العديد من الوجودات التي يدّعي كل منها أنه يمتلك الرؤية الإسلامية الشرعية الصحيحة للحكم – وهي أبعد ما تكون عن ذلك – لا يجب أن يدور حول أسلمة الدولة أو علمنتها، بل يجب أن يكون حول كيفية ترسيخ العدالة، وإرساء منظومة الحقوق السياسية والاجتماعية والفكرية، وتمكين الكرامة الإنسانية على الأرض، وتفعيل مفهوم المواطنة والحرية المسؤولة، وتحقيق المصالحة المجتمعية، وإعادة بناء الإنسان والمظاهر المدنية، والبحث عن وسائل التنمية المختلفة، ومعالجة السلبات الهائلة التي أفرزتها الصراعات الدامية في هذا البلد العربي الجريح. هذا هو ما تحتاج إليه سورية فعلياً، وبعيداً عن الحالة الشعاعية، والعناوين البراقة، التي لا تأتي بجديد على الأرض، ولا تخدم إلا عصبيات أصحابها.

إن الموقف المتشنج لذوي الاتجاهات العلمانية، لن يعود على مجتمعاتنا بشئ سوى بالمزيد من التعقيد والصراعات والتفكك، وسيبقى الدين حاضراً مهما فعلوا.. فرحمة بأنفسكم.. ورحمة بوطنكم الجريح سورية.. اعملوا من أجل العدالة وإحقاق الحقوق والتنمية، ودعوا تعصباتكم جانبا.

فلا العلمانية في ذاتها هي الحل، ولا الدين في فهمنا المغلوط له هو طوق النجاة.



الخطبة الأولى

الكذب وحقيقة الإيمان

الملاحظ في سلوك الكثير من المؤمنين استسهال الكذب.. ما عاد الكذب بالنسبة إلينا يمثل ذنباً كبيراً وخللاً سلوكياً له تبعاته الاجتماعية السلبية.

واحدة من هذه التبعات السلبية: تدمير الثقة التي تمثل عنصراً مهماً في البناء المجتمعي السليم.. في علاقة الأزواج ببعضهم البعض.. في علاقة الآباء بالأبناء.. في علاقة المعلم بالتلاميذ.. في علاقة المسؤول بالآخرين.. وأمثال ذلك.

• قِيمُ نَفْسِكَ:

كثيراً ما يردد المؤمنون: كيف لنا أن نعرف بأننا نسير في الاتجاه الصحيح؟ أن الله راض عنا؟ أننا سننال رضوان الله بعد الممات؟

هنا تأتي الإجابة: قِيمُ نَفْسِكَ من خلال المعايير الإيمانية التي ترسم معالم الشخصية المؤمنة.

اعرض أفكارك وأفعالك وأقوالك على هذه المعايير.. فما كان موافقاً لها فاثبت عليها واستزد منها، وما كان مخالفاً لها فاسعَ لاجتنابها وتركها ولو بالتدريج.. ومن المعايير الحقيقية والحساسة في تقييم الحالة الإيمانية: الصدق في الكلام. فعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: (لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطننتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة).

بالطبع الصورة عندنا مقلوبة.. نحن ننظر إلى كثرة العبادة أولاً.. هذا هو معيارنا في التقييم.

والواقع أن النبي ﷺ يدلنا في هذا الحديث - وبوضوح - أن كثرة العبادة لا قيمة لها إن لم تنعكس آثارها الإيجابية على المستوى الأخلاقي والاجتماعي. وصدقُ الحديث على رأس تلك المعايير في الصورة السليمة للتقييم.

كما وأكد الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن الدعوة إلى صدق الحديث كان جزءاً لا يتجزأ من رسالات كل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على مر التاريخ البشري، حيث قال: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ).

• الحقيقة الإيمانية:

وهذا يعني أن الحقيقة الإيمانية غير مختصرة عند الكاذبين.. وإن صلوا، وإن زكوا وخمسوا، وإن صاموا وحجوا، وإن أطال الرجل لحيته، وإن كانت المرأة ملتزمة باللباس الشرعي وبالغت فيه.

هذه الأمور كلها لا تثبت رسوخ الحالة الإيمانية لدى الإنسان.. ليست هي المعيار الكافي للتقييم. هناك شيء آخر.. هناك الصدق.. وهناك الأمانة.

فقد لا يكون مظهر الإنسان الخارجي إلا انسجاماً مع البيئة من حوله.. وقد لا تكون عباداته تلك إلا عن عادة يستوحش من تركها كما جاء عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: (لا تغتروا بكثرة صلاتهم وبصيامهم فإن الرجل ربما لهج بالصلاة وبالصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الأمانة).

إن اعتياد واستسهال الكذب يقارب الإنسان من النفاق، وقد روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: مَنْ إِذَا اتَّخَمَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وقال: ﴿أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾).

الخطبة الثانية

تعديل المادة ٧٩ من الدستور

تنص المادة ٧٩ من الدستور الكويتي على التالي: (لا يصدر قانون إلا إذا أقره مجلس الأمة وصدّق عليه الأمير).

وأثير مؤخراً في مجلس الأمة موضوع تعديل هذه المادة ليضاف إليها بند الموافقة للشرعية الإسلامية لتصبح المادة هكذا: (لا يصدر قانون إلا إذا أقره مجلس الأمة وصدّق عليه الأمير وكان موافقاً للشرعية الإسلامية).

ولست هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها هذا الطلب، ففي عام ٢٠١٢ تقدم عدد من النواب باقتراح مماثل، وقوبل بمذكرة وجهها أمير البلاد، بين فيها أن الأخذ بهذا المقترح من شأنه إثارة الخلافات السياسية، والفتن الطائفية المذهبية، ما يهدد الوحدة الوطنية. ومن هنا اختُتمت المذكرة الأميرية بعبارة: (نجد أنه من المتعذر قبول الاقتراح).

ولا أريد هنا أن أتحدث باسم طائفة معينة أو جماعة سياسية، بل أعبر عن رأيي الشخصي الذي أقدمه من أجل التدبّر فيه، وإثارة جو من التفكير فيما له علاقة بمستقبل البلد.

كما أنني لست في وارد إصدار الأحكام على نوايا المتقدمين بالطلب، والتجمعات السياسية والدعوية التي أصدرت لاحقاً بياناً تأييدياً لذلك، وهل المسألة مجرد إبراء للذمة والالتزام بوعود قطعت في أيام الانتخابات، أو لإثبات الوجود السياسي، أو وسيلة ضغط لإبرام بعض الصفقات مع الحكومة والحصول على بعض المكتسبات، أو أنها فعلاً خالصة لوجه الله عزّ وجلّ.

• سؤال بسيط:

أنا أريد أن أطرح سؤالاً بسيطاً: الكويت - اليوم - تواجه تحديات عديدة وحساسة جداً، وبعضها قد يكون خطيراً على المدى المنظور.. ولولا استمرار نوع من الوفرة المالية لشهدنا بعض التداعيات غير المحمودة.. فهل سيكون لتعديل هذه المادة أي أثر إيجابي في مواجهتها؟

سأتحدث عن خلل واحد: الفساد. وهو خلل مستفحل، ويعاني منه البلد بشدة. فلو افترضنا الآن إقرار هذا التعديل.. هل سنتخلص من أنواع الفساد؟ الاختلاسات، والرشاوى بأنواعها، وهدر المال العام، والمحاصصة، والتعيينات القائمة على المحسوبيات السياسية والحزبية والاجتماعية والطائفية، وعلى الصفقات السياسية، لا على أساس الكفاءة والاستحقاق؟

مئات الشواهد والتجارب تؤكد على أن بعض الجهات الداعمة لمشروع التعديل هي جزء لا يتجزأ من حالة الفساد هذه، إن لم يكن هذا البعض من المؤسسين لها.

للأسف، فإن أية وزارة أو مؤسسة وقعت بأيديهم طوال العقود الماضية، شهدت حالة من الفوضى الإدارية الناجمة عن التعيينات القائمة على المحسوبية الحزبية والطائفية، لا على الكفاءة. وكانت لهذه الفوضى تبعات على المدى الطويل، لأنها لم تتوقف عند هذه التبديلات، بل ترسخت وتقرعت وأصبحت عائقاً أمام تطوير الأداء الحكومي وعلى مستويات مختلفة.

وهكذا تجد هذه الجهات دائماً على قائمة المساومات والصفقات السياسية والإدارية والمالية على حساب المصلحة العامة للبلد والمواطنين.. والطريف أنك حينما يمت وجهك، في هذا البلد أو ذاك أو ذاك، وجدت هذه الصورة متكررة.

• جذور فكرية:

المسألة لها جذورها الفكرية، ولا يمكنها الخلاص منها، لأنها من أهم الأسس الفكرية بالنسبة إليها. ومن أهم عناصر بنائها حديث الفرقة الناجية.. ٧٢ فرقة في النار، وواحدة فقط هي الناجية. هذا الفكر الإقصائي الإلغائي لا يسمح ولا يعطي مجالاً ولا يفرّج إلا هكذا سلوك سياسي وإداري واجتماعي.

ثَقُّوا أَنْ جُلَّ هَمُّهُمْ وَمَبْلَغُ غَايَتِهِمْ وَطُمُوحِهِمْ مِنْ تَعْدِيلِ الْمَادَّةِ هِيَ مَسْأَلَةٌ إِقَامَةِ الْحُدُودِ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالرَّقَابِ وَجَلْدِ النَّاسِ أَمَامَ الْمَلَأِ الْعَامِ، وَإِنْ أَخْفَا ذَلِكَ وَرَاءَ بَعْضِ الشَّعَارَاتِ الشَّمُولِيَّةِ، وَالْعَنَاوِينِ الرَّنَانَةِ، وَالضَّرْبِ عَلَى وَتَرِ الْمَشَاعِرِ وَالْأَحَاسِيْسِ الدِّينِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ. وَبِتَعْبِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا رَوَى عَنْهُ: (مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ).

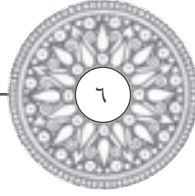
ففي تصريح لأحد الداعمين لمشروع تعديل المادة ٧٩ من الدستور يقول: (هناك الكثير من القوانين المخالفة للشرعية، سواء في قانون الجزاء أو غيره). نعم قانون الجزاء.. هذا مبلغ همهم.

ولك أن تتخيل أنهم انطلقوا بعد تعديل المادة وبهذه العقلية والروحانية نحو المناهج الدراسية، والمشاريع التربوية، ونحو القوانين المرورية، والأماكن العامة... كيف ستكون صورة البلد؟

• انعدام الثقة:

نحن كمسلمين نؤمن ونسلم بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «المائدة: ٤٥»، وبقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ «الأحزاب: ٣٦». ولكن - وبكل صراحة - نقول: إن شريعة كبيرة من أبناء هذا الوطن، وعلى ضوء الخبرات والتجارب المتراكمة، لا تثق بالمشاريع التي تقدمها الجهات التي تقف وراء المطالبة بتعديل المادة التاسعة والسبعين من الدستور الكويتي، ومن قبلها المادة الثانية منه، بل وتتوجس من النتائج التي ستترتب على ذلك، ولا سيما مع حضور الفكر والمنهج الإقصائي - وبقوة - لدى هذه الجهات، والدور القديم الجديد للبعض منها في ما يعاني منه البلد من صور الفساد والتردي في الأداء السياسي والإداري والتربوي.

إن الكويت الغالية للجميع.. تسعنا وتسعكم، وتحضننا وتحضنكم، وقد عمَّ الله عَزَّجَلَّ عليها من خيراته ما يكفي الجميع، ويفيض، فتعالوا ونحن نحتفل بأعيادها الوطنية لنفكر بجديّة فيما يخلصها مما علق بها من أدران الفساد والتخبط وهدر المال العام، وذلك ضمن مشروع وطني يتوافق عليه الجميع بعيداً عن المزايدات والمهاترات والتكسّبات والتحزّبات.



الخطبة الأولى يد من عالم القدس

روى الصدوق في مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ: (أَلَا أُحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ؟ إِنَّهَا كَانَتْ عِنْدِي، فَاسْتَقَتَ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثَرِيَ فِي صَدْرِهَا، وَطَحَنَتْ بِالرَّحَى حَتَّى مَجَلَّتْ يَدَاهَا) أَيِ ظَهَرَ فِيهَا انْتِفَاحَاتٌ تَحْتَوِي عَلَى الْمَاءِ مِنَ الْعَمَلِ بِالأَشْيَاءِ الصُّلْبَةِ الْخَشْنَةِ (وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقَدَرِ حَتَّى دَكُنَتْ ثِيَابُهَا، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضَرٌّْ شَدِيدٌ، فَقُلْتُ لَهَا: لَوْ أَتَيْتَ أَبَاكَ فَسَأَلْتَهُ خَادِمًا يَكْفِيكَ حَرًّا) شَدَّةٌ (مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ حُدَاثًا) جَمَاعَةٌ يَتَحَدَّثُونَ (فَاسْتَحْيَتْ فَانصَرَفَتْ، فَعَلِمَ ﷺ أَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ لِحَاجَةٍ...) وَهَكَذَا تَسْتَكْمِلُ الرِّوَايَةَ تَفْصِيلًا زِيَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِهَمَا وَسْؤَالَهُ عَنْ سِرِّ قَدُومِهَا عَلَيْهِ، وَبَيَانِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَذَلِكَ، وَكَيْفِ ارْتِدَائِهِمَا النَّبِيَّ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِالتَّسْبِيحَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِتَسْبِيحَةِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ لِلْاسْتِعَانَةِ بِهَا فِي الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِ الْحَيَاةِ، لِتَخْتِمَ الرِّوَايَةَ بِقَوْلِهَا عَلَيْهَا السَّلَامُ: (رَضِيتُ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ. رَضِيتُ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ).

هذا الحدث - لعظمته - خُلِدَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَمَا رَوَاهُ عُلَمَاءُ الشَّيْعَةِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُمْ.

هذه الصورة الملائكية للزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالتَّضَحِّيَةِ وَالْعَطَاءِ.. هذه اليد التي قُدِّسَتْ حِينَ ارْتَفَعَتْ فِي تَهَجُّدِهَا وَالنَّاسُ فِي هَجْعَةٍ مِنْ

الليل، وتواضعت فاستقت وطحنت وكسحت حتى مجلت، قد رفع الله قدرها، فخلد ذكرها عبر القرون..

• زواج الدولار:

هذه الصورة تقابلها صورة مؤسفة تتمثل في دخول الفتيات عالم الزوجية بمنظور مادي إلى أبعد حد.. كل شيء محسوب بالمادة.. داء أصاب حتى المتدينات منهن.

الزواج في الولايات المتحدة يُعرف بزواج الدولار.. أي أن كل شيء محسوب بالماديات.. الإقدام على الزواج، الأخذ والعطاء، الاستمرار والانفصال.. كل شيء محسوب بالدولار. بل في بعض الحالات يلجأ الطرفان إلى ما يُعرف باتفاقية الزواج Marriage Agreement والتي تتضمن أدق التفاصيل المادية فيما لو قررا الطلاق، بل قد تتضمن تفصيل الإنفاقات اليومية، وكيف سيتعامل كل منهما مع مخصصات التقاعد.. إلخ! هذه العقلية المادية الصرفة غزتنا بقوة.

عندما تكون المادة هي الحاكمة في الحياة الزوجية، فهذا يعني الحكم على هذه الحياة بالجفاف الروحي.. هناك يد غيبية ترعى وتحيط الحياة الزوجية بالناية.. هذه اليد الغيبية ترتفع عندما تستحكم الماديات في هذه الحياة.

في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (فأما المرأة فشؤمها غلاء مهرها)، وفي حديث آخر: (ومن شؤمها شدة مؤونتها) أي زيادة متطلباتها المادية المرهقة لاقتصاديات الأسرة.

• البركة والرزق:

البركة في استمرار بقاء اليد الإلهية التي ترعى هذا البيت: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. «آل عمران: ٣٧».

إن هذا الرزق بلا حساب ليس بالضرورة أن يكون بصورة إعجازية.. فعندما تترفع الفتاة المؤمنة عن الماديات، وتدخل الحياة الزوجية لتعيشها في صورتها السامية كما عاشتها الزهراء عليها السلام، حيث قبلت بكل البساطة في مهرها وفي جهاز بيتها وفي تحمل مسؤولياتها كزوجة وكأم، فإن الله يحيط هذا البيت بالبركة،

ويرزق أهله من حيث لا يحتسبون.. وهذا لا يعني أن تختفي الصعاب، فهذه سنة الحياة.. كما لا يعني أن يتكاسل الزوج عن تحمل مسؤولياته المادية تجاه أسرته، بل يعني أن يعيش الزوجان طمأنينة الروح وأن يحافظا على المودة والرحمة فيما بينهما، وأن يعملوا معاً لتجاوز الظرف العصيب متى ما طرأ بكل وفاء وإخلاص. إن شؤم الحياة الزوجية يحل عندما ترتفع يدُ الله عن تلك الرعاية الغيبية، وتُخلي بين الزوجين وبين حساباتهما المادية البحتة.. ولن يصلا حينها سوى إلى الحياة التي لا ينتهي بؤسها، لأن من طبيعة النفس البشرية الحريصة على المادة أن لا تشعر بالاكْتفاء إلا حين يستحكم الموت.

الخطبة الثانية

خصخصة العلاقة بالله

في الأسبوع الماضي وفي ضمن حديثي حول الموقف من تعديل المادة ٧٩ من الدستور، أشرت إلى الروحية والعقلية الإقصائية التي يعيشها البعض. وكنت قد أشرت أيضاً إلى دور تبني مضمون خبر الفرقة الناجية، اثنتان وسبعون فرقة في النار، وواحدة فقط في الجنة، في خلق مثل هذه الروحية والعقلية الإقصائية.

أود أن أتحدث اليوم عن عامل آخر يؤدي إلى تكوين هكذا عقلية وروحية غير سوية.. وأؤكد على أنها غير سوية، لأنها تخالف الغاية الإلهية من التنوع البشري: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «الحجرات: ١٣».. فهل في الآية حديث عن إقصاء وإلغاء الآخر أم التعايش؟

من عوامل خلق هذه العقلية والروحية غير السوية: خصخصة العلاقة بالله.

نحن نعرف ما هي الخصخصة في عالم الإدارة والاقتصاد ونتفهمها.. ولكن القرآن يحدثنا عن نوع آخر من الخصخصة، وهي خصخصة العلاقة بالله!

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْرِضُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨). هذا الإله لنا نحن.. ونحن المدللون عنده.

ومن المعلوم أن الأب إذا أحب أبناءه بشكل كبير ودلهم فإنه يتغاضى عن أفعالهم السيئة، ويرى القبيح منهم جميلاً، بل ولربما يبرر لهم أفعالهم القبيحة، وقد يصل إلى حد تحريضهم على الآخرين! هكذا صوّروا علاقة الله ﷻ بهم وعلاقتهم به. وبعد أن يصدّق الإنسان هذه الفكرة المشوهة للعلاقة بالله ويتبناها ويربي عليها الأجيال، تظهر بالتبع فكرة أخرى ذات آثار عملية من بينها ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٥-٧٦).

الفكرة الفرعية لخصخصة العلاقة بالله هي: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾. أي أن كل التصرفات مباحة بحق الأغيار الذين لا يلتقون معنا في الدين والفكر.

وواحدة من الآثار العملية لذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.. خيانة الأمانة! هذا هو الفعل.. وذاك هو المبرر.. والخصخصة هي المنطلق.

• الجواب الإلهي:

وأما الجواب الإلهي لكل هذا التشويه والتلاعب في المفاهيم الإيمانية فتضمنتها الآيات السابقة:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾... الكل سواسية أمام الله من حيث المبدأ.

﴿وَالَيْهِ الْمَصِيرُ﴾... الجميع سيُحضرون ويقفون بين يدي الله للحساب والثواب والعقاب.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِشَرِّ مَعْنٍ خَلَقَ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.. لا أحد يملك الحصانة يومئذ.. لا توجد فئة مدللة ذات امتيازات.

﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.. ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾.. بالتقوى يتمايز الناس بين يدي الله.. التقوى التي تنعكس على مستوى العمل، ومن مصاديقه الوفاء بالعهود مع كل الناس مهما اختلفوا في انتماءاتهم الدينية والعرقية والقبلية وسائر ما يتمايز به الناس.

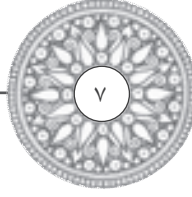
• خلل فكري:

إن فكرة نحن أبناء الله وأحباؤه لا تقتصر على اليهود والنصارى، فهذه الخصخصة في العلاقة مع الله يتبناها كثيرون في الدائرة الإسلامية، وهي من أخطر منافذ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فهي ترسم معالم علاقة مشوهة بين العبد والمعبود، وتصور له امتلاك حصانة سماوية وهمية، تدفعه نحو تبني الروحية والعقلية الإقصائية التي تُبيح له فعل ما يشاء تجاه الآخر المختلف، وإن بلغ هذا الفعل مستوى مرتفع من الجريمة في العرف الإنساني وفي الحكم الشرعي.

وهذا ما يفسر لنا استسهال وتسويق القيام بجرائم الإرهاب والقتل والحرق والاغتصاب والإبادة الجماعية التي تُقدم عليها الجماعات التكفيرية بدم بارد.

وإن كانت هذه الجماعات التكفيرية هي المصداق الواضح لهذه الخلل الفكري، فإن في أوساطنا من يحمل هذه البذرة ويسعى لزرعها من خلال التحريض على كراهية الآخر، وفعل ما من شأنه خلق فتنة عظيمة بين المسلمين، وكل ذلك بدعوى الغيرة على أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والثأر لهم وأسترداد حقوقهم المسلوبة!

إن مسؤولية الانتماء إلى الإسلام تُحتم علينا نشر ثقافة التعارف وتقبل الآخر المختلف دون أن يعني ذلك التخلي عن مسؤولية الدعوة، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة.



الخطبة الأولى الإعراض عن اللغو

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. «سورة القصص، الآية: ٥٥».

اللغو هو: الكلام الباطل.. ومصاديق اللغو كثيرة.. ومصادره باتت متعددة..
في الماضي كان الصوت والكلام المباشر الصادر من الإنسان.

الآن وسائل الإعلام، والكمبيوتر، والهواتف بأنواعها، ووسائل التواصل الاجتماعي، كلها أصبحت من مصادر اللغو.. فهل نستسلم لها ولكل ما ينتشر ويُبث من خلالها؟ استسلامٌ من حيث الوقت المستغرق فيها.. ومن حيث المتابعة والاهتمام.. ومن حيث التصديق والتأثر بها؟

• تحذير من الاستسلام:

القرآن يحذّر من هذا الاستسلام، ويبين بكل وضوح أن أجواء اللغو ليست من أجواء المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ «المؤمنون: ١-٤».

ولنلاحظ هنا إقحام الإعراض عن اللغو بين الصلاة والزكاة، على خلاف ما اعتدنا عليه في القرآن الكريم.

الإعراض يعني الصد وعدم الإقبال على الشيء.. فما السر في هذا الإقحام؟

فلنتذكر أن الله غني عن صلاتنا.. وأن تشريع الصلاة يراد له أن يؤثر في سلوك الإنسان.. أن يصلح الإنسان.. ويقوم سلوكه.

وواحدة من هذه التأثيرات المفترضة، والتي تمس الحركة اليومية للإنسان وتؤثر على شخصيته وعلاقاته وجدّيته ومواقفه: ماذا يقول.. وإلى مَ يستمع؟ الكلام الذي يبيته الإنسان، والذي يستمع إليه.

وبما أن الصلاة من مظاهر الأقوال الصالحة، لذا كان الإعراض عن اللغو - قولاً واستماعاً - مما تقتضيه الصلاة والخشوع فيها. وكأن الآية تقول: إن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل.. ومن اعتاد الخشوع لله عَزَّجَلَّ تجنب قول الباطل.

• انعكاس للحقيقة:

أيها المؤمن! إن مدى إقبالك أو إعراضك عن اللغو قولاً واستماعاً إنما يعكس حقيقة صلاتك.. أهى صلاة لغوية، أم هي صلاة حقيقية كما يريدّها الله.. صلاة المؤمن الحقيقي. ولذا فإن القرآن يطالب المؤمن بأن يكون له موقف واضح عند اللغو: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ موقف سريع وحاسم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ إن هذه الأجواء ليست أجواءنا.

إننا نتنزه ونترفع عن مثل هذا الفعل ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ فاللغو ليس من صفات العقلاء، ليس من صفات الإنسان الذي يشعر بمسؤوليات هذه الحياة، وبمسؤولية اليوم الآخر.. بل من صفات الغافلين، المستغرقين في الجهل.

• لا لغو في الجنة:

ولقبح اللغو وآثاره السلبية، فإنك لا تجد له مكاناً في الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا﴾ «مريم: ٦١-٦٣».

ومن هنا فلندرك بكل وضوح أن الاستغراق في اللغو عبر وسائل التواصل الاجتماعي لا يلتقي وشخصية الإنسان المؤمن الذي يستذكر قوله عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

الْمُؤْمِنُونَ»، والذي يسعى إلى تحقيق الصلاة الخاشعة باعتبارها المقوم الأول للفلاح، لأن من مظاهر وانعكاسات هذا المقوم ما جاء في الآية اللاحقة مباشرة حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

وبكلمة واحدة: إن اللغو سيوقفنا موقفَ النادمين بين يدي الله، لأن اللغو والحق لا يلتقيان، ولن نجد في ميزان أعمالنا إلا الحق: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ «الإسراء: ٣٦».

الخطبة الثانية

الميثاق الغليظ

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ «المجادلة: ١».

في الطبقات الكبرى لابن سعد عن عمران بن أبي أنس أنه قال: (كان من ظاهر في الجاهلية) أي قال لزوجته: أنت علي كظهر أمي (حرمت عليه امرأته آخر الدهر) وفي بعض الكلمات أنها تبقى زوجته ولا يحق لها الزواج من غيره وبالتالي تكون معلقة (فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن صامت، وكان به لم نوع من الجنون ويبدو أنه كان إدوارياً غير مستمر) وكان يفيق فيعقل بعض العقل. فلاخى) كثر كلامه في الباطل (امراته خولة بنت ثعلبة أخت أبي عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة في بعض صحواته فقال: أنت علي كظهر أمي. ثم ندم على ما قال. فقال لامراته: ما أراك إلا قد حرمت علي. قالت: ما ذكرت طلاقاً، وإنما كان هذا التحريم فينا قبل أن يبعث الله رسوله. فأت رسول الله فسأله عما صنعت. فقال: إني لأستحيي منه أن أسأله عن هذا فأتي أنت رسول الله ﷺ عسى أن تكسبينا منه خيراً تفرجين به عنا ما نحن فيه مما هو أعلم به. فلبست

ثياباً ثم خرجت حتى دخلت عليه في بيت عائشة فقالت: يا رسول الله، إن أوساً من قد عرفت، أبو وُلدي وابنُ عمي وأحبُّ الناس إليّ، وقد عرفتُ ما يُصيبه من اللمم وعَجَزَ مقدّرتَه وَضعَ قوّته وعَيَّ لسانَه... إلى أن قالت: (وقد قال كلمة، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكرَ طلاقاً، قال: أنتِ عليّ كظهرِ أمي).

فلنلاحظ كيف قامت بترتيب الكلام من أجل أن تجد لنفسها مخرجاً وتعيد الحياة الزوجية إلى وضعها الطبيعي.. ومع مَنْ؟ مع رجل قد فقد عقله نسبياً.. مع رجل أهانها بقوله هذا.. وفي رواية أخرى أنه قد كبر سنه وساء خلقه ولم تكن المرة الأولى التي يسيء فيها إليها.

• مقارنة بين حالين:

لو كان في مجتمعاتنا في هذا الزمن لربما قالت: فراقك عيد... دفعةً مردي والهوا شرجي.. روحة بلا ردة!

ولكن علينا أن نتفهم كيف كانت حريصة على بيت الزوجية واستمرار هذه العلاقة على ما فيها من علّات وصعوبات.. هذه العلاقة التي عبّر عنها القرآن بالميثاق الغليظ! للأسف اليوم وبكل سهولة يتم تفكيك هذه العلاقة.. ما عاد مفهوم الميثاق الغليظ حاضراً في أذهان الطرفين.. الميثاق الغليظ يعني التزام الرجل بمسؤوليات الحياة الزوجية.

• إعادة برمجة:

عندما تتزوج أيها الشاب عليك أن تعيد برمجة يومك.. وقتك.. اهتماماتك.. علاقاتك.. أسلوبك في الإنفاق.. ما عدت تتحمل مسؤوليتك الشخصية فقط.. هناك زوجة.. وغداً هناك أبناء.. عليك أن تتعلم الاقتصاد الأسري: الموازنة بين الدخل.. والإنفاق.. والادخار. عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام: (رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْسَنَ فيما بينه وبين زوجته، فإن الله عزّ وجلّ قد ملّكه ناصيتها، وجعله القيم عليها).

وعندما تتزوجين أيها الشابة عليك أن تدركي أنك دخلت عالماً جديداً.. لن تجدي هذا الإنسان الذي ارتبطت به بهذا الميثاق الغليظ متطابقاً مع شخصيتك وأطبائعك.. فكل إنسان خصوصياته.

قد لا يكون في أكثر الأحيان فارس الأحلام الذي رسمتيه في مخيلتك.. تلك أحلام.. وهذا واقع.. ذاك عالم ديزني وهوليوود.. وهذا عالم الحقيقة.. وعليك أن تقبلي بهذا الواقع وتحسني التعامل معه.

عندما تقع المشكلة، عندما يُخطيء بحقك، فليس هذا نهاية المطاف.. ليس هذا المسمار الأخير في نعش حياتك الزوجية.. مهلاً مهلاً.. تعاوناً - وبكل وسيلة ممكنة - على البحث عن مخرج من أزمكما.. تماماً كما فعلت خولة وزوجها.

أنا أدرك أن بعض الآباء والأمهات قد لا يشعرون بالارتياح تجاه هذا الطرح. الأب والأم في مثل هذه المواقف يريدان الانتصار لابنتهما.. تربت بعز ودلال، والآن جاء هذا ليؤذيها؟ الطلاق أبرك!

ولكن أقول لهما: هذا اختياركم جميعاً أو ما وافقتم عليه على الأقل.. وعليكم أن تتحملوا مسؤولية ذلك.. بمساعدة الطرفين على تجاوز الأزمات، وإصلاح ذات البين، وبالتوجيه والنصيحة.

• نزول الوحي:

نعود الآن إلى الرواية: (فقال رسول الله: ما أراك إلا قد حرمت عليه) ومع هذا لم تياس (فجادت رسول الله مراراً ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وجدي، وما شق علي من فراقه، اللهم أنزل على لسان نبيك ما يكون لنا فيه فرج. قالت عائشة: فلقد بكيت وبكى من كان معنا من أهل البيت، رحمة لها، ورقة عليها....).

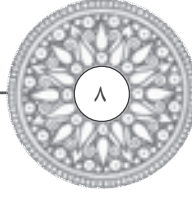
وتكمل الرواية كيف نزل الوحي على النبي ﷺ في تلك اللحظات، رحمة بهذه السيدة المحترق قلبها أماً، والصادقة في البحث عن حل يخرجها من الورطة التي أوقعها فيها زوجها، ومن أجل تقديم حكم شرعي لمثل هذه الحالات.

فقال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾.. ثم نزلت الآيات لتبين المعالجة الشرعية لما جرى من خلال التكفير بعقوبة، فإن لم يمكن فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يمكن فإطعام ستين مسكيناً.

• الزواج ميثاق غليظ:

إن العلاقة الزوجية تمثّل الميثاقَ الغليظَ الذي يربط بين شخصين.. ومن هنا فإن المسؤولية تحتم عليهما أن يبذلا قصارى جهدهما للخروج من الأزمات التي قد تعصف بهذه الحياة المشتركة وليتجنّبا العزة الكاذبة التي تدفع صاحبها إلى المكابرة، ورفض الحلول، ورفع سقف المطالبات، فقد يفلت زمام الأمور من الطرفين، ويفرط العقد، ليجدا نفسيهما أمام واقع مرّ، ومعاناة نفسية وجسدية ومالية، كان بإمكانهما تجنبها بقليلٍ من الحكمة والتصبر والتعالي على الجراح.





الخطبة الأولى رسالة إلى الزهراء

تحدثت في أكثر من مناسبة عن ترتيب الأولويات في حياتنا وعن فقه الأولويات،
والخريطة التي يقع فيها بعض المتدينين نتيجة للخطبة المفاهيمية.

وهو ما نبّهت إليه بعض الآيات الشريفة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ
وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ «التوبة: ١٩».

فقد يتم التركيز على السطح وننسى العمق والأهداف الكبرى، أو ما هو
أهم وأولى بالمعيار الإلهي، ففي الخبر أن رسول الله ﷺ نظر إلى الكعبة فقال:
(مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله؟! والله للمؤمن أعظم
حرمة منك، لأن الله حرّم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يُظن
به ظنّ السوء).

المنطقة اليوم تشهد الكثير من الحروب والمآسي والأوضاع المأزومة التي تترتب
عليها الكثير من التبعات المتعلقة بالأوضاع الإنسانية، ومع هذا نجد البعض تغيب
عنه الأولويات في مسألة الإنفاق المستحب والتبرعات.

العراق على سبيل المثال يعاني من الحروب منذ سنوات.. مئات الآلاف من
الأرامل والأيتام.. ملايين الفقراء.. مئات الآلاف من المهجرين وممن يسكنون في
بيوت غير آمنة، وفي ظل خدمات أساسية شبه غائبة كالماء والكهرباء.

• تزيين المقامات:

في مثل هذا الظرف يتوجّه البعض ويعلن عن جمع الأموال لترميم بعض المقامات والمراقداً مقامات مجهزة ومزينة وتؤدي المطلوب وزيادة.. وبعضها لم يثبت أن هناك أحداً مدفوناً بها.. بل بعضها لم يثبت أن صاحب المقام قد ولد في يوم ما.. واعتمد على الأحلام في تشييدها!

أيهما أولى.. إغاثة الموارد التي ذكرناها، أم ترميم هذه المقامات وتزيينها وتذهيبها وتوسعتها؟

إذا كان حب أهل البيت على وجه الخصوص هو الدافع لهذا العطاء، فليكن عطاؤك لذريتهم من الأيتام والأرامل والفقراء والمهجرين.. إذا كنت تستشك من التصديق عليهم فليكن عطاؤك هدية.

لا أريد أن أفرق هنا بين المحتاج من ذريتهم وبين غيرهم.. ولكن أقول إذا كانت دافعية البعض للعطاء بهذه المحدودية، فليكن.. ومن خلاله يمكن إنقاذ أسر بكاملها من الآثار الخطيرة لل فقر.

بالطبع الآن ستقوم قيامة البعض عندما يسمع كلامي هذا.. وستكّال التهم.. لا يهم.. المهم أن ينتبه من يعيش الغفلة حين يسمع كلامي هذا.

• بم ستجيب الزهراء؟

لو كان بإمكاننا - اليوم - إرسال رسالة وتلقي الجواب من مولاتنا فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَام في ذكرى مولدها المبارك، وسألناها: مولاتي.. يا صفاء الروح.. يا طهر القلب.. يا نسيم الحياة.. يا منار الوعي.. يا قبسة الحق.. يا يقظة الضمير.. يا وثبة العدل.. يا عبقة الجنة.. يا سيدة النساء.. في خضم ما تعيشه المنطقة من حروب ومأس إنسانية وهجرة، أيهما الأولى والأجدر بالإنفاق: ترميم وتزيين المقامات.. أم سد رمق جائع.. وزرع البسمة على شفتي يتيم.. وتحصين أرملة.. وتأمين مسكن لمهاجر.. وتوفير مصدر رزق لأسرة معولة؟ يا من آثرت الجوع وأطعمت المسكين واليتيم والأسير، لا أخالك ترضين بغير الاقتداء بهذا الإيثار الذي خلده كتاب الله العزيز في سورة الدهر، فقلت بذلك المقام الرفيع أبد الدهر.

الخطبة الثانية الخطبة الأصلية

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة: ٣٠».

لماذا نتحمل نحن خطيئة أبونا آدم وحواء ونعيش عالم الابتلاء والاختبار والفتنة في هذه الدنيا، بدلاً من الكون والحياة في الجنة كما كان عليه الأمر في البدء؟ لاسيما وأن القرآن الكريم قد نص في خمسة موارد على التالي: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ «الأنعام: ١٦٤».. كما أن العقل - بغض النظر عن النص - يحكم بذلك ومن منطلق العدل.

• ثقافة مسيحية:

يبدو لي أن هذا السؤال مستعار من الثقافة المسيحية المتعلقة بما يعرف بالخطيئة الأصلية وليس سؤالاً أصيلاً في الإسلام.. تماماً كما هو حال الفكرة التالية: (المراة أساس كل خطيئة) انطلاقاً من قصة آدم وحواء والأكل من الشجرة، على اعتبار أن الشيطان خدع حواء، فقامت هي بإغواء آدم، فأكل من الشجرة. أي لولا إغراؤها لآدم، ما غضب الله عليه، ولما طردهما من الجنة إلى الدنيا دار الشقاء والنكد.

هذه الفكرة مستعارة من ثقافة المؤمنين بالتوراة المتداولة، ولا تمت إلى الإسلام بصلة. في القرآن الكريم حديث واضح عن تحمل آدم وحواء لمسؤولية ما جرى، دون أي حديث عن استقلالية حواء في الخطيئة، أو أنها تمثل الأساس في الخطيئة.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ... وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِّنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَفَا يَخْصَفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ «الأعراف: ٢٠-٢٢». نعم، لو عدنا للنص التوراتي فسنجد القصة مختلفة، وتصب في اتجاه تحميل حواء المسؤولية.

• بولس وأوغسطين:

نعود الآن إلى ما كنا نتحدث عنه، وهو استعارة السؤال حول تحميل الأجيال البشرية لخطيئة الأب آدم، والتي يتداولها بعض شبابنا ويطرحونها ضمن إشكالاتهم على الخلق والحياة والسعادة والشقاء والعدل الإلهي.

لا يوجد في العهد القديم والأنجيل الأربعة حديث عن تحمل الأجيال البشرية لخطيئة آدم. بل طُرحت هذه الفكرة من قبل بولس الرسول واسمه شاؤول «ت ٦٤ أو ٦٧ م» في رسالته إلى أهل روما حيث قال: (مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ). وقد اعتُبر هذا الرجل واضع أسس الكثير من مفردات العقيدة المسيحية المحرّفة.

ثم زاد عليها أوغسطين «ت ٤٣٠ م»، وهو أحد الشخصيات المركزية في المسيحية وتاريخ الفكر الغربي على حد السواء، فقد أثّرت كتاباته في اللاهوت المسيحي الغربي وفي الفلسفة الغربية ككل، حتى أطلق عليه لقب القديس.

أوغسطين عمّق فكرة الخطيئة الأصلية، وأعطاهَا أبعاداً جديدة. قال: (خطيئة آدم كانت كبراً، لأنه اختار أن يعيش محكوماً بسلطته بدل أن يعيش تحت سلطة الحكم الإلهي، وكانت كفراً لأنه لم يؤمن بالله. وكانت قتلاً، لأنها تسببت في دخول الموت إليه. وكانت زنى معنوياً، لأن روح آدم النقية قد أنصت للتملق المغري للحية. وكانت سرقة، لأنه مس الطعام الذي مُنع من تناوله. وكانت طمعاً، لأنه طمع في أكثر مما كان يكفيه. مهما أمعنا في حقيقة أي خطيئة فسنجد لها حضوراً في الخطيئة الأولى)!

ثم قال: (جميع البشر، الذين ولدوا من آدم وامراته التي أوقعته في الخطيئة، والتي شاركته في نيل العقاب، جميعهم تلوّثوا بالخطيئة الأصلية).

• بيانات قرآنية:

أما لو عدنا إلى القرآن الكريم، فلن نجد أثراً لمثل هذا الفكرة، بل سنجد الحقائق التالية:

١. خُلِقَ هذا الجنس البشري ابتداءً من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آخر فرد لكي يعيش في المرحلة الأولى من وجوده في الأرض لا في جنة الخلد: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٢. من طبيعة وجود الجنس البشري في الأرض أن يكون في حال اختبار وفتنة: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ «العنكبوت: ٢-٣».

٣. حتى في بدء حياة آدم وحواء في الجنة كانا في حالة اختبار وتحمل المسؤولية والثواب والعقاب: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ «البقرة: ٣٥».

٤. ومن هنا فإن ارتكاب الإنسان للمعاصي والذنوب هو جزء من طبيعة وجوده في الأرض، وهذا ما انتبه إليه الملائكة حيث: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

٥. لم تكن الجنة التي عاش فيها آدم وحواء جنة الخلد الأخروية.. بل كانت جنة أرضية.. في جنة الآخرة لا اختبارات ولا مسؤوليات.. غاية ما هناك أن تلك الجنة كانت مميزة من حيث توفر الطعام والشراب وسائر الاحتياجات اليومية الأساسية للإنسان من دون بذل جهد: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ «طه: ١١٨-١١٩».

• الاختبار حالة أصيلة:

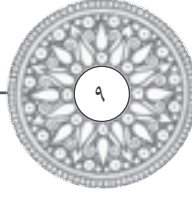
لقد خلق الله عَزَّجَلَّ الإنسان، بدءاً من آدم وحواء، إلى آخر فرد سيولد، ليعيش في المرحلة الأولى من وجوده في هذه الأرض، على أن يكون الاختبار حالة أصيلة في حياته وأمرًا محتوماً لا مفرّ منه، ولا علاقة لهذا بإخراج أبويه من الجنة التي ذكرت في تفاصيل قصته.

بل لقد بدأ الاختبار وبدأت المسؤولية منذ أن كانا فيها، وكانت البداية حيث نهاهما الله عن الأكل من تلك الشجرة.

ومن هنا نقول أن مقولة لولا الخطيئة الأولى لآدم وحواء لما عانت الأجيال البشرية ما تعانيه اليوم ليست إلا فكرة خاطئة، وعقيدة مستقاة من اللاهوت المسيحي الذي أسسه بولس وطوّره مضمونه أوغسطين بعنوان الخطيئة الأصلية، مما يتعارض تماماً وبكل وضوح مع إيمان المسلم بما جاء في كتاب الله العزيز.

إننا لم نولد مع الخطيئة كما قالوا، بل ولدنا على الفطرة السليمة، ويبقى كتاب أعمال كل إنسان نقياً من الخطايا والذنوب إلى أن تصدر عنه بعد بلوغه سن التكليف أول خطيئة عن عمد وعلم، لتبدأ بذلك رحلة الاختبار في الحياة، وتُفتح له أبواب التوبة والمغفرة، ليقرر بنفسه مصيره الأخروي.





الخطبة الأولى الرضا بالقضاء

لأدعية الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية نكهة خاصة، يتذوق من خلالها الداعي أصنافاً من جمال التعبير، ووضوح البيان، والمعالجات العملية للهموم والتطلعات التي تمس الجوانب المختلفة من حياته.

ومن الأمور التي تمثل سقطات في حياة الإنسان أن يعيش حالة من الاعتراض على أوضاعه، لا بمعنى أن يكون ذلك منطلقاً لسعيه نحو الأفضل بالوسائل المشروعة، بل بمعنى السخط على قضاء الله عز وجل وقدره، وبمعنى أن يعيش المقارنة الدائمة مع الآخرين، والحسرة والحسد الذي يشتعل في صدره نتيجة ذلك.

في دعائه عليه السلام والذي جاء بعنوان: في الرضا إذا نظر إلى أصحاب الدنيا يعالج عليه السلام هذه المسألة من خلال البعدين الإيماني والنفسي فيقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رِضَى بِحُكْمِ اللَّهِ).. فمن الناس من يحمد الله في مثل هذه المواقف، ولكن ذكره لا يعبر عن حقيقة ما في قلبه وعقله، ولذا فالإمام عليه السلام ينبّه إلى ضرورة التوأمة ما بين الذكر اللساني للحمد، وبين الرضا بحكم الله وقضائه وقدره.

(شَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ قَسَمَ مَعَاشَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ، وَأَخَذَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ بِالْفَضْلِ) هذا ما يخص الجانب الإيماني العقدي.. والموقف العملي في بعض الأحيان هو انعكاس لما يؤمن به الإنسان.

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَفْتِنِّي بِمَا أُعْطَيْتَهُمْ) لا تجعله يا رب اختباراً

فشل لي، فأعيش السخط على قدرك، والحسرة والألم في القلب، والحسد لهم (وَلَا تَفْتَنَهُمْ بِمَا مَنَعْتَنِي) فيعيشون الكبر والعجب والاضطهاد لي، لأن لديهم من الدنيا ما لا أملك. وإن لم تجنّبني يا رب الفشل في هذا الاختبار (فَأَحْسُدْ خَلْقَكَ، وَأَغْمِطْ حُكْمَكَ).

فما هي الصورة الإيجابية في مثل هذه الحالات حين يقارن الإنسان بين أوضاعه وأوضاع الآخرين الذين فاقوه ببعض الأمور المتعلقة بالحياة الدنيا؟

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَطَيِّبْ بِقَضَائِكَ نَفْسِي) جنبني الاعتراض والسخط (وَوَسِّعْ بِمَوَاقِعِ حُكْمِكَ صَدْرِي) لأن الصدر يضيق في مثل هذه الحالات فيشعر الإنسان وكأنه يختنق ويسعى للبحث عن الوسائل التي تنفس له عن هذا الضيق، ولربما يلجأ إلى الأساليب المحرمة كالتسقيط والبهتان والإيذاء الجسدي وما إلى ذلك تخفيفاً عن حالة الاحتقان النفسي لديه (وَهَبْ لِي الثِّقَّةَ لِأَقْرَبِ مَعَهَا بِأَنْ قَضَاءَكَ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِالْخَيْرَةِ) فالخير في ما اختاره الله العليم بخفايا الأمور ومآلاتها.

(وَأَجْعَلْ شُكْرِي لَكَ عَلَى مَا زَوَيْتَ عَنِّي أَوْفَرَ مِنْ شُكْرِي إِيَّاكَ عَلَى مَا خَوَّلْتَنِي) وهذه التفاتة رائعة تقوي مناعة الإنسان في مثل هذه الحالات، وتحتاج إلى قوة إيمان. وقد يكون إحساس الإنسان أحياناً بالحرمان دافعاً له لكي يحتقر من هو أكثر حرماناً منه، وأن يضطهده تنفيساً عن عقده وسخطه، لذا قال عَلَيْهِ السَّلَام: (وَأَعِصِمْنِي مِنْ أَنْ أَظُنَّ بِذِي عَدَمٍ خَسَاسَةً) فيصدر عني ما هو غير محمود تجاهه من صور الكبر، والاستهزاء، والطغيان.

وقد يدفعني هذا أيضاً إلى أن يكون تقييمي للآخرين مبنياً على أساس الماديات ضعة وارتفاعاً، وهو خلل آخر في إيماني وأخلاقي: (أَوْ أَظُنُّ بِصَاحِبِ ثَرَوَةٍ فَضْلاً، فَإِنَّ الشَّرِيفَ مِنْ شَرَفَتِهِ طَاعَتُكَ، وَالْعَزِيزَ مِنْ أَعَزَّتِهِ عِبَادَتُكَ).

ثم يختم الإمام عَلَيْهِ السَّلَام الدعاء بطلب الخير من الله الذي له ملك السماوات والأرض: (فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتَّعْنَا بِثَرَوَةٍ لَا تَنْفَدُ، وَأَيَّدْنَا بِعِزٍّ لَا يُفْقَدُ، وَأَسْرَحْنَا فِي مَلِكِ الْأَبَدِ، إِنَّكَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ تَلِدْ وَلَمْ تُوَلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفْوًا أَحَدٌ).

الخطبة الثانية

تقرير الإسكوا والصمت المخجل

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينار
لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ﴾ «آل عمران: ٧٥-٧٦».

في اللغة العبرية كلمة جوييم جمع لكلمة جوي وهي تعني القوم أو الشعب.
ثم تطور معنى هذه الكلمة في العقيدة اليهودية من الإشارة إلى الأمم والشعوب
الأخرى لتستخدم في الذم والقدح، ثم أصبحت ذات مدلول على الدونية ومرتبة
أقل من مرتبة الإنسان، أي أن الأغيار عنصر آخر دون العنصر البشري تماماً كما
الفرق بين الإنسان والحيوان.

ولذا فإن التوراة تستعمل كلمة إنسان في الإشارة إلى اليهودي فقط دون غيره
من البشر. وترتب على ذلك سن مجموعة من التشريعات التي تميز في أحكام
التعامل بين ما لو كان الطرف الآخر من اليهود أو من الأغيار والذين عبرت عنهم
الآية السابقة بعنوان: الأميين.

ومن بين هذه التشريعات على سبيل المثال:

- ممنوع إنقاذ الجوييم إلا إذا كان هناك خطر إثارة العداء ضد اليهود.
- يجوز، بالعنوان الأولي، سرقة الجوييم، وهذا السارق معفي من العقوبة.
- ممنوع مدح الجوييم ومباركته، وما جاء في التوصية التوراتية بعدم الكراهية
فإنما يخص اليهودي.

• من يضرب الجوي ويؤذيه معفي من دفع الدية، وإذا حدث العكس فيُحكم عليه بالموت.

والآية القرآنية التي تلوتها تعبّر عن واحدة من هذه التشريعات الكثيرة في هذا المضمار. ومن هنا فإن مسألة الفصل العنصري حاضرة في التفكير اليهودي، وهي مشرّعة عندهم.

• جريمة التمييز العنصري:

في المقابل، وانطلاقاً من تجريم التمييز العنصري، قامت الأمم المتحدة بصياغة اتفاقية دولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها، وتم التوقيع عليها عام ١٩٧٢.

وتم تعريف هذه الجريمة بأنها: (أعمال غير إنسانية ارتكبت لغرض إنشاء وإدامة هيمنة فئة عنصرية من الأشخاص على أية مجموعة عرقية أخرى أو أشخاص وقمعهم بشكل منهجي).

• المادة الأولى من الاتفاقية تضمنت - مع الاختصار - ما يلي: (الفصل العنصري جريمة ضد الإنسانية، والأفعال اللا إنسانية الناجمة عن سياسات وممارسات الفصل العنصري وما يماثلها... هي جرائم تنتهك مبادئ القانون الدولي.... وتشكل تهديداً خطيراً للسلم والأمن الدوليين).

• وفي المادة الرابعة: (تتعهد الدول الأطراف في هذه الاتفاقية باتخاذ جميع التدابير، التشريعية وغير التشريعية، اللازمة لقمع أو ردع أيّ تشجيع على ارتكاب جريمة الفصل العنصري والسياسات العنصرية المماثلة أو مظاهرها، والمعاقبة الأشخاص المرتكبين لهذه الجريمة).

وفي نفس السنة، أنشأت الأمم المتحدة اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا الإسكوا.

قبل بضعة أشهر قدّمت د. ريماء خلف وهي الأمين العام للإسكوا ومعاونة الأمين العام للأمم المتحدة تقريراً نصّ - وبالأدلة والتفاصيل - على أن إسرائيل تمارس الفصل العنصري تجاه الشعب الفلسطيني، وأنها بالتالي قد انتهكت:

١. الاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصري بكل أشكاله.

٢. الاتفاقية الدولية بشأن قمع جريمة الفصل العنصري ومعاقة مرتكبيها.

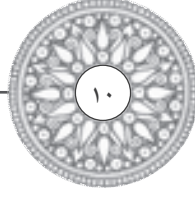
٣. نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الذي يدرج الفصل العنصري كجريمة.

هذا المضمون أغضب إسرائيل والولايات المتحدة، واستسلم لغضبهما الأمين العام للأمم المتحدة، وطالب بسحب التقرير، وهو ما رفضته د. خلف، والتي قد اختيرت من قبل صحيفة الفايننشال تايمز كأحدى الشخصيات الخمسين الأولى في العالم التي رسمت ملامح العقد الماضي.

وبالفعل تم تقديم التقرير، فسارع الأمين العام بسحبه، والطريف أنه برر ذلك بمخالفة د. خلف لآليات تقديم التقارير لا المحتوى! ولا أدري إلى متى يتم استهبال الناس واستسخاف عقولهم! وفي خطوة شجاعة، قامت د. ريماء خلف بتقديم استقالتها الجمعة الماضية، وتم قبول الاستقالة. وقد ختمت نص استقالتها بالكلمة التالية: (إنني أرى أن واجبي تجاه الشعوب التي تعمل لها، وتجاه الأمم المتحدة، وتجاه نفسي، ألا أكتفٍ شهادة حق عن جريمة ماثلة تُسبب كل هذه المعاناة لكل هذه الأعداد من البشر. وبناء عليه، أقدم إليك استقالتني من الأمم المتحدة).

• فضيحة دولية:

إن الفضيحة الدولية المدوّية لسحب تقرير الإسكوا المتضمن للأدلة والتوثيقات الخاصة بإثبات ممارسة الكيان الصهيوني للفصل العنصري بحق الشعب الفلسطيني وبصورة ممنهجة ومستمرة، وما تبع ذلك من استقالة الأمين العام للإسكوا، يجعلنا - من جديد - قلقين بشدة من استمرار فقدان الأمم المتحدة لمصداقيتها وتهاوي حياديتها المفترضة تجاه القضايا الدولية المختلفة، وأسلوب إدارتها للملفات الإنسانية كلما كانت المسألة تمس الكيان الغاصب من قريب أو بعيد... وإن كانت تلك فضيحة، فإن الأكبر منها أن لا نجد أية ردود فعل عربية أو إسلامية رسمية تُذكر، لا على مستوى الفعل ولا القول... ويبدو أننا بتنا نتحسّر على الزمن الذي كنا نسخر فيه من بيانات التثديد الرسمية الذي بات واضحاً أنه قد ولّى ولربما لن يعود... ليحلّ الصمت المطبق محلّه.



الخطبة الأولى

أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتوحيد الخالص

روي أنه كان الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا دخل شهر رجب يدعو بهذا الدعاء وفي كل يوم من أيامه: (خَابَ الْوَافِدُونَ عَلَى غَيْرِكَ وَخَسِرَ الْمُتَعَرِّضُونَ إِلَّا لَكَ، وَضَاعَ الْمُلْمُونَ إِلَّا بِكَ، وَأَجْدَبَ الْمُتَتَجِعُونَ إِلَّا مَنْ انْتَجَعَ فَضْلَكَ، بِأَبِكَ مَفْتُوحٌ لِلرَّاعِبِينَ، وَخَيْرُكَ مَبْدُولٌ لِلطَّالِبِينَ، وَفَضْلُكَ مُبَاحٌ لِلسَّائِلِينَ، وَنَيْلُكَ مُتَاحٌ لِلْأَمَلِينَ، وَرِزْقُكَ مَبْسُوطٌ لِمَنْ عَصَاكَ، وَحِلْمُكَ مُعْتَرِضٌ لِمَنْ نَاوَاكَ، عَادَتُكَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيئِينَ، وَسَبِيلُكَ الْإِبْقَاءُ عَلَى الْمُعْتَدِينَ. اللَّهُمَّ فَاهْدِنِي هُدَى الْمُتَهْتِدِينَ، وَارْزُقْنِي اجْتِهَادَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْغَافِلِينَ الْمُبْعَدِينَ، وَاغْفِرْ لِي يَوْمَ الدِّينِ).

ذكرت في أكثر من مناسبة أن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا رواد التوحيد والمدافعين عنه، ابتداء من أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ كما نجد أمثلة كلماته حاضرة في نهج البلاغة ابتداء من الخطبة الأولى فيها والتي قال فيها: (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ) ثم يستغرق عَلَيْهِ السَّلَامُ في شرح مفهوم التوحيد والصفات بصورة أدهشت البعض حتى أنكروا أنها لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ لعمق مفاهيمها الفلسفية.. ولكنه علي.. وما أدراك ما علي!

ثم استمر الأئمة من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الدفاع عن التوحيد الخالص في وجه كل المحاولات التي جرت لتقديم صور مشوهة ومحرّفة عن ذلك.

تصوّروا أن يصل الحال بالمسلمين في الفهم الخاطيء لمسألة التوحيد أن يتجرأ

أحدهم ليقول والعياذ بالله تعالى عن قوله علواً كبيراً:

وما الكلبُ والخنزيرُ إلا إلهنا وما الله إلا راهبٌ في كنيسة

ووصلت هذه الجرة إلى ما وصلت إليه تارة نتيجة التخلي عن الثقلين.. كتاب الله وعتره النبي.. فقائل يقول بسقوط قيمة وحجية القرآن، وآخر سعى لتغيب أهل البيت عن المعرفة الإيمانية. وتارة أخرى نتيجة التلاعب والتحريف في تفسير كتاب الله، وفي نفس الأحاديث الشريفة.

وفي الدعاء السابق عمل الإمام الصادق عليه السلام أيضاً على تأكيد جانب من جوانب التوحيد في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهو التوحيد في الدعاء لله، مؤكداً على خيبة وخسارة وضياح وإجذاب من يفد على غير الله في ذلك... فهل نحن على خطاهم ومنهجهم؟ وإنما يلجأ الإنسان لغير الله لتصوره أن باب الله موصد في وجهه، أو أن الله حجاباً كما للملوك والسلاطين! لذا عمل الإمام الصادق عليه السلام في هذا الدعاء على مخاطبة الله تعالى بصورة مباشرة، مؤكداً في ذات الوقت على أن بابه سبحانه مفتوح على الدوام... فمن يسأل يُجاب، ومن يطلب يُعطى من فضل الله، تماماً كما أكد ذلك من قبل جده الإمام زين العابدين عليه السلام.

فعن أبي حمزة الثمالي أنه قال: (سمعتُ علي بن الحسين عليه السلام يدعو في الحجر في غرة رجب في سنة ابن الزبير) أي التي قتل فيها عبد الله بن الزبير، وهي سنة ٧٢ هـ (فأنصتُ إليه، وكان يقول: يا مَنْ يَمْلِكُ حَوَائِجَ السَّائِلِينَ، وَيَعْلَمُ ضَمِيرَ الصَّامِتِينَ، لِكُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْكَ سَمْعٌ حَاضِرٌ وَجَوَابٌ عَتِيدٌ، اَللَّهُمَّ وَمَوَاعِيدُكَ الصَّادِقَةُ، وَأَيَادِيكَ الْفَاضِلَةُ، وَرَحْمَتُكَ الْوَاسِعَةُ، فَاسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَقْضِيَ حَوَائِجِي لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

فلنجعل من شهر رجب منطلقاً جديداً للعلاقة التوحيدية الخالصة لله عز وجل، بعيداً عن المفاهيم الضبابية والممارسات المغلوطة التي لا تتناسب والروح التوحيدية التي عمل أهل البيت عليهم السلام على ترسيخها في وصاياهم، وفي كلماتهم، وفي أدعيتهم، فقد خاب الوافدون على غير الله الذي لا يملك سواه حوائج السائلين، ولكل مسألة منه سمعٌ حاضر وجواب عتيد، لأنه القائل وقوله صدق ووعدُه حق: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ «غافر: ٦٠».

الخطبة الثانية انتهاك الأشهر الحرم

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ «التوبة: ٣٦».

أراد الله عَزَّوَجَلَّ لحركة القمر بالنسبة إلى الأرض أن تكون منطلقاً لحساب الزمن: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ «يونس: ٥»، لما في ذلك من أهمية مرتبطة بتنظيم الناس لحياتهم، ولعباداتهم أيضاً... هذا من الناحية التكوينية.

وأراد الله عَزَّوَجَلَّ من الناحية التشريعية أن يجعل لبعض تلك الأشهر خصوصية تعود على الناس بالفائدة الكبيرة، لأن التشريعات في نهاية المطاف إنما جعلت لصالح الإنسان: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ «الأعراف: ١٥٧».. فما هي هذه الأشهر؟ وما هي الخصوصية؟

واحدة من المؤثرات السلبية في حياة الإنسان انفلات غرائزه عن السيطرة لأسباب مختلفة. ومن أمثلة تلك الغرائز: حب الذات، والتملك، وما له علاقة بالبطن، والفرج، والقوة الغضبية.

وقد برزت الأخيرة منها بوضوح منذ بداية وجوده على الأرض: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.. فَطَوْعًا لَهُ نَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «المائدة: ٢٧-٣٠».

ولهذا الانفلات تبعات عديدة أبرزها فقدان الإحساس بالأمن والسلام، وهو من أشد ما يربك حياة الإنسان، ويجعله يعيش حياة غير سوية، مليئة بالقلق، وسوء الظن، والانفعال السريع، وغير ذلك من التأثيرات النفسية والجسدية.

ومن هنا نجد أن أهم صفة في جنة الآخرة هي التمتع بالأمن والسلام، حتى أسماها الله دار السلام: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «الأنعام: ١٢٧». فلا خوف من عدو، ولا من حسود، ولا من مرض، ولا من حوادث سماوية، ولا من وسوسة شيطان، ولا من فقر، ولا من جوع، ولا غير ذلك من أسباب عدم الإحساس بالأمن ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ «الواقعة: ٢٥-٢٦».

• تشريعان مهمان:

لذا أراد الله من خلال تشريعين، الأول منهما: تحديد الزمن الحرام ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾.. والثاني: تحديد الأرض الحرام ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ «العنكبوت: ٦٧» أن يجعل الإنسان في تجربة عملية للسلام في العلاقات البينية، ولو كانت تلك التجربة محدودة زمنياً ومكانياً.. تجربة يتذوق فيها طعم هذه النعمة، ولعله يسعى لتعميمها في حياته كلها.

ويبدو أن هذا التشريع في بعده الزماني والمكاني انطلق على عهد الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وأصبح من العناوين ذات الأهمية الكبرى عند العرب على مر الزمان، وخافوا إلغائها، خاصة بعد أن تلمسوا وتذوقوا الراحة فيها من خلال الأمن.

د. جواد علي في المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (وكان الجاهليون يعظمونها، ولا يستبيحون القتال فيها، حتى إن الرجل يلقي فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه). ولكن بعضهم تدريجياً لجأ إلى التحايل على التشريع الزمني طمعاً واستجابةً للأهواء، فسوّلت لهم أنفسهم ابتداء فكرة النسيء، التي تعني تبديل بعض الأشهر الحرم بأخرى، وذلك لمفاجأة العدو أو الخصم بالغزو أو العدوان، أو رغبة في الإسراع في الأخذ بالثأر.

هذا التلاعب في التشريع ذمّه الله عَزَّ وَجَلَّ بشدة واعتبره نوعاً من الكفر بنعم الله وتشريعاته: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا

وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) «التوبة: ٣٧».

وجاء الإسلام فأكد حرمة تلك الأشهر وحرمة الحرم المكي، كما أعطاهَا أبعاداً أخرى كما عن زرارة عن الباقر عليه السلام: (سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ قَتَلَ رَجُلًا خَطَأً فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ قَالَ: تَغْلُظُ عَلَيْهِ الدِّيَّةُ، وَعَلَيْهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ أَوْ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ أَشْهُرِ الْحَرَمِ).

• البداية المشؤومة:

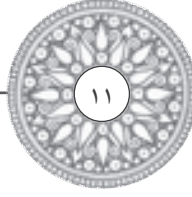
هذه التشريعات التي جاءت لمصلحة المسلمين ما رعوها حق رعايتها، وكانت البداية المشؤومة على يد بني أمية حين كسروا حرمة الشهر الحرام فسفكوا دم الحسين عليه السلام وأنصاره في محرم.. ثم كسروا حرمة الأرض الحرام، حين نصبوا المنجنيق ورموا الكعبة المشرفة مرتين على عهد يزيد وعبد الملك بن مروان، ثم هاجموا المتحصنين في البيت الحرام وقتلوا عبد الله بن الزبير وأنصاره.

وهكذا بدأت هذه المفاهيم تغيب وتختفي تدريجياً.. حروب، وعدوان، وعدم احترام الأشهر، والأرض الحرام.. إلخ. والمسلمون هم المتضررون في نهاية المطاف، كما قالت الآية: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

• مسؤولية العلماء:

والمسؤولية اليوم تقع على علماء الإسلام، الأمناء على الدين، وورثة الأنبياء، بما استُحفظوا من كتاب الله، بأن يُعيدوا الحياة إلى المفاهيم والتطبيقات المتعلقة بالأشهر الحُرُم والأرض الحرام لاسيما وقد ضجَّ الناس من هذا الكمِّ الهائل من سفك الدماء، والعدوان على الأبرياء، وتدمير ما تبقى من مقدّرات الأمة، كل ذلك باسم الإسلام، والإسلام من جرائمهم بريء.

كما وأن شهر رجب الحرام يمثل الفرصة لأن نعوذ أنفسنا نحن كأفراد على اقتلاع كل الأحقاد التي ترهق قلوبنا، وكل التوتّرات التي تُربك حياتنا، وأن نستبدلها بلغة التواصل والمحبة. وسنكتشف من خلال ذلك، أن الحياة ستكون أفضل وأجمل وأكثر سعادة، وسيكون ذلك هو السبيل لبلوغ رضوان الله، لأنّ الحقّ حالقة للدين والدنيا.



الخطبة الأولى

الإمام علي يدعو إلى الإنصاف

في كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى الأشر حن ولاه مصر: (أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المظلومين، وهو للظالمين بالمرصاد).

من أصعب وأشد الأمور على الإنسان أن يكون منصفاً إذا كان الأمر يتعلق به أو بأحد الأطراف التي ذكرها الإمام عليه السلام في المقطع السابق من رسالته، وهذا ما نصت عليه الآية القرآنية بوضوح. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ... فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ «النساء: ١٣٥». لا تجعلوا أهواءكم سداً أمام الإنصاف والعدل، لا تسلموا قياتكم لأهوائكم فتأخذ بكم بعيداً عن العدل والإنصاف.

في كتاب جامع الأحاديث للسيوطي عن الحسن قال: (لما قتل علي عليه السلام الحرورية قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين؟ أكفارهم؟ قال: من الكفر فروا. قيل: فمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً. قيل: فما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا).

كان الإمام علي عليه السلام في حالة حرب مع الخوارج، وكان بإمكانه توظيف

السؤال السابق لمصلحته السياسية في هذا الصراع، فيحكم عليهم بالكفر، إلا أنه أنصفهم في الوصف كل الإنصاف.. لماذا؟ لأنه رجل العدل والإنصاف.. كان أبعد ما يكون عن الظلم. وهكذا يجب أن نكون.. ولكن الحق يقال أننا كمسلمين.. على اختلاف مذاهبنا.. وفي أغلب الحالات والمواقف.. لسنا كذلك.. سواء في القضايا الشخصية أو العامة.

العالم الإسلامي اليوم يشهد مأس إنسانية تفوق الوصف والحصص، فهل كانت مواقفنا منها مبنية على أساس إنساني أم طائفي؟ على أساس أخلاقي أم سياسي؟ على أساس قيمي أم حزبي؟

• مشاعر ومواقف مقسمة طائفيًا:

عندما تقع التفجيرات الإرهابية في بعض المناطق العراقية ويذهب ضحيتها المئات من الأبرياء حرقاً وتقطيعاً وتشويهاً وإعاقةً ويَتَمَّ وترملاً.. لا تهتز مشاعرُ الكثيرين.. ويمرُّ الحدثُ بالنسبة إليهم مرورَ الكرام.. لماذا؟ لأن الضحايا من الشيعة. وعندما يتمُّ قتلُ وإصابة المئات من الأبرياء بالغازات السامة والأسلحة الكيماوية في بعض المناطق السورية، بما فيهم من أطفال في عمر الزهور، ذبلوا وخمدت أنفاسُهم في لحظة غدر.. لا تهتز مشاعرُ الكثيرين.. ويمرُّ الحدثُ بالنسبة إليهم مرورَ الكرام.. لماذا؟ لأن الضحايا هذه المرة من السنة. وهكذا بالنسبة إلى اليمن وليبيا والصومال وأفغانستان والباكستان وغيرها.. المشاعرُ والقيمُ الأخلاقيةُ والمواقفُ الإنسانيةُ باتت مقسمةً طائفيًا وحزبيًا وسياسيًا، وتُحرِّكها الأجنداتُ السياسيةُ للقوى العظمى.. ففي يوم ما كانت القوى العظمى راضيةً عن صدام.. فكانت مجزرة حلبجة في كردستان العراق مغيبةً إعلاميًا، ومبررةً أخلاقيًا، والكل يبحث عن وسيلة لتبرير الجريمة، وإلقاء تبعاتها على غير الجاني الحقيقي.. وفي يوم لاحق تغيرت المصالح.. وأصبح صدام من المغضوب عليهم.. فتباكى العالم الغربي على ضحايا مجزرة حلبجة المنسيين.. وصبَّ لعناته على صدام.. واليوم، أصبحنا لا نختلف عن أولئك المنافقين في شيء.. نحن جميعاً، كمسلمين، بحاجة إلى صحوة ضمير، وعودة إلى مبادئنا التي نتلوها ليل نهار في كتاب الله، ولكن يبدو أنها صارت لا تتجاوز تراقينا.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الخطبة الثانية

ماذا بعد إغلاق المصفاة؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ بشأن قصة النبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ «يوسف: ٥٤-٥٥».

نعود بالزمن إلى ما قبل ٣٥٠٠ عام تقريباً.. مع بعض تفاصيل قصة النبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، حيث رأى الملك في منامه ما أزعجه.. ولم يجد أحداً يُؤوِّل له منامه كما فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام.

إلا أن النبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لم يتوقف عند حد تأويل المنام، بل قدّم رؤية وخطة عملية حول كيفية إدارة الأزمة الاقتصادية القادمة، لتقليل الخسائر ما أمكن، والنهوض بذلك البلد من جديد وبقوة. من هنا أعجب به الملك، وقربه، وأعطاه الإمكانات، وأطلق يده، ووظفه - بحسب طلب يوسف - في ترتيب الأوضاع الاقتصادية، والنتيجة: ﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ «يوسف: ٥٦».

ما كان بالإمكان منع الحدث البيئي المتمثل في حالة الجفاف والجذب القادمة بقوة ولمدة سبع سنوات، ولكن هذا لا يعني الاستسلام، وعدم الاستعداد للمرحلة الصعبة مع إيجاد البديل الممكن.

• معيار تقييم النجاح:

لا يمكن قياس النجاح الحقيقي عندما تكون الأمور مواتية وفي حالة رخاء ووفرة.. النجاح الحقيقي إنما يكون عند الشدة وفي الأزمات والتحديات:

- أولاً، كيف نستعد لها لتقليل الخسائر ما أمكن.
- وثانياً، كيف نوظف الإمكانيات المتاحة حالياً لعبور تلك الأزمات.
- وثالثاً، كيف نخطط ونُعد لمرحلة ما بعد الأزمة لتكون لنا نهضة مجددة.
- احتفال وتساؤلات:

قبل أيام احتفلت شركة البترول الوطنية بإغلاق مصفاة الشعبية لتكرير النفط بصفة نهائية.. وكان يحقق ثاني أعلى العوائد المالية للدولة من خلال القطاع النفطي. طبعاً من المتعارف إقامة مجالس عزاء عند الموت، ولكن أن يقام احتفال بهذه المناسبة.. فهذه بدعة!

على العموم.. هناك جوانب اقتصادية متعددة ترتبط بمسألة الإغلاق، كيف ستصرف الكويت في فائض الخام البالغ ٢٠٠ ألف برميل يومياً؟ أين سيذهب المسؤولون والعاملون في المصفاة؟ كيف سيتم تعويض الوقود الذي كانت توفره المصفاة للاستهلاك المحلي.. إلخ.

ولست خبيراً اقتصادياً ولا نفطياً حتى أسمح لنفسي بالدخول في تفاصيل الموضوع، ولدينا في هذا المسجد بالتحديد من أهل الخبرة والاختصاص في هذا الحقل ما تقر به العيون، ويغنونني عن ذلك. ولكن هناك حداً أدنى من التساؤلات والأفكار لا يستطيع الإنسان تجاوزها والتغافل عنها.

١- لكل شيء عمر افتراضي.. وقد انتهى العمر الافتراضي لهذه المحطة.. كلام منطقي وجميل.. ولكن يا ترى لماذا لم يتم الاستعداد مسبقاً لتهيئة محطة تكرير بديلة؟ هل نفتتج بحصة الكويت في مصفاة عمان وفيتنام؟ وهل نضمن الظروف الإقليمية والدولية وتأمين الملاحة مستقبلاً؟

٢- على فرض صحة الكلام أن استيراد البنزين سيكون أقل كلفة من تصنيعه محلياً، فلماذا لم يكن هناك أي مشروع لتقليل الكلفة في التصنيع المحلي؟ لماذا ينجح الآخرون في تقديم الوقود بتكلفة أقل مما نتجه نحن، ونحن بلد نفطي ونظرياً لا ينقصنا شيء.. لا على مستوى العقول، ولا المادة، ولا الأرض، ولا القوانين التشريعية.

٣- ذكر بعض أهل الاختصاص أنه لو استمرت الكويت باستيراد البنزين لمدة سنة ستكون الكلفة بحدود ٤٣٢ مليون دولار وفق الأسعار الحالية. بمعنى أن ما حصلت عليه الدولة من أموال لرفع الدعم عن البنزين المحلي ستدفعه مرة أخرى للشراء من الخارج! فأَي تخطيط اقتصادي هذا؟

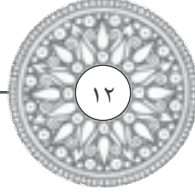
٤- إذا كان إغلاق المصفاة لطموح الكويت في بدائل للوقود تكون أفضل بيئياً، كالغاز مثلاً، وهو ما لم يتحقق إلى الآن، ولا يُعلم هل هو كلام حقيقي أم لمجرد التخدير ودغدغة المشاعر، فلماذا لم يتم التخطيط والتنفيذ لهذا الأمر في حركة موازية مع العمل على إغلاق مصفاة الشعبية؟

• نموذج مقلق:

ختاماً أقول: ليست المسألة متلخّصة في إغلاق مصفاة الشعبية بهذه الصورة التي تمت عليها.. بل في كونها نموذجاً مُقلقاً لأسلوب إدارة الملف الاقتصادي في البلد.

قبل سنوات كانت تُدغدغُ مشاعرنا أحلامُ مشاريع اقتصادية وعلمية وبحثية وتنموية، تنطلق من تحويل الكويت إلى عاصمة عالمية للنفط، رسمت معالمها عقولٌ كويتية مُبدعة ومخلصة، لا يكون فيها الإنتاج النفطي وحده الرافد الأساس للقوة الاقتصادية عندنا، بل أن تتحول الكويت إلى نقطة استقطاب عالمية من خلال المشاريع النفطية المتعددة والمتنوعة التي نُصنّع ونُصدّر من خلالها المنتجات البترولية المختلفة، وعلى أعلى المستويات، وبأقل كلفة وأعلى عائد، بالإضافة إلى تأسيس الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث البترولية المتخصصة، وما إلى ذلك من موانئ متطورة ومراكز مالية وتجارية وطبية ذات العلاقة. فإذا بنا نتفاجأ بتبخر تلك الأحلام، لنتحول إلى بلد مستورد للوقود.. ثم ليتقلّص طموحنا من الكويت عاصمة عالمية للنفط، لتُزف لنا البشرية أن الكويت وفي غضون سنوات قلائل ستغدو عاصمة عالمية للبطن والمطاعم!

أين عدلُ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَام الذي سيقراً لنا المستقبل، ويخطط بحكمة لمواجهة الأزمات، ويبادر بالعمل والتنفيذ للمرحلة التي تليها على المستوى الاقتصادي والتنموي؟



الخطبة الأولى أصناف العلماء

في نهج البلاغة في قسم الحكم ١٤٧: (قَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ) المقبرة أو الصحراء (فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ ثُمَّ قَالَ: يَا كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ. النَّاسُ ثَلَاثَةٌ، فُعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النِّفْقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزُكُّو عَلَى الْإِنْفَاقِ) فكلما تدرس وتقدم معرفتك للناس كلما فتح ذلك لك آفاقاً من المعرفة من خلال التفكير والأسئلة وتبادل المعارف وغير ذلك.

(وَصَنِعَ الْمَالُ يَزُولُ بِزَوَالِهِ) بينما العلم يبقى متداولاً ولربما ينمو عبر الزمان. وكثيراً ما ركز الإمام على كنز المال والتهافت عليه، لأن هذه المسألة كانت مشكلة كبيرة في زمانه.

تغيرت أولويات الناس.. أصبح المال هو الأساس على مستوى اهتماماتهم، وهو الحاكم على تصرفاتهم، وهو الأساس في التقييم، إلى درجة أن أقرب الناس إليه سقطوا في اختبارات المال المختلفة.. اختلاسات.. بيع ذمة.. بيع ولاءات.. بيع آخرتهم... وأما طلاب العلم فما عادوا من النوعية التي يأنس بها العالم.. هذا إن

لم يكن طلب العلم من الأساس - عند هؤلاء - وسيلة للوصول إلى المال والمنصب والجاه! لا لله ولا لخدمة الإنسان.. وهذا ما سيبينه الإمام لاحقاً.

(يَا كَمِيلَ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ) وكيف ذلك؟ (بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ) هذا أولاً.. فالعلم يُقَرِّبُ الإنسان من الله ويدفعه إلى طاعته، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾... وأما ثانياً: (وَجَمِيلُ الْأُخْدُوثةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ) أي الذكر الجميل بعد موته.

ويستمر الإمام في عقد المقارنة ما بين المال والعلم إلى أن يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (هَا، إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْمًا جَمًّا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً!) أمنية يتمناها الإمام.. أن يجد مَنْ يستطيع فهم هذا العلم وتحمل مسؤولياته، وأن يكون أميناً عليه، فلا يستخدمه لأهوائه، ولا يتلاعب به، ولا يضيعه... فكيف وجد الإمام الناس في زمانه من حيث تعاملهم مع العلم؟

• النموذج الأول:

قال في وصف النموذج الأول: (بَلَى أَصَبْتُ لَقْنًا) فطيناً يفهم ما يُلقى عليه سريعاً ولكن مشكلته أنه كان: (غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمَلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا) مستعملاً علمه للدنيا، ومستعملاً دينه أو مظهره الديني لبلوغ مآربه الدنيوية.

(وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ) فهو يترفع عليهم بما لديه من علم، ويرى نفسه أعلى شأنًا منهم بدلاً من أن يدفعه علمه للتواضع للناس والرافة بهم. وهذا من أشد الأمور تدميراً لروحية العلماء، وشخصياتهم الاجتماعية، وحركتهم الرسالية، وفاعليتهم في الحياة (وَبِحُجْجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ) فيستعمل ما لديه من العلم، والأدلة، والأسلوب للترفع على أولياء الله.

• النموذج الثاني:

وهناك نموذج آخر من طلبة العلم، وهو نموذج الإنسان الذي لا يحرك عقله.. هو منقاد لحملة العلم، ولكن على غير وعي ولا فهم.. ولذا يسهل أن يؤثر عليه الآخرون وأن يبدل آراءه ويتنازل عنها، ساعة مع هذا وساعة مع ذاك.. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ) صدره (يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ).

• النموذج الثالث:

النموذج الثالث من طلبة العلم هو نموذج عبد الشهوة واللذة: (أَوْ مَنْهُوْمًا بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ الْقِيَادَ لِلشَّهْوَةِ) الذي يسخر علمه أو تلبسه بعنوان طالب علم الدين من أجل ذلك.

• النموذج الرابع:

والنموذج الرابع: (أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالْادِّخَارِ) هذا عبد المال، وما أكثرهم في هذا الزمان! وكلاهما: (نَيْسًا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهَا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ) التي تدور في البراري بحثاً عن الماء والكلاء فقط.. وأما تنمية الحالة الإيمانية والروحية والأخلاقية والرسالية فلا.

• أمل وتطلع:

والنتيجة؟ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ) صورة سوداء قاتمة، يحسب الإنسان معها أن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قد فقد الأمل نهائياً.. وإذا به عَلَيْهِ السَّلَامُ يفتح نافذة يُطلُّ بها على أمل متجدد، قال: (اللَّهُمَّ بَلِّ، لَا تَخْلُو الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا، لئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ. وَكَمْ ذَا؟ وَآيِنَ أَوْلَئِكَ؟ أَوْلَئِكَ - وَاللَّهِ - الْأَقْلُونَ عِدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا. يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوَهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوَهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ).

وكيف استطاعوا الوصول إلى هذه النتيجة؟ وكيف بلغوا هذا المقام؟

أولاً: (هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبُصِيرَةِ) فهم يكوّنون قناعاتهم على أساس الدليل، لا على أساس الإرث والتقليد.

ثانياً: (وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ) وبالتالي يُقبلون على الأمور ويحددون مواقفهم عن وعي ووضوح في الصورة، لا اتباعاً أعمى، ولا انقياداً للهوى.

ثالثاً: (وَأَسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُّونَ) تجاوزوا الصعاب واستسهلوا لأنهم ما كانوا من المترفين الذين ينهزمون أمام أقل تحدٍّ.

رابعاً: (وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ) لأن همّهم وغايتهم رضا الله وإحقاق الحق وحسن العاقبة، لا إرضاء الناس، ولا تلبية الشهوات، ولا التعصب

للتحرّبات الباطلة. فلو وجدوا أن أتباع الحق قليلون لم يستوحشوا.

خامساً: (وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى) برضا الله.. بالآخرة.. لا بالدنيا ومتاعها وزخرفها.. على عكس الصورة القرآنية التي قُدِّمَتْ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يُلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يُلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «الأعراف: ١٧٥-١٧٦».

وختم الإمام رائعته هذه بقوله: (أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالِدُعَاةُ إِلَى دِينِهِ. آه آه شَوْقاً إِلَى رُؤْيَيْهِمْ).

الخطبة الثانية

الشهيد الصدر، العالم، العامل، الرسالي

كان السيد الشهيد محمد باقر الصدر نموذجاً حياً ومصدقاً جلياً لما جاء في نهايات تلك الحكمة العلوية التي قُدِّمَتْها في الخطبة الأولى.. صورة العالم البصير، والمفكر الرسالي، والداعية الرباني الذي تعلّقت روحه بالمحل الأعلى.. النموذج الذي ختم أمير المؤمنين حكمته بقوله: (آه آه شَوْقاً إِلَى رُؤْيَيْهِمْ).. وفي هذه الأيام مرت ذكرى استشهاده قبل ٣٧ سنة.

• ظرف معقد:

والمجال لا يسمح باستقصاء وتطبيق كل ما ذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام على هذه الشخصية العظيمة، وسأكتفي بالإشارة إلى جانب واحد وعلى عجالة.
عاش الشهيد الصدر ظرفاً معقداً جداً، ومن عدة جهات:

١. الوضع الأمني الخاص الذي عاشه العراق خلال مخاضات الانقلابات والتسلط البعثي المتوحش.

٢. الوضع الحوزوي في النجف الأشرف الذي بدأ ينحومنى الإنغلاق تدريجياً، ويتأثر بالوضع الأمني والسياسي المحيط به.

٣. حالة الإحباط التي يعيشها المفكر حين لا يتمكن من تداول أفكاره وبحثها في أجواء حرة.

٤. التوجه المعارض- والمعادي أحياناً- للشهيد الصدر الأول في الأجواء الحوزوية المحيطة به، والتي وصلت إلى حد اتهامه بالعمالة لأمريكا تارة، وبالوهابية تارة أخرى، وأمثال ذلك.

٥. عدم امتلاك مؤسسات علمية وبحثية وميدانية تعينه في إنجاز مشاريعه على الصعيد العلمي والتنفيذي. بل كانت أحياناً تنقصه المواد الأولية من قبيل الكتاب الذي يحتاج للرجوع إليه في بحثه.

• حدث ودلالة:

ينقل أحد الذين عايشوه، بأنه في أثناء إعداد كتاب اقتصادنا، سمع الشهيد الصدر بصدور الترجمة العربية لستة أجزاء من موسوعة قصة الحضارة للمؤرخ الأمريكي ويل ديورنت، وهو مشروع تاريخي علمي مهم جداً. فتوقف السيد عن الكتابة لأنه رأى أن الدقة العلمية تتطلب منه الاطلاع على محتوى هذه الموسوعة قبل الاستمرار في تقديم أفكاره. وكانت هناك نسخة واحدة في النجف عند أحد العلماء، وطلبها منه السيد وبعد إلحاح شديد وافق على الإعارة لمدة أسبوع.. وفعلاً قام السيد بمطالعتها خلال تلك المدة، وعاد من جديد لمشروعه.

• تفوق على الظروف القاهرة:

وعلى الرغم من كل ما سبق، نجد أن الشهيد الصدر يقدم نتاجاته الفكرية والأكاديمية المبهرة، والتي ما جاءت كمجرد إضافة للمكتبة الإسلامية، أو كنوع من الترف الفكري، بل تبعاً للحاجة الملحة وفق التحديات التي كان يعيشها الإسلام.

ولذا نجد فلسفتنا تصدياً للشيوعية والرأسمالية، واقتصادنا لرسم معالم

ووضع تفاصيل نظرية حول الاقتصاد الإسلامي، والبنك اللاربوي في الإسلام تلبية لطلب القائمين على تأسيس مشروع بيت التمويل الكويتي آنذاك كبديل للبنوك المتعارفة، والإسلام يقود الحياة والذي جاء جواباً على الرسالة التي وجهها جمع من علماء لبنان إليه يستوضحون فيها عن مشروع الدولة الإسلامية في إيران، فكان مقترحاً منه لكتابة دستورها.

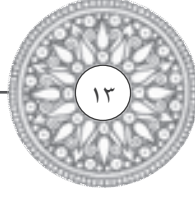
نعم، لم تكن الظروف الصعبة والتعقيدات المحيطة بالسيد الشهيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه لتمنع عبقريته الفذة، وروحَه المسؤولة، وعنفوانَه الإيمانِي، وحماسَه الرساليّة، من أن تُترجم على الأرض، تأليفاً، وتدريساً، وخطابةً، وتربيةً، وحركةً رساليةً دعويةً إلى أن اختاره الله إلى جواره شهيداً كجده أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام.

• اتزان فكري:

الملفت حقاً أن وقوع الإنسان تحت وطأة الضغوط الهائلة تُفقدُه - في العادة - اتزانه الفكري، وتنعكس حالته العصبية المتوترة أو القلقة أو الغاضبة على رؤاه وخطاباته وكتاباتهِ، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ «المعارج: ١٩-٢٠».

إلا أننا حين نعود لما أنتجته هذه الشخصية العظيمة، فسنجد أنها تمثل قمة الاتزان والعمق والحصافة والإبداع، وهو ما يزيد من عظمتها، ويرفع من شأنها.. وصدق جده أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام إذ قال: (أُولَئِكَ - وَاللَّهِ - الْأَقْلُونَ عَدَداً، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا). فسلاماً باقر الصدر سلاماً.





الخطبة الأولى

أوقاف الإمام الكاظم

عاشت ذرية الإمام علي عليه السلام خلال العهدين الأموي والعباسي فترات من الحصار والضغط الاقتصادي... وعاش الإمام الكاظم عليه السلام بنفسه تجربة في هذا الإطار.

ولعل هذه التجربة أو سواها هي التي دفعت الإمام الكاظم عليه السلام إلى الاهتمام بالزراعة كمورد اقتصادي ثابت ومستمر ومتنامي، له ولآل علي، وللفقراء، والمحتاجين، وأعمال الخير عموماً. وهذا ما تحقق فعلاً، حيث بارك الله عز وجل في عمله، حتى تحولت بعضُ بساتينه لسعتها إلى قرية، وهي قرية صَريا التي عاش فيها بعض الأئمة عليهم السلام لاحقاً وولّد فيها الإمام الهادي عليه السلام وابنه محمد، ويقول أحد الباحثين من أهل المدينة أنها تقع جنوب المدينة المنورة وتسمى اليوم سَريا.

وحول الإمام الكاظم عليه السلام الكثير من هذه البساتين إلى أوقاف في العناوين السابقة التي ذكرتها، لضمان استمرار عطائها، ورفع يد السلطة العباسية عنها.

إذاً فقد شخّص الإمام عليه السلام الأولوية واجتهد في إيجاد الحل العملي المستمر في عطائه من خلال هذا المشروع الذي جعله الله نامياً مباركاً.

قال الله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ «البقرة: ٢٧٦». والصدقات في الاستعمال القرآني أعم من المعنى المتبادر إلى أذهاننا اليوم، أي العطاء المستحب، فهو يشمل ما يُطلق عليه الفقهاء عنوان زكاة المال كما قال الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ «التوبة: ٦٠»، ويشمل الوقف أو ما يُعرف بعنوان الصدقة الجارية.. إذاً عندما يُعطي الإنسان من ماله قربة إلى الله تطوعاً أو استجابةً لأمرٍ مفروض، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُربي وينمي ويبارك في هذا العطاء.. كونوا على ثقة من ذلك.. فهذا وعدُ الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن أفضل صور العطاء هذا، العطاء الذي يدوم ويبقى من خلال جعله وقفاً وصدقةً جاريةً، ليستمر العطاء ولا ينتهي بإنفاقه، وهذا ما خطط له الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَام. ولا ينبغي حصر هذا العطاء المستمر في بناء المساجد والحسينيات فحسب، المرجو من الإخوة والأخوات حينما يكتبون وصاياهم ويخصصون منها الثلث للصدقة الجارية.. أو حينما يُقررون القيام بمشروع وقفي ما أن يبحثوا عن الأولويات.. واليوم في ظل كل هذه الحروب التي تشهدها المنطقة هناك مشاريع تمس حاجات المعاقين، وتأسيس موارد للعمل والإنتاج التي تؤمّن من خلالها الأسر رزقها، والحاجات التعليمية، والصحية وغير ذلك من الموارد العديدة التي يحبها الله ويبارك فيها.

كانت هذه نَفْحَةٌ من نَفَحَاتِ هذه الشجرة المباركة، التي اصطفاه الله لتكون الأسوةَ الحسنةَ للعالمين، لنتَّبِعَ هَدْيَهَا، ونَقْتَبِسَ مِنْ نَوْرِهَا، وَنَنْهَلَ مِنْ مَعِينِهَا الذي لا يَنْضَب. فسلامٌ على موسى بن جعفر في العالمين، إِنَّهُ كَانَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ، وكذلك يجزي الله المحسنين.

الخطبة الثانية

الغدَر

قال عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «الأنبياء: ١٠٧».

ونحن نستقبل ذكرى المبعث النبوي الشريف في السابع والعشرين من شهر رجب الحرام، نتوقف قليلاً عند واحدةٍ من المسؤوليات التي أُلقيت على عاتق

رسول الله ﷺ ضمن مسؤولياته الرسالية، والمتناغمة مع كونه مرسلًا ليكون رحمةً للعالمين.. هذه المسؤولية هي مسؤولية تزكية النفس البشرية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «آل عمران: ١٦٤».

وواحدة من العناوين التي كانت شاخصة في سلوك الإنسان الجاهلي: الغدر، حتى أنهم ابتدعوا النسيء، أي تبديل الأشهر الحرم بأخرى، من أجل الغدر فتكاً بخصومهم أو للغارة والنهب والسلب.

ولذا نجد شاعراً جاهلياً كعمرو بن كلثوم في معلقته يفتخر وهو يقول:

بُغَاةٌ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا سَنَبِدُا ظَالِمِينَ

وقال الشاعر المخضرم القطامي التغلبي:

وَكُنَّ إِذَا أَعْرَنْ عَلَى جَنَابٍ وَأَعْوَزُهُنَّ نَهَبٌ حَيْثُ كَانَا

أَعْرَنْ مِنَ الضُّبَابِ عَلَى حُلُولٍ وَضَبَّةٌ إِنَّهُ مَنَ حَانَ حَانَا

وَأَحْيَانَا عَلَى بَكَرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

هذا لا يعني أنهم كانوا مع الغدر على طول الخط، فالإنسان بطبعه يُدرك قبح هذا السلوك، ويذوق مرارته، ولكنهم كانوا يلجؤون إليه ويبررونه متى ما رأوا أن مصلحتهم تستدعي ذلك.

• تفوق على الظروف القاهرة:

ولذا نجد أن علياً عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر يقول: (وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنةً دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً - مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم - من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر) أي أدركوا نتائج السلبية من خلال التجارب (فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجتريء على الله إلا جاهل شقي).

ومن الواضح من العبارة الأخيرة أن المنظور الإسلامي يعني أن المسلم عندما يعاهد أحداً أو يعطيه الأمان، فإنما باسم الله يعاهد، ولذا قال النبي ﷺ فيما أوصى به علياً عليه السلام: (وَأَيَّاكَ وَالْعَدْرَ بَعْدَ اللَّهِ وَالْإِخْفَارَ لِدِمَّتِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَهْدَهُ وَدِمَّتَهُ أَمَاناً أَمْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ) الأمانة نعمة وأمن، وإذا فقد الأمن تهاوت بُنى العلاقات تدريجياً (وَالصَّبْرُ عَلَى ضَيْقٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ، خَيْرٌ مِنْ عَدْرِ تَخَافُ أَوْزَارَهُ، وَتَبِعَاتِهِ، وَسُوءَ عَاقِبَتِهِ).

ولذا وقف الإسلام بقوة أمام هذا السلوك المنحرف، ودعا إلى الوفاء، لا على المستوى النظري فحسب، بل كان سلوكاً عملياً، وقانوناً تشريعياً، سواء فيما له علاقة بالقضايا السياسية أو الأمنية أو الاجتماعية أو التجارية أو غيرها.

• من السيرة النبوية:

عن ابن إسحاق: (بلغني أن عبداً أتى رسول الله ﷺ وهو محاصرٌ لبعض حصون خيبر، ومعه غنم كان فيها أجيراً لرجل من يهود فقال: يا رسول الله، اعرض عليّ الإسلام، فعرضه عليه.... فلما أسلم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: اضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها. فقال الأسود: فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك....).

ولطالما أوصى النبي السرايا التي كانت تخرج للقتال بقوله: (اغزُوا، وَلَا تَغْلُوا) إياكم أن تصدر منكم الخيانة (وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً أَوْ امْرَأَةً، وَلَا كَبِيراً فَانِياً، وَلَا مُنْعِزَلاً بِصَوْمَةٍ). هذا هو نموذج سلوك رسول الله ﷺ في أجواء الحرب، ومع أعدائه، فكيف به في السلم؟

عبد الله بن سعد كان محكوماً عليه بالإعدام، فأدخله عثمان بن عفان على النبي ﷺ مستشفعاً فيه فسكت النبي، وكرر عثمان شفاعته إلى أن قبلها النبي، فلما خرجا استنكر النبي على الحضور عدم قيام أحدهم بقتل الرجل، فقال عباد بن بشر: (ألا أومأت إليّ يا رسول الله؟ ... فقال ﷺ: إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين)، وفي رواية أخرى: (ليس في الإسلام إيماء ولا فتك، إن الإيمان قيد الفتك، والنبي لا يوميء).

لا فتك في الإسلام ولا غيلة، والفتك يعني أن تأتي شخصاً يعلم بوجودك ويكون مطمئناً من جهتك فتقتله علناً، والغيلة أن تقتله وأنت مستخف منه.

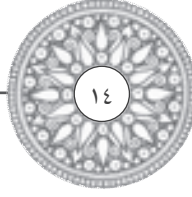
ومن تربى في مدرسة رسول الله ﷺ ونسب نفسه إلى الإسلام والإيمان لا يمارس الفتك ولا الغيلة، ولذا عندما حُرِّضَ مسلم بن عقيل على اغتيال الطاغية عبيد الله بن زياد في بيت هانيء بن عروة استقبح الأمر ولم يستطع تنفيذه.

• جريمة نقطة الراشدين:

وما جرى قبل أيام في نقطة الراشدين حيث تجمع الآلاف من أهالي الفوعة وكفريا في سوريا، ضمن اتفاق التبادل، يمثل واحدة من أبشع جرائم الغدر والخسة، لا سيما بلحاظ استغلال من تلوث أيديهم بتلك الجريمة لحظة اجتماع الأطفال لتلقي بعضاً من الأطعمة المحببة إلى قلوبهم، وقد حرموا منها لسنوات نتيجة الحصار الجائر، فقد امتدت إليهم يد الجريمة والغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق، وإلى أهاليهم المجتمعين في الحافلات انتظاراً لنقلهم إلى مأمَنهم، لتحوّل المكان إلى أرض محروقة مليئة بأشلاء مئات الأبرياء الأمنين، في مشهد يصعب وصفه. وليس ببعيد عن هذه الجريمة الفادرة ما جرى في مصر قبل أسابيع في تفجير الكنيستين في يوم كان يُستعد فيه بأمان لاستقبال عيد من أعيادهم الدينية السنوية.

إن هذه المدرسة التي ورثت سلوك الجاهليين، ففاقتهم إجراماً وخُبثاً وانحطاطاً، هي أبعد ما تكون عن رسالة المبعوث رحمة للعالمين، مهما مارست الخديعة في راياتها وشعاراتها. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرفع الغمة عن هذه الأمة، وأن يردَّ كيد الظالمين إلى نحورهم، وأن يمنَّ على الموتى بالرحمة، وعلى الجرحى بالشفاء، وعلى أهلهم بالصبر والسلوان.





الخطبة الأولى اللهم أصلح لي أبنائي

من دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام لَوْلَدِهِ الْوَارِدِ فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ بَعْدَ أَنْ دَعَا لَوَالِدَيْهِ قَالَ: (اللَّهُمَّ وَمَنْ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وَوَلَدِي): هذه هي العاطفة الطبيعية لدى الأبوين، حتى أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام في اللحظات الحاسمة من الطوفان دعا الله عز وجل أَنْ يَسْتَنْتِي ابْنَهُ مِنَ الْإِهْلَاكِ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ «هود: ٤٥-٤٦».

نوح عَلَيْهِ السَّلَام كان يعلم أن ابْنَهُ ضَمَّنَ الْفِتْنَةَ الَّتِي حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْإِهْلَاكِ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ «هود: ٤٢».. ومع هذا تَمَسَّكَ بِالْأَمَلِ إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ.. هذه هي عاطفة الأبوين الطبيعية التي طغت حتى على الحالة النبوية عند نوح عَلَيْهِ السَّلَام. ولكن الابن خيَّب ظنَّه لأنه كان مستكبراً معانداً: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. ولذا فقد دعا الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام بعد ذلك مباشرة بقوله: (وَبِإِصْلَاحِهِمْ لِي) أي دعا لهم بالبقاء مع أن يكونوا صالحين، فما قيمة بقاء الأبناء إن كانوا مجرمين، أو فاسدين، أو سبباً لشقاء الناس، وأن تكون حياتهم مادةً لتضخم كتاب أعمالهم في الآخرة بالمعاصي؟

(وَبِإِمْتَاعِي بِهِمْ) يا رب اجعلهم سبباً لسعادتي كلما رأيتهم، لا سبباً للحسرة والألم النفسي.

(إلهي، امْدُدْ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصِحِّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ) ونلاحظ هنا كلمة لي المتكررة في العبارات السابقة.

وهذه رسالة إلى الأبناء... آباؤكم يتطلعون إليكم.. آباؤكم بحاجة إليكم.. لا أقصد الحاجة المالية، ولكن الحاجة في الإحساس بوجودكم معهم، بدعمكم لهم، روحياً ومعنوياً.. الإحساس بأنكم السند لهم، الإحساس بأن طموحهم فيكم بأن تكونوا صالحين موفقين في الدنيا والآخرة كان في محله.

وهكذا فإن الآباء يتطلعون إلى الإحساس بمحبتكم لهم. قد تكون هذه المحبة موجودة لدى الأبناء، ولكنهم لا يُعبرون التعبير عنها أي اهتمام، وكأنَّ المسألة محسومة ومعروفة، فما الداعي لإبرازها؟ وهذا خطأ كبير.. فمشاعر الحب إن لم تنعكس على الوجه، وفي الكلمات، وعلى مستوى الأفعال، وردود الأفعال، فما قيمة وجودها إذا؟

الآباء يعلمون أن أبناءهم مُخْطَظون من قِبَل التكنولوجيا الحديثة بأنواعها.. وهذه مشكلة كبيرة.. وبموازاتها مشكلة تضخُّم الأنا لدى الأبناء.. أنا المهم، وليذهب كل شيء إلى الجحيم.. رغباتي، ولَهْوِي، ومُتْعَتِي، وخياراتي في الحياة، مقدَّمة على كل شيء، وعلى كل اعتبار. ولكن مع هذا فإن الآباء والأمهات يستمرون في التطلع إلى الفرصة التي يفك فيها أبنائهم أغلال هذه العبودية - ولو للحظات - ليشاركوهم مشاعرهم وأفكارهم وتطلعاتهم وهمومهم.. يتطلعون إلى تلك اللحظة تطلُّع المتأمل في أن يحدث شيء ما يغيِّر الواقع الصعب.

تماماً كما وقف نوح عَلَيْهِ السَّلَام وهو يعلم أن وعدَ الله حقٌّ، وأنه أحكم الحاكمين، ولكن مع هذا قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾.. لأنه أب، ويبقى الأب كما الأم في تطلُّع لأن تتدخل يد الغيب لتُغيِّر الواقع المر.

فقليلاً من روح الإيثار أيها الأبناء. فكروا بمن حولكم أيضاً بالحجم الذي تفكِّرون فيه بأنفسكم، فإنَّ هذه الأنانية النابعة من الفلسفة الرأسمالية التي غَزَت العقول، ودمَّرت الأرواح، ستقتل كلَّ جميل في شخصكم.. فرافةً بأنفسكم، وبالوالدين إحساناً.

الخطبة الثانية المعارضة السياسية

المحطة الأبرز في سيرة الإمام الحسين عليه السلام على الإطلاق هي ثورته المباركة، بل إننا عندما نستدعي اسم الحسين عليه السلام فإن المتبادر إلى أذهاننا هي هذه الثورة، فالترايط بينهما شديد.

ولهذه الثورة حضور عاطفي كبير في وجداننا، بحيث أدى هذا إلى أن تتطبع في أذهاننا أن الثورة هي الأساس في حركة أي إمام من الأئمة عليهم السلام. وهذا بدوره أدى إلى أن نتساءل دائماً: لماذا لم يثر الإمام الحسن عليه السلام؟ أو لماذا لم يثر الإمام جعفر الصادق عليه السلام؟ أو غيرهما من أئمة أهل البيت عليهم السلام.. ونبدأ بالبحث عن الحجج والمعذرات.

لماذا؟ لأنه أصبح الأصلُ عندنا في حركة الأئمة وفي مسؤوليتهم الميدانية، ولاسيما السياسية منها، هو نموذج الثورة الحسينية، وما سوى ذلك فهو خلاف الأصل، وهذه المسألة بحاجة إلى مراجعة فكرية، وقد تناولتها في خطبة سابقة، ولربما أعيد طرحها في مناسبة قادمة.

وعلى كل حال، فإن سؤالاً آخر يفرض نفسه أيضاً في هذا الجو: هل المعارضة في حد ذاتها أمر مطلوب وحالة صحية؟ وإذا كان كذلك، فهل بالضرورة أن تكون باللجوء إلى استعمال القوة؟

تعالوا أولاً فلنبحث عن تعريف لمصطلح المعارضة في عالم السياسة... قالوا في معنى المعارضة ويقصدون الجهة المعارضة.. أي الفاعل نفسه: (المعارضة السياسية هي جميع الحركات والأحزاب التي تعارض القوى السياسية التي تُمسك بزمام السلطة).

هذا التعريف نابع من طبيعة الأنظمة الديمقراطية الغربية، فهناك حزب حاكم أو ائتلاف حزبي.. وهناك أحزاب وجماعات معلنة تعارضه وتسعى للإطاحة به بكل الطرق - ما عدا استخدام السلاح واستعمال العنف - لتحل محله في السلطة. ولذا يجب أن تمتلك بدورها برنامجها البديل.

أما في مجتمعاتنا فالتعريف قد يختلف لاختلاف طبيعة أنظمة الحكم فيها عن الأنظمة الغربية، ولكن هناك نوعاً من التلاقي في المفهوم العام. والمعارضة كفعل - من حيث المبدأ - حالة صحية:

١. ما لم تكن غاية في ذاتها.. فالمعارضة لأجل المعارضة حالة غير صحية.. المطلوب أن تكون المعارضة لوجود خلل فعلي وحقيقي، ويكون الظرف لإثارها مناسباً ويصب في المصلحة العامة.

٢. وما لم تكن خدمة لأجندات دول أخرى، مجاورة أو إقليمية أو عالمية.. حيث ستكون المعارضة حينذاك نوعاً من الخيانة الوطنية.

٣. وما لم تتحول إلى حالة مصلحة بحتة، كالاستنفاع المادي، أو للتسلط على الشعب لقهره.

• الجذور الشرعية:

وإذا أردنا أن نعود إلى الجذور الشرعية للمعارضة، فسنجدها متضمنة في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبالتالي هي ليست مجرد حالة مطلوبة بل ومسؤولية تبلغ حد الوجوب الكفائي. فبالإضافة إلى الدعوة إلى ما هو خير وتذكير الناس بما ينفعهم، فإن نصيباً ملحوظاً من هاتين المسؤوليتين يتمثل في أن تُعارض ترك المعروف، كما وتُعارض فعل المنكر بمعناها الشامل، فالإسلام لا يتحدث فقط عن منكر شرب الخمر أو لعب الميسر أو الزنا أو ترك الصلاة وأمثال ذلك، بل إنه يتحدث أيضاً عن أن الفساد الإداري منكر، والحرمة منكر، والاختلاس منكر، والرُشى منكر، وكبت الحريات المسؤولة منكر، ومخالفة القانون منكر، وإعانة الظالم منكر، وتعطيل حقوق المراجعين منكر، والتسيب الوظيفي منكر، والتفاضل على أساس المحسوبية

أو الانتماء الحزبي أو العرقي أو الديني أو المذهبي أو القبائلي أو الأسري من المنكر أيضاً، وغير ذلك كثير.

بالطبع، لا يقتصر الأمر - في المفهوم الإسلامي - على الجانب السياسي والإداري، بل إنه يشمل الجوانب الدينية والثقافية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك كما هو واضح.

• جهات ثلاث:

والملتفت بالعودة إلى القرآن الكريم أنه يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وبالتالي المعارضة في حالتها الصحية والنافعة - من مسؤولية ثلاث جهات، وليس جهة واحدة:

١. الأفراد: كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ «لقمان: ١٧».

٢. المجتمع أو الجماعة من الناس: كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «آل عمران: ١٠٤».

٣. السلطة الحاكمة: كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ «الحج: ٤١».

فمن أبرز صور التمكين في الأرض: الحاكمية والإمساك بالسلطة السياسية.

• سعة المفهوم:

وبالتالي فإن من مسؤولية السلطة السياسية أن تعمل على نشر وتمكين قيم الخير والحق والعدالة كما وعليها أن تعارض وتنهى عن ما يخالف ذلك، وتسعى لمنعه ورفع. ولعل هذا القسم الأخير يبدو غريباً للوهلة الأولى، وغير مشمول في المفهوم الحديث للمعارضة السياسية، إلا أن دلالة الآية السابقة تُعطي هذه السعة لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يشمل ضمناً مفهوم المعارضة.

• ديوان الحسبة:

ومن هنا نشأ ديوان الحسبة في النظام الإداري للدولة الإسلامية فيما مضى،

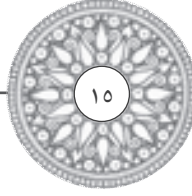
وكانت مسؤولية هذا الديوان القيام بهذا الدور المعارض والتصحيحي لأي مظهر من المظاهر العامة للمُنكَرَات.

من مجموع ما سبق يتضح لنا أن الإسلام ينظر إلى المعارضة السياسية كحالة صحية ومطلوبة، وتقع على عاتق الجميع، السلطة والشعب.. الأفراد والجماعات.. بل هي ترتقي لتكون مسؤولية شرعية، إذ أنها من موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن يكون منطلقها دائماً ضمن الإطار الذي لخصه الإمام الحسين عليه السلام حيث قال: (واني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ)، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي).

فالمعارضة لأجل المعارضة أمر مرفوض، لأن فلسفة وجود المعارضة السياسية في الأساس نابعة من أهمية دورها الفاعل في مساءلة ومراقبة أداء النظام السياسي وتقويم سلوكه وترشيده. كما وأن المعارضة لخدمة الأجندات الحزبية أو الخارجية أو لتحقيق المصالح الشخصية على حساب الوطن والمصلحة العامة أمر مرفوض.

وما دامت المعارضة ناشئة من مسؤوليتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنها بالتالي محكومة بالأطر والشروط التي حدّتها الشريعة فيما يخص مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتدرّجها، وحدودها، وانتقالها من مرتبة إلى أخرى، لاسيما في خصوص استعمال القوة في تغيير المنكر والباطل.





الخطبة الأولى

لماذا الخوف؟

الخوف أمر فطري غريزي في الإنسان، ومقدمة لحماية نفسه، والحفاظ عليها، والدفاع عنها، أو عن شيء ثمين، أو عمن يعنيه أمره. ولم يستثن الله ﷺ الأنبياء عليهم السلام من هذا الأمر، فبعد أن قتل موسى عليه السلام رجلاً من أعوان الظلمة وصف الله حالته قائلاً: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ «القصص: ١٨».

ولما حذر ذلك الرجل المؤمن من البقاء في المدينة وصف الله ﷺ حالته قائلاً: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ «القصص: ٢١».

وهكذا عبّر موسى عليه السلام عن خوفه من القتل على يد فرعون وأعوانه حين أمره الله ﷺ أن يذهب إليهم ليدعوهم إلى دينه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ «القصص: ٢٣».

بل إن الله ﷺ شرع الصلاة بطريقة خاصة عندما ينتاب الإنسان الخوف في ساحة القتال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ «النساء: ١٠١». ثم جاءت الآية اللاحقة وبيّنت كيف تقام هذه الصلاة مع حمل السلاح وغير ذلك من التفاصيل.

• بين الخوف والخشية:

وفي القرآن حديث عن الخوف تارة، وعن الخشية تارة أخرى، وقيل أن الفرق

بينهما أن الخوف يكون من الفعل، كالخوف من القتل، أما الخشية فمن الفاعل، كأن تخشى فلاناً من الناس. في الآيات السابقة ارتبط الأمر بالقتل، ولذا استعملت كلمة الخوف، أما حين كان الأمر مرتبطاً بالفاعل فقد استعملت كلمة الخشية.

قال عَزَّوَجَلَّ في وصف جماعة من المسلمين: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ «النساء: ٧٧».

ولو صح هذا التفسير فلا بد من تأويل المورد التالي - ولعله الوحيد - المتعارض مع ما قلناه، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ «النحل: ٥٠» فالخوف ليس من الله وهو الرحمن الرحيم، بل الخوف من العقوبة التي ينالها الإنسان نتيجة عصيانه وجرائمه.

• الخوف السلبي:

والخوف يمكن أن يكون أمراً سلبياً وذلك في حالات، من أهمها:

١. أن يتحول الخوف إلى جُبْن، فالجُبْن في المعنى اللغوي: (تَهْيُّبُ الإِقْدَامِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ عَلَى مَا لَا يَسْتَحِقُّ). وهذا مذموم. موسى عَلَيْهِ السَّلَام لم يكن جباناً، والدليل على ذلك في نفس الآيات، حيث ذَكَرَتْ كيف أنه تقدَّم للدفاع عن المظلوم في الاعتداء الثاني بكل شجاعة وإقدام، وهذا ليس من فعل الإنسان الجبان.

٢. أن يكون الخوف مرتبطاً بالخجل الشديد، والذي يمثل حالة سلبية تدفع الإنسان إلى تجنُّب التفاعل الاجتماعي السليم في المواقف المختلفة.

٣. أن يكون الخوف مما هو إيجابي، أو من شيء وهمي.. فالطفل قد يُخَوَّف من الطبيب كأسلوب تربوي خاطيء، ليبقى هذا الخوف في نفسه وإن كَبُر.. هذا خوف سلبي. وشبيه بذلك ما تقوم به الكثير من وسائل الإعلام العالمية في هذا العصر بالتخويف من الإسلام والمسلمين، حتى صارت بعض المظاهر الإسلامية المتعلقة بالحرية الشخصية على الأقل - كما هو حال اللباس الشرعي للمرأة - مصدراً للخوف والقلق.

• دعوة الرئيس النمساوي:

ومن جميل ما اطلعتُ عليه قبل يومين، دعوة الرئيس النمساوي الجديد

كلّ النساء في بلده لارتداء الحجاب تضامناً مع المرأة المسلمة في بلده ولمواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا. وقد أطلق هذا التصريح ضمن حلقة نقاشية جرت في مقرّ المفوضية الأوروبية في فيينا وتمحورت حول الإسلام في النمسا.

هذا نموذج، وما يمارسه الرئيس الأمريكي أحياناً نموذج آخر على النقيض من ذلك، علماً بأنهما استلما الحكم في وقت متقارب.

إننا - ومن موقع الإحساس بالمسؤولية - نشيد بدعوة الرئيس النمساوي النساء في بلده لارتداء الحجاب في خطوة حكيمة لمواجهة تصاعد مظاهر العداء للمسلمين في أوروبا، وندعو المسؤولين في الغرب، ووسائل الإعلام المختلفة إلى أن يحدّوا حدّوه بدلاً من أن يساهموا في زرع الخوف من المسلمين.

كما وندعو المسلمين إلى التزام الحكمة في تصرفاتهم، وأن يكونوا خير سفراء للإسلام، وأن يكشفوا للعالم بأن الإرهابيين لا يمثلون قيم الدين وتشريعاته، وأن النبي ﷺ قد تبرأ من أفعالهم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، كما نتبرأ نحن منها اليوم وعلى طول الخط.

الخطبة الثانية

الحكومة والمعارضة

تحدثت في الأسبوع الماضي عن أن وجود المعارضة السياسية - من ناحية التشريع الإسلامي - أمر مطلوب، بل قد يصل إلى حد الوجوب الكفائي باعتباره منبثقاً من وظيفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وذكرت أيضاً أن القرآن الكريم لم يُحصِرْ هاتين الوظيفتين بالأفراد والجماعات، بل واعتبرهما من مسؤوليات السلطة الحاكمة أيضاً، ولذا فقد

أنشئ في الدولة الإسلامية قديماً ديوانُ الحسبة الذي كان يقوم بمراقبة أداء المسؤولين، وإدارات الدولة، والمواطنين على حد سواء، ويحاسبهم ويوجههم.

• مسؤولية شاملة:

ومن المناسب أن أذكر بأن هذه المسؤولية لم تقتصر على الجانب السياسي، بل كانت تشمل الجوانب الحياتية المختلفة، وهذا ما نبّه عليه الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث بين أن من وظائف ديوان الحسبة: المحافظة على النظافة في الطرق، والرأفة بالحيوان بأن لا يُحمّل ما لا يطيق، ورعاية الصحة بتغطية الروايا، ومنع معلّمي الصبيان من ضرب الأطفال ضرباً مُبرّحاً، ومراقبة تبرُّج النساء، ومنع الغش في الصناعة والتجارة والمعاملات، وغير ذلك.

ومن المفترض بأية سلطة سياسية أن لا تنزعج من وجود المعارضة المخلصة، فردية، أو شعبية، أو نابعة من جهة إدارية مثلما كان حال ديوان الحسبة.. بل وأن تشجّع على وجودها وتستمع إليها.

• صور أخرى:

والبرلمان في النظام السياسي الحديث حين يراقب أداء الحكومة ويحاسبها، فإنما يقوم ببعض مهام ديوان الحسبة.

وفي بعض الأنظمة يتم تشكيل حكومة الظل، وقد ظهر هذا المصطلح في بريطانيا أواخر القرن ١٩، وعُرِّفت بأنها: (حكومة غير رسمية ودون قوة فعلية، تضم أعضاء من الأحزاب المعارضة للحزب الموجود بالسلطة، وتعمل على توجيه النقد للحكومة الحالية، وتوفير منظور مختلف للسياسات التي تنفذها الحكومة الفعلية، وتكون بديلاً جاهزاً في حال فشل الحكومة الفعلية).

• المعارضة مظهر حضاري:

وسواء أكنّا نتحدث عن ديوان الحسبة أو البرلمان أو حكومة الظل وأمثال ذلك، فالغاية واحدة، وهي مراقبة الأداء السياسي والإداري للسلطة الحاكمة انطلاقاً من الروح الوطنية، لا من منطلق المصلحية، أو خدمة الدول الأخرى، أو المعارضة للمعارضة، كما ذكرت في الخطبة الماضية.

السماح بوجود مثل هذه المعارضة في النظام السياسي لأي بلد علامة رُقي وتحضّر، لأن السلطة السياسية في نهاية المطاف ليست معصومة عن الخطأ، وغايتها - بحسب الافتراض - خدمة الوطن والمواطنين.

وكما أنه على المستوى الفردي: (المؤمن مرآة أخيه المؤمن)، السلطة الحاكمة بحاجة إلى مرآة، والمعارضة كالبرلمان هي المرآة بالنسبة إليها.

• لوحة أم مرآة؟

ومن هنا، لو سَعَت السلطة الحاكمة إلى أن تجعل البرلمان موالياً لها، فقد أزلت المرآة، ووضعت محلها صورة لها.. والإنسان عندما يقف أمام المصوّر يقف أمام الإضاءة المنصوبة بحسابات هندسية، وبأبهى حُلّة، تملو وجهه الابتسامة المصطنعة، ثم يتدخل المصوّر لاحقاً بالرتوش. والنتيجة.. صورة لا تمثل الحقيقة كما هي، كما أنها لا تقدم الحالات المختلفة لهذا الفرد، على خلاف المرآة التي تكشف حقيقتك في حالاتك المختلفة.. عندما تكون قد استيقظت لتوك من النوم، أو لم تكن قد سَرَحْتَ شعرك، أو لم تشدّب شاربك ولحيثك لعدة أيام، وهكذا.

الحكومة الصادقة مع نفسها ومع الشعب لن تستفيد من برلمان في الجيب.. الحكومة الضعيفة أو التي لا تثق بنفسها هي التي تسعى لذلك. ولذا من المفترض بأية حكومة مخلصّة ووطنية أن تشجّع المعارضة المخلصّة والوطنية التي تعينها على تصحيح أخطائها لتحقيق الإنجازات في المجالات المختلفة بأقل الخسائر والتكاليف.

• مسؤولية الناخبين:

المصدر الآخر الذي قد يصيب العمل البرلماني في مقتل هو سوء اختيار الناخبين. إذا كان معيار الانتخاب فقط هو أن هذا المرشح قائم بدوره الاجتماعي في أفراحنا وأتراحنا.. فهذه سذاجة انتخابية.

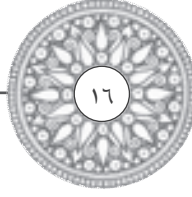
إذا كان معيار الانتخاب فقط هو أن هذا المرشح يُنجز معاملتنا، القانونية منها وغير القانونية... فهذه إساءة كبيرة لنعمة وجود دستورٍ سمح بقيام مثل هذا العمل البرلماني الشعبي.

إذا كان معيار الانتخاب فقط هو أن هذا المرشح كثيرُ الصراخ، بارعٌ في الاستعراض الكلامي، يَغْوَى قَتْلُ عضلاته لسبب أو من دون سبب.. فهذه كارثةٌ وعي انتخابي.

إذا كان معيارُ الانتخاب فقط لأن هذا المرشح من قبيلتي، أو من أسرتي، أو من طائفتي، وأمثال ذلك من اعتبارات... فهذا تفريطٌ بحقٍّ ومكتسبٌ دستوريٌّ ثمين. وحينئذ لا يلومَنَّ الناخبون إلا أنفسهم حين تَخِيبُ ظُنُونُهُمْ بضعف الأداء البرلماني على المستوى الرقابي لأداء الحكومة، فهذا ما كَسَبَتْهُ أيديهم.

إن وجود المعارضة الوطنية والمخلصة والصادقة في معارَضَتِها، سواء أكانت فردية أو جماعية، أو منبثقة من الإدارات الحكومية نفسها، علامةٌ رقيٍّ وتحضُّرٍ سياسي ومجتمعي، ومكسبٌ دستوري تجب المحافظة عليه وتطوير أدواته بما يخدم المصلحة العامة للوطن والمواطن.





الخطبة الأولى

أعمال كالرماد المتطاير

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ «إبراهيم: ١٨».

الوصف في الآية الشريفة جميل جداً... تخيل لو كانت لديك لوحة فنية ثمينة جداً، أو مبلغ نقدي ضخمة، ثم جاءت عليه النار فاحترق، وتحول إلى رماد، هل تبقى من قيمة تلك اللوحة أو ذلك المبلغ النقدي شيء؟ بالطبع لا.. بل حتى ذلك الرماد المتكوّن سنأتي عليه الريح فلا يبقى له أثر.

وهل يمكن استعادة تلك اللوحة أو تلك الأموال؟ هل يمكن تحويل الرماد المتطاير إلى ما كان عليه قبل الاحتراق؟ كلا.. وحينها ستكون الحسرة عظيمة.. والألم النفسي شديداً.

هكذا تشبه الآية مصير أعمال الذين كفروا بربههم.. فعندما يقفون بين يدي الله عزّ وجلّ في الآخرة، فإنهم سيرون ما قدّموا من أعمال خيرة في الحياة الدنيا بلا قيمة وتذهب أدراج الرياح. وهذا الحديث يثير ملاحظتين: الأولى، حول قيمة عمل الكافر.. أفيكون التقويم الإلهي هكذا على طول الخط وإن كان المنطلق صالحاً وفي خدمة الإنسانية؟ هل هذا متناغم مع العدل الإلهي؟

سيكون هذا مفهوماً إذا كان منطلق أعمالهم التقرب إلى معبوداتهم الأسطورية.. كما سيكون مقبولاً إذا كان منطلقهم الرياء والمصلحة الشخصية..

ولكن ماذا لو كانت منطلقاتهم إنسانية؟ أم من العدل الإلهي أن يكون كفرهم سبباً لنفي القيمة عنها كما وصفت الآية الشريفة؟

حين نعود إلى سياق الآية الشريفة سنجد أن الحديث يدور حول فئة خاصة من الكافرين، وهي الفئة المعاندة المحاربة لرسول الله، كما جاء في الآية ١٣ من السورة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. ولذا يمكن القول أن الآية ليست بصدد نفي قيمة العمل الصالح - بشكل مطلق - إن صدر عن الكافر، ليشمل ما صدر عنهم بروح إنسانية خالصة، ولتتأفى ذلك بالتالي مع العدل الإلهي.

بل لعلنا نقول أن تلك الأعمال إن صدرت عن روح إنسانية، فهي ناتجة عن إيمان فطري راسب في داخل النفس، إلا أن ضغط مشاكل الحياة أو البيئة التي نشأ فيها الإنسان أو التربية التي تلقاها، تجعله لا يشعر بهذا الامتداد.. وأما كيف ستكون الإثابة عليها فأمر آخر بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

• قيمة الأعمال الصالحة:

الملاحظة الأخرى: أن هذه الآية الشريفة وإن كانت تتحدث عن مصير أعمال تلك الفئة من الكافرين، إلا أنها تجرنا إلى الحديث عن أن قيمة الأعمال الصالحة رهينة منطلقاتها وغاياتها، ففي نهج البلاغة: (واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له).

فعندما يكون ما وراء العمل غاية ذاتية، فإنه يفقد قيمته عند الله عَزَّوَجَلَّ في ميزان الحساب الأخروي تماماً كما لو كان تقرباً لمعبود غير الله عَزَّوَجَلَّ. أي أن للدوافع الخيرة والغايات الصالحة دوراً مهماً في تقييم العمل عند الله، لا العمل في حد ذاته، وذلك حفظاً للحياة من الأطماع والأهواء التي تتحكم بالناس.

فلنجعل أعمالنا الصالحة خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ بعيداً عن الرياء والمصلحية التي نتكسب من خلالها الوجاهة، ومديح الناس، وخدماتهم، والحصول على أصوات الناخبين، وأمثال ذلك مما يحبط الأعمال الصالحة، ويرسل عليها الريح في يوم عاصف، فلا يَبْقَى منها في الآخرة عين ولا أثر، فتعظم الحسرة في النفوس، ولات حين مندم.

الخطبة الثانية الانتظار السلبي

من الملاحظات حول مسألة الإيمان بالقضية المهدوية ومسألة الغيبة والانتظار أنها تمثل - عند البعض - محاولة للهروب إلى الأمام.

بمعنى أن الإنسان عندما يشعر بالضعف عن مقاومة الظلم والباطل، أو يتكاسل عن ذلك، فإنه يبحث عن قادم في المستقبل - القريب أو البعيد - والذي سيغيّر له ذلك الواقع المظلم.

ومن خلال هذا الهروب إلى الأمام يستكين هذا النموذج إلى الوضع القائم الذي يعايشه ويرضى به، إيماناً منه بأن الخلاص لن يتحقق ما دام أن هذا المخلص لم يظهر بعد.

وقد صَبَّت بعض النصوص - التي يُرَجَّح إلى أنها إما موضوعة أو أسيء تفسيرها - في صالح هذا الاتجاه، وذلك من قبيل ما رُوي في كتاب الغيبة للنعماني عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام: (كل راية تُرفع قبل قيام القائم عَلَيْهِ السَّلَام فصاحبها طاغوت).

وكأن البعض قد وجد في هذه النصوص إسقاطاً تكليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمن الغيبة والانتظار.. وسوّغ لنفسه الركون إلى الأوضاع السلبية التي يعيشها مجتمعه.

سواء أكنا نتحدث عن أوضاع سلبية على الصعيد السياسي، كما لو كان المسلمون مستعمرين من قبل دول كافرة طاغوتية، أو كنا نتحدث عن أوضاع سلبية اجتماعية كشيوخ الفساد الأخلاقي، أو عن أوضاع سلبية فكرية، كما لو انتشرت الأفكار اللادينية والفلسفات المادية.. أو غير ذلك.

أصحاب هذه النظرة والمؤمنون بها يُجمّدون أوامر الله ونواهيه الواردة في القرآن الكريم، ولا مانع عندهم أن تبقى هذه النصوص بلا أثر ومعنى، فهي لا تُخاطبهم، ولا تعنيهم، على الرغم من أنهم يتلون كتاب الله ليل نهار، وآياته تحذر من التراخي وإهمال هذه المسؤولية.

كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ بَأْسًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤-١٦٥).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩).

وهكذا يتم تجزئة التعاليم الإلهية القرآنية، فهذا لعصر الحضور وهذا لعصر الغيبة، وكأن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل شريعته لقرنين أو ثلاثة من الزمان، ثم قال لنا عطّلوها على مدى قرون متتالية!

• انتظار المخلص:

وقد تحوّلت هذه النظرة الخاطئة لمسألة الغيبة والانتظار إلى محفز لبروز إشكالية مفادها أن المسألة المهدوية لا تعدو أن تكون أسطورة من نسج خيال الإنسان الضعيف على مر التاريخ، يبرر بها استسلامه للباطل والظلم!

والواقع أن انتظار المخلص، وإطلاق البشارات بظهوره في المستقبل أمر اعتادته الرسالات السماوية، وعرفه المؤمنون بها في أزمنة مختلفة، وهي جزء من الحالة الإيمانية التي تمزج عالم الشهادة بالغيب، وتربط الحاضر بالمستقبل، ويتم بيانها وتوجيهها عن طريق الوحي، لا من خلال المزاج الذاتي.

مثال ذلك البشارة بظهور المسيح عَلَيْهِ السَّلَام على مدى ٤٠٠ عام سبقت رسالته.. والبشارة ببعثة النبي الأكرم محمد ﷺ على لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَام وانتظار المؤمنين لتحقيق تلك البشارة جيلاً بعد جيل.

إلى أن شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يتحقق ذلك بعد أكثر من ٥٠٠ عام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ «الصف: ٦».

لم يكن المراد من هذه البشارة أن تتحول أو أن يغدو هذا الانتظار حالة من الهروب إلى الأمام، ورضا بالواقع الذي عاشه المؤمنون بالرسالة العيسوية، كأصحاب الكهف وأصحاب الأخدود من المؤمنين برسالة السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام، بل كان مفتاح الأمل الذي يدفعهم دائماً للصبر في سبيل الله، والثبات في طريق الابتلاءات العظيمة، والاستعداد للحظة الحقيقة.

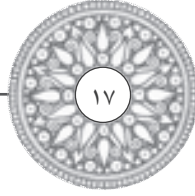
ولربما قام أصحاب القراءة الخاطئة لمفهوم الغيبة والانتظار بقولبة العلاقة بينهم وبين الإمام وجعلها في إطار فردي شخصي، تماماً كما يتعاملون بهذا الأسلوب مع كل ما له علاقة بالدين.

فالقضية بالنسبة إليهم كيف يمكنهم أن يروا الإمام عَلَيْهِ السَّلَام من خلال بعض الأعمال وتكرار بعض الأذكار والأوراد، وكأن الإمام قد غاب لكي يقوم كل شخص منا بالبحث عنه، ثم يراه للحظات!

هل هذه هي وظيفة ومسؤولية ودور الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَام؟ هل غايتنا من الإيمان بقضيته والارتباط بإمامته - في المقام الأول والمرتبة الأهم - أن نراه؟ أم أن نتحمل مسؤولياتنا ونعمل ونمهد لظهوره؟ سواء أكان مقرراً له أن يظهر في هذا الزمان أو بعد قرون. فالمهم أن نكون حلقة من حلقات التمهيد للإمام وتهيئة الأرضية المطلوب توافرها لظهوره.

• الغيبة ليست لتعطيل أوامر الله:

إن وجودنا في عصر الغيبة لا يعفيانا من تحمُّل مسؤولياتنا الرسالية تماماً كما لا يعفيانا من مسؤولياتنا الفردية كالصلاة والصيام، وهكذا فإنه لا يُراد لنا أن نُعطِّل أوامر الله ونواهيه وتشريعاته في هذا الزمان، لنقتصر على الأعمال ذات البُعد الفردي منها، ونؤجِّل ما كان عاماً إلى زمن الظهور.. بل من الضروري أن نفكر في إعداد أنفسنا والأجيال القادمة لتكون جميعاً بالمستوى الذي يليق بمن هم أنصاره والمساهمون في نشر العدل الذي يمثل الغاية لظهوره.



الخطبة الأولى أهواك معهم؟

في قسم الخطب والكلمات من نهج البلاغة برقم ١٢: (ومن كلام له عَلَيْهِ السَّلَام لما أظفره الله عَزَّوَجَلَّ بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددتُ أن أحي فلاناً معك شاهداً، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال له عَلَيْهِ السَّلَام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم. قال: فقد شهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان) الرعاف هو نزول الدم من الأنف، ويراد به أن الزمان سيجود بهم على غير انتظار (ويَقْوَى بهم الإيمان).

يبدو من مجموع بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة أن للنية والرغبة الصادقة وحتى للموافقة والمخالفة القلبية - وفي بعض الروايات يستخدم تعبير: الرضى والسُّخْط - دوراً في تقييم الإنسان سلباً أو إيجاباً في الآخرة، أو حصوله على بعض الامتيازات الأخروية... حتى لو حالت الظروف الزمانية أو المكانية أو الصحية أو غير ذلك من أن يقوم الإنسان أو يشارك في الأمر.

• في الجانب السلبي:

في الجانب السلبي نقرأ مثلاً عاقبة قوم ثمود حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ شخص واحد سينفذ الجريمة، وفي سورة القمر بيان أوضح لذلك حيث قال تعالى في الآية ٢٩ منها: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾.. ثم قال عَلَيْهِ السَّلَام: (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)

نلاحظ هنا كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ نسب الفعل إلى المجموع، ولذا كانت العقوبة للجميع (قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) «الشمس: ١١-١٥».

ولماذا نسب الفعل للجميع؟ وضح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الخطبة ٢٠١ من نهج البلاغة ذلك ببيان قاعدة حيث قال: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسُ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرُ نَاقَةٍ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾).

ولذا فإن مسألة الموافقة والمعارضة، والرضى والسخط، مسألة حساسة ولها أثرها في حساب الإنسان، حتى أننا نجد في وسائل الشيعة عن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ بِالشَّرِّ فَرَضِيَ بِقَتْلِهِ رَجُلٌ بِالْمَغْرِبِ، لَكَانَ الرَّاظِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ). ومن هنا نجد في زيارة وارث: (وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ) يا رب إننا نبرأ إليك من هؤلاء القوم ومن مشاعرهم، وإن لم يشاركوا في قتل الحسين وأنصاره، وفي ارتكاب الجريمة التي وقعت بحق أهل بيته في ذلك اليوم، وإن فصل بينهم زمن طويل يمتد لقرون.

• في الجانب الإيجابي:

وفي الجانب الإيجابي نصوص عديدة من بينها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (يَا بَنَ مَسْعُودٍ، أَحَبُّ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ فَأَحَبُّ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)). والآية التي تليها: (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا). أي أن هذا من فضل الله ونعمه وزيادة عطاء منه سبحانه، مع ملاحظة عنوان الطاعة في الآية.

وفي دعائم الإسلام عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أَنْ قَوْمًا أَتَوْهُ مِنْ خُرَاسَانَ، فَظَنَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ قَدْ تَشَقَّقَتْ رِجْلَاهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: بَعْدَ الْمَسَافَةِ يَابْنَ رَسُولَ اللَّهِ، وَوَاللَّهِ مَا جَاءَ بِي مِنْ حَيْثُ جِئْتُ إِلَّا مَحَبَّتُكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ. قَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَبْشِرْ، فَأَنْتَ وَاللَّهُ مَعَنَا تُحْشَرُ. قَالَ: مَعَكُمْ يَابْنَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا أَحَبَّنَا عَبْدٌ إِلَّا حَشَرَهُ اللَّهُ مَعَنَا، وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ).

فالحب يراد له أن يكون المحرّك والمنطلق للعمل والاقتداء والاتباع، ومن هنا قال علي عليه السلام في نهاية الكلمة التي بدأت بها حديثي وهو يصف من سيجود بهم الزمان: (وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ).

• تحذير وبشارة:

فليحذر الذين يُبدون رضاهم، أو يُعبّرون عن سعادتهم، بأعمال الظالمين والمجرمين والمستكبرين، فإنَّ عدم مشاركتهم في جرائمهم وأعمالهم الطاغوتية لا تعني أنهم غير مشمولين بغضب الله عزَّ وجلَّ وعقابه وحسابه الأخروي.. وليستبشر الذين يعيشون الأمنيات الحقيقية والرغبات الصادقة في نصرة الحق، بحيث لو لم يحجبهم الزمان أو المكان، أو لم تمنعهم الظروف لكانوا حقاً وصدقاً من أنصاره.. فإنَّ مَنْ أَحَبَّ عَمَلَ قَوْمٍ حُشِرَ معهم، وذلك الفضل من الله عزَّ وجلَّ، على أن يكون حُبُّنا للصالحين وأعمالهم الدافع لنا للعمل الصالح الذي يقوِّى به الإيمان.

الخطبة الثانية

المتخاذلون

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ
لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «البقرة: ٢٤٦».

• النبي صموئيل وطلب بني إسرائيل:

تتحدث هذه الآية عن زمن النبي صموئيل، أي قبل قرابة ثلاثة آلاف سنة، حيث كانت أوضاع بني إسرائيل سيئة بسبب التناحر الداخلي وانتشار الفساد، وضَعَف دولتهم نتيجة كل هذه العوامل، بالإضافة إلى تأمر أعدائهم الخارجيين عليهم مما أدى إلى فقدانهم مساحات واسعة من دولتهم.

في كتاب العهد القديم، سفر صموئيل الأول عبارة قريبة مما جاء في الآية الشريفة: (فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة) قرية على بعد ٢٥ كم شمال عكا (وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت، وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب).

يقول النص أن صموئيل دعا الله، فاستجاب دعاءه، وأخبرهم النبي أن هذا الملك سوف يطلب منهم مساعدة أبنائهم الشباب وبناتهم في ساحات الحرب والعمل والتنمية الزراعية لبناء دولة قوية، وقتال الأعداء وأشارت الآية إلى ذلك: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟﴾.

وجاء جوابهم مليئاً بالاستغراب: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا؟﴾ أي سؤال هذا يا نبي الله ونحن ندعو ونبكي ونتضرع ونطالب بتعجيل الفرج ونعاهد بأننا سنقاتل مع هذا المخلص وسنضحي بكل شيء.. أيمكن أن نكون كاذبين أو واهمين؟

• سؤال في محله:

ولكن كان سؤال ذلك النبي الكريم في محله.. فالمسألة ليست مسألة دعاء، ولا وعود، ولا مجرد أمنيات، ولا أن يطلب الإنسان ويتصور أنه سيجلس مرتاحاً فيتحقق له ما يريد.. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ «البقرة: ٢١٤».

هكذا يجب أن نكون، أن لا نستغرق في الظاهر بل نبحث في العمق ونتساءل: أنحن صادقون؟ هل نحن على استعداد أن نقدّم التضحيات ونتحمل الصعوبات من أجل القضية التي نؤمن بها؟

الذين يدعون بتعجيل الفرج للإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَام ليل نهار، هل سألوا أنفسهم إن كانوا يعون ما هو المطلوب منهم لو أنه خرج وطالبهم بتقديم التضحيات؟ أم هم على استعداد أم سينكصون؟

في بعض الظروف تتعالى الدعوات للمقاطعة الاقتصادية للشركات الداعمة للصهاينة، أو لبضائع دول معينة، فتتعالى الأصوات وهي تضحّ مع وجود بدائل

متعددة.. هذا موقف يكشف الحقيقة ومدى الاستعداد.. وفي المقابل هناك اليوم في سجون الصهاينة من يقاطع الطعام وحتى الماء من أجل قضيته.

• ماذا لو ؟

فما الذي جرى على أرض الواقع مع بني إسرائيل؟ لقد جاء الاختيار الإلهي وأبلغوا عن طريق الوحي: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ «البقرة: ٢٤٧».

طالوت الذي كان إنساناً فقيراً ومن عامة الشعب.. لذا نزل الخبر عليهم كوقع الصاعقة.. وكانت استجابتهم عكسية ومتمردة ومخالفة لوعودهم: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ؟﴾.

كل واحد منا رسم للإمام المهدي صورة في مخيلته.. من حيث برنامج عمله ونهضته لو خرج.. ومن حيث هيئته، بل والملبس والملامح وحتى نبرة الصوت.. ماذا لو كانت الحقيقة مختلفة تماماً عن الصورة المتخيلة؟

ماذا لو كان أسلوب عمله وكانت مشاريعه وشعاراته لا تتناغم مع أهوائنا، وما نتعصب له الآن، وما نعادي من خلاله الآخرين، ونتحزب به ضدهم، بل ونفسقهم ونضلّلهم من خلاله.. هل سنتقبلها؟ أم سنعيش التمرد أو التردد على الأقل؟

وجاءهم الجواب من ذلك النبي الكريم: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ألم تطلبوا ملكاً ذا قدرات متناسبة مع المرحلة ومع متطلباتكم؟ هذا هو.. والله واسع الإحاطة بكل شيء وهو العليم بحقائق الأمور وخفاياها.

وجاءت الاستجابة على مضض بعد أن نزلت الحجة من الله عز وجل عليهم بصحة كلام ذلك النبي، وحانت ساعة تنفيذ الوعود، فماذا جرى؟ قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

• دعاء بالفرج ولكن عن وعي:

إن علينا - ونحن نرفع أيدينا بالدعاء بتعجيل فرج الإمام المهدي عليه السلام - أن نتأكد قبل ذلك إن كانت ابتهالاتنا ومطالبنا وأمنياتنا وأدعيتنا نابعة من وعيٍ

رسالي بالقضية المهدوية.. أن ندرك أن الموقف عند الظهور سيتطلب الاتباع ولو كان ذلك مخالفاً لأهوائنا، كما سيتطلب التضحيات.

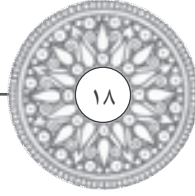
فهل سنقول كما قال بنو إسرائيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا﴾.. وهل سنقول: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فتحن نريد أن ندخلها دون أن نقدم التضحيات، ونريد لها أن تسقط بصورة إعجازية.. وقد نقول له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

هل هيأنا أنفسنا لاحتمال أننا لن نقطف ثمار التضحيات مباشرة لو كنا في عصر الظهور، بل سيقطفها جيل آخر؟

هل اخترنا أنفسنا على الأقل في عنوان العدل الذي يمثل القضية المركزية في حركة الإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَام.. أنحن مع العدل في حياتنا، أم نميل ونحيف بعيداً حين تَمَسُّنا المسألة أو تَمَسُّ أحبائنا ومصالحنا؟

إن الله عَزَّجَلَّ يريد لنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، وصادقي الوعد معه ومع أوليائه، لِيُكْتَبَ لنا أننا قد نجحنا في الابتلاء الإلهي.





الخطبة الأولى

خطبة النبي ﷺ في استقبال شهر رمضان

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إن رسول الله ﷺ خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة. شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات. هو شهر دُعيتُم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتُم فيه من أهل كرامة الله. أنفاسُكم فيه تسبيح، ونومُكم فيه عبادة، وعملُكم فيه مقبول، ودُعَاؤُكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة، وقلوب طاهرة، أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه، فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم. وأذكروا بجوعكم وعطشكم فيه، جوع يوم القيامة وعطشه. وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم، وعما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم. وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلاتكم، فإنها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده، يجيبهم إذا ناجوه، ويلبيهم إذا نادوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه. أيها الناس! إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فحففوها عنها بطول سجودكم. واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين. أيها الناس، من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر، كان له بذلك عند الله

عَتَقَ نَسَمَةً، وَمَغْفَرَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَلَيْسَ كُلُّنَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشَرْبَةِ مِنْ مَاءٍ. أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ حَسَنَ مِنْكُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ خُلِقَهُ، كَانَ لَهُ جَوَازٌ عَلَى الصُّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَمَنْ خَفَفَ فِي هَذَا الشَّهْرِ عَمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، خَفَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ، وَمَنْ كَفَّ فِيهِ شَرَّهُ، كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ أَكْرَمَ فِيهِ يَتِيمًا، أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ وَصَلَ فِيهِ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ قَطَعَ فِيهِ رَحِمَهُ قَطَعَ اللَّهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ تَطَوَّعَ فِيهِ بِصَلَاةٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرَضًا كَانَ لَهُ ثَوَابٌ مِنْ أَدَى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الشُّهُورِ، وَمَنْ أَكْثَرَ فِيهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ، ثَقُلَ اللَّهُ مِيزَانَهُ يَوْمَ تَخْفُ الْمَوَازِينُ، وَمَنْ تَلَا فِيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُفْتَحَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يُغْلِقَهَا عَنْكُمْ، وَأَبْوَابَ النَّيرانِ مُغْلَقَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يَفْتَحَهَا عَلَيْكُمْ، وَالشَّيَاطِينُ مَغْلُولَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يُسَلِّطَهَا عَلَيْكُمْ. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقُمْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ! أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ: الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

الخطبة الثانية

صيام الصمت

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا فَامَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾ «مريم: ٢٦».

عرفت بعض الديانات والمجتمعات البشرية صوم الصمت، وما زال يمارس في بعضها. وعرف العرب ما قبل الإسلام هذا النوع من الصيام، قال د. جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام عند حديثه عن صيام أهل الكتاب وصيام رهبان النصارى: (ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم،

وسلك مسلكهم. فكان يصوم، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام). إلا أن التشريع الإسلامي نهى عن هذا النوع من الصيام، وأراد بعض المسلمين ممارسته على عهد النبي ﷺ، فنهى عنه بوضوح.

في موطأ مالك أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: (ما بالُ هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلم ولا يستظل من الشمس، ولا يجلس ويصوم، فقال رسول الله (ص): مُروه فليتكلم، وليستظل، وليجلس، وليتِمَّ صيامه). فأقر الرجل فقط على الصيام بالطريقة المشرعة في الإسلام.

وفي وسائل الشيعة عن الصادق عن آبائه عَلَيْهِ السَّلَام - في وصية النبي ﷺ لعلي عَلَيْهِ السَّلَام - قال: (ولا صَمْتَ يوماً) أي نهاراً (إلى الليل وصوم الصمت حرام).

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَام قال: (قال رسول الله ﷺ: ليس في أمتي رهبانية ولا سياحة ولا زَم، يعني السكوت).

وبدلاً عن ذلك اتجه الإسلام إلى الحث على تهذيب الكلام، باختيار الصمت على الثثرة والكلام الباطل، والنهي عن الكذب والغيبة والنميمة والبهتان والفتنة وأمثال ذلك.

وقد استوحى الصادق عَلَيْهِ السَّلَام من آية سورة مريم التوجيه الأخلاقي التالي حيث قال: (إِنَّ الصَّوْمَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَحْدَهُ، إِنَّ مَرْيَمَ قَالَتْ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾، أي صمتاً، فاحفظوا أَسَنَّتْكُمْ، وعضواً أَبْصَارَكُمْ، ولا تحاسدوا ولا تنازعوا) فالمطلوب حفظ اللسان وهو البديل الإسلامي.

• صيام الصمت بثوب جديد:

إلا أنه ومع بروز ظاهرة التصوف في القرن الهجري الأول، ومن خلال موروث الرهبان العرب، لا سيما في بعض نواحي العراق، كالْبَصْرَة - وقد أخذوا في البداية عنوان الزهاد ثم تطور إلى عنوان المتصوفة - عاد صيام الصمت للظهور من جديد وبصور مختلفة.. فمثلاً، أحد من كانوا يُعتبرون في زمنهم رؤوس الزهاد، أخذ على نفسه ألا يتقوه أبداً إلا بدعاء أو ذكر، والتزم بذلك، حتى إذا استشهد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام بكرِبلَاء، وأخبر بالأمر لم يتمالك نفسه أن قال: (الويل لأمة قتلت ابنَ نبيِّها) ثم سرعان ما سكّت وصار يستغفر ندماً على تقوّه بهذه الكلمات!

وقد أفتى الفقهاء بمنع صوم الصمت، واعتباره من البدع.. إلا أنه ما زالت تأثيرات تلك الرهينة والتصوف تظهر من وقت إلى آخر، وبصور مختلفة... ولنلاحظ الاستفتاء الموجه إلى المرجع الديني سماحة السيد علي السيستاني: (ما هو رأيكم بمن يصوم اليوم الأول من شعبان وهو صوم يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَام، والصوم هو عن الأكل والشرب وعن النطق، أي لا يتكلم طوال اليوم ويجعل عدم النطق من الصوم؟ الجواب: هو صوم الصمت المنهي عنه، فإنه بدعة محرمة).

• ضرورة تهذيب الكلام:

وسواء أكنّا نتحدث عن مشروعية هذا النوع من الصيام قبل الإسلام، أو عن البديل الإسلامي له، فإن منطلق الأمر هو إدراك التبعات السلبية لإطلاق الحرية للسان ليتكلم بما شاء.

وشهر رمضان بخصوصيته الروحية، وخصوصية الصيام فيه، وإلجام النفس عن بعض ما تشتهي وتريد، ينبغي أن نجعله أيضاً محطةً لتهذيب اللسان، وفي اتجاهين:

الأول عن المحرمات، وهذا لازم، والآخر عن الثثرة، والخوض في توافه الأمور، وفيما لا يعنيننا، أو ما لا فائدة منه.. ليس خلال فترة النهار فقط، بل حتى في لياليه المباركة.

ومن المعلوم أن الكلام اليوم ما عاد مقتصرًا على النطق اللساني، بل أصبحت الكتابة وإعادة النشر والمواد الصوتية والمرئية التي تُبث من خلال وسائل التواصل الاجتماعي صورة أخرى من صور الكلام.. وما ذكرناه مسبقاً يشملها.

قامت إحدى الصحف المحلية مطلع هذا العام بمتابعة القضايا المنظورة أمام المحاكم الكويتية في يوم اختارته عشوائياً، فكانت قضايا المساس بكرامة الناس هي الأكثر تداولاً من خلال ما يتم التعبير عنه في مواقع التواصل الاجتماعي.

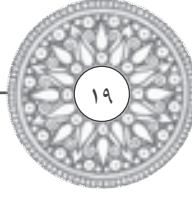
المشكلة محسوسة، حتى أن إحصائية رسمية صدرت عن وزارة العدل الكويتي قبل سنتين تقول أن ٣٣٪ من قضايا الطلاق في تلك السنة كانت بسبب شبكات التواصل الاجتماعي.

كنت أستمع إلى مقابلة مع أحد الشباب في إذاعة محلية، فتحدث عن إطلاق حملة على بعض وسائل التواصل الاجتماعي بهاشتاك يحث على منع التفريعات المسيئة في رمضان. ونحيي مثل هذا المشروع الذي يصب في الاتجاه الصحيح، وندعو شبابنا إلى التفاعل معها إيجابياً، وهو جزء من مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأتمنى أن نشهد من شبابنا مشاريع توعوية مشابهة، شريطة أن يعملوا هم قبل غيرهم بمضمون هذه المشاريع كي يكونوا صادقين في عملهم، وليجعله الله مباركاً منتجاً.

• مسؤولية أمام الله:

روى المحدثون المسلمون أنه: (سمع رسول الله ﷺ امرأة تسب جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله ﷺ بطعام فقال لها: كلي، فقالت: إني صائمة، فقال: كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريته؟ إن الصوم ليس من الطعام والشراب فقط).. لأن قيمة الصيام في آثاره التهذيبية والروحية، لا في ممارسته الشكلية الجامدة. إن الإسلام وإن اعتبر صيام الصمت عملاً مرفوضاً، إلا أنه وفي ذات الوقت حث على أن يحفظ الإنسان لسانه إلا من خير، وأن يكون شهر رمضان بصيامه وخصوصيته الروحية عاملاً مساعداً أو محطة انطلاق للمسلم كي يمارس السيطرة على ما يقول، تفوهاً به أو كتابةً أو بإعادة النشر عبر وسائل التواصل الحديثة، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.





الخطبة الأولى كاشف التقوى

قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾
«الحج: ١».

هل الأمر بالتقوى هنا أمر بكثرة الصلاة والصيام وتلاوة القرآن؟ فإذا وجد الإنسان نفسه قد أكثر منها فهو إنسان متقي بالضرورة؟

كثرة الصلاة والصيام وتلاوة القرآن من مقدمات تحقيق التقوى، وعلامة من علامات وجود مستوى ما من التقوى، وليست هي ذات التقوى.. إذاً كيف يعرف الإنسان مدى تقواه؟

في الظروف الطبيعية وفي حالة الرخاء لا تتجلى مديات تقوى الإنسان ولا تتكشف الحقيقة له. فالإنسان الشبعان الذي يتوفر له ما لذ وطاب من الطعام الحلال، هل يمكنه أن يدرك أن لديه تقوى وعفة البطن؟ والإنسان الذي يتوفر لديه المال، هل يمكنه أن يدرك أن لديه تقوى وعفة اليد؟

إذا أردت أن تعرف أنك تتقي الله: قيّم أقوالك وأفعالك في المواقف العصبية.. وهي كما قد تكون عصبية أحياناً من الناحية المادية، فهي قد تكون عصبية من الناحية الاجتماعية مثلاً، حيث يقع الإنسان في الإحراج من الآخرين.. أو تصعب عليه معارضة الأغلبية.. أو يكون محكوماً وملتزمًا بالتعصب العائلي، أو القبلي، أو الحزبي، أو الوطني، أو غير ذلك.

هنا يكشف الإنسان هل لديه تقوى أم لا. فإن لزم الحق - مع أي طرف كان - فهو صاحب تقوى.

• لا تجادل عن الخائن:

مسلم سرق، وانبرى قومه للدفاع عنه وإلقاء التهمة على يهودي بريء.. اجتمعوا سراً واتفقوا على طريقة للتلاعب في الأدلة والمبررات لتبرئة صاحبهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ «النساء: ١٠٨».

وبعض الناس لديهم القدرة على التلاعب بالكلام وبالحقائق وعلى الإقناع بشكل كبير، بحيث تكون الصورة لديك واضحة من الناحية النظرية ومن حيث تحديد موقفك الذي يرضي الله، إلا أنهم بتلاعبهم بالكلام والحقائق يمكنهم أن يحرفوك عن الحق بمبررات وأعدار واهية.

لاحظ كيف أن البعض لديه مثل هذه القدرة حتى أنهم كادوا أن يخدعوا النبي بمكرهم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ «النساء: ١١٣».

هؤلاء الذين جلسوا وتأمرؤا ونسوا الرقابة الإلهية لا تقوى لهم.. والذي يخضع لهذا التلاعب لأنه الأوفق به اجتماعياً، لا تقوى له... هنا تظهر قيمة صلاتك وصيامك وتلاوتك للقرآن الكريم.

ولذا جاءت الآية قبل ذلك لتحدد موقف الإنسان المتقي بشكل لا لبس فيه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ «النساء: ١٠٧». فالدفاع عن المخطيء أو مرتكب الجريمة حرام.. وهو خيانة واشتراك في الجريمة والخطأ.. وعلامة على خلل في التقوى.

• نحن وشهر رمضان:

فلنجعل من شهر رمضان ببركاته الغيبية والعبادية والروحية منطلقاً نحو تحقيق المزيد من التقوى الحقيقية والصادقة والعميقة في نفوسنا وفي عقولنا وفي أقوالنا وفي أفعالنا، التقوى التي تجعلنا حيث يحب الله أن نكون، ومع من يريد

الله لنا أن نكون، ليس فقط في الظروف العادية وفي الاسترخاء، بل وفي الظروف العصبية وحيث تشتد الشدائد، وحينها يتجلى المعدن الحقيقي للإنسان، ويعرف أن صيامه حقق الغرض منه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «البقرة: ١٨٣».

الخطبة الثانية

غياب حس المسؤولية

عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ثم بدأ النبي ﷺ يقدم بعض الأمثلة على ذلك قائلاً: (الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، ثم أضاف الراوي: (وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

المسؤولية جزء من الوجود الإنساني.. لأن الإنسان مختار، وما دام مختاراً فلا بد وأن يكون مسؤولاً.. هذه هي المعادلة بكل بساطة.

ولكن هناك مجموعة من العوامل التي يمكنها أن تفرغ الإنسان من الإحساس بالمسؤولية، ومن بينها المفاهيم المغلوطة الناشئة عن التربية الخاطئة، أو نتيجة محاكاة وتقليد البيئة المحيطة.

• ياباني في بلاد العرب:

في كتابه «العرب.. وجهة نظر يابانية» كتب «نوتوهارا» وهو ياباني عاش وتجول في بلاد العرب لمدة أربعين عاماً، ودون مجموعة من الملاحظات كنتاج لهذه المعيشة والمقارنة بمجتمعه، قال في ما يخص موضوع المسؤولية: (الكاتب المعروف يوسف إدريس زار اليابان عدة مرات. ولقد قال إنه كان يبحث عن سر نهضة اليابان التي

أدهشت العالم... وبعد الزيارة الثالثة سئل: هل وجدت الإجابة في اليابان؟ قال: نعم، عرفت السبب. مرة كنت عائداً إلى الفندق في وسط طوكيو حوالي منتصف الليل، ورأيت عاملاً يعمل وحيداً، فوقفت أراقبه، لم يكن معه أحد ولم يكن يراقبه أحد، ومع ذلك كان يعمل بجِد ومثابرة كما لو أن العمل ملكه هو نفسه. عندئذ عرفت سبب نهوض اليابان وهو شعور ذلك العامل بالمسؤولية النابعة من داخله بلا رقابة ولا قسْر. عندما يتصرف شعب بكامله مثل ذلك العامل، فإن ذلك الشعب جدير بأن يحقق ما حققتموه في اليابان).

ثم يأتي المؤلف بمثال مقارن قال: (أذكر حادثة بسيطة للغاية موجودة على نطاق واسع. في عاصمة عربية ذهبت لأزور صديقاً عربياً، وعندما وصلت إلى الحي الذي يسكنه فاجأتني القاذورات وفضلات الطعام وكافة أشكال النفايات وأكياس الزباله. كانت منشورة بعشوائية على الأرض، والشارع والزوايا. على أي حال، وصلت إلى البناية التي يسكن فيها ذلك الصديق. المدخل كان قذراً والدرج أيضاً، ولكن لدهشتي فقد وجدت عالماً آخر خلف باب صديقي. كان البيت نظيفاً للغاية وكان مرتباً وأنيقاً ومريحاً. لقد فهمت أن كل ما يخص الملكية العامة يعامله الناس كأنه عدو فينتقمون منه، ولذلك نجد المقاعد في الحدائق العامة مكسرة أو مخلوعة، ونجد معظم مصابيح الشوارع محطمة، كما أن دورات المياه العامة قذرة بصورة لا توصف. وحتى المباني الحكومية فقد لحق بها كل أنواع التخريب الممكنة).

ثم يتحدث كيف أن تدمير الممتلكات العامة هو نوع من التعبير عن الغضب على السلطة الحاكمة في تلك البلدان، وأن الفرد حين يدمرها يغفل عن أنه إنما يدمر ممتلكاته في نهاية المطاف فهي قد وضعت لخدمته.

بالطبع من الخطأ أن نفسر هذا السلوك التدميري بهذه الصورة على الدوام، ولكنها جزء من الصورة في كثير من البلاد العربية، ومرد ذلك ترسب المفاهيم الخاطئة تربوياً أو بالمحاكاة.

• هل ابني إنسان مسؤول؟

بكل بساطة تستطيع أن تكتشف مدى تحمل أبنائك للمسؤولية.. عندما يغادر أحدهم المنزل وقد ترك باب غرفته مشرعاً، وترك الإضاءة، والغرفة إجمالاً

مبعثرة.. ثيابه التي استبدلها.. حاجاته الخاصة.. اتكلاً على أن هناك من سيرتب الغرفة، ويطفيء الإضاءة، ويوصل الباب.. من الواضح هنا غياب حس المسؤولية عند هذا الفرد.

وعندما يركب سيارته، فيخرج ما بها من قمامة، ويلقيها على الأرض مقابل المنزل، اعتماداً على وجود من سينظف هذا المكان لاحقاً.. من الواضح هنا غياب حس المسؤولية عند هذا الفرد.

• لماذا يغيب حس المسؤولية؟

اليوم من أهم أسباب غياب حس المسؤولية الاستغراق في أجواء اللعب واللهو والترفيه. وللأسف دخلت الحكومة على الخط أيضاً، وعمقت هذا الخلل من خلال التوظيف الوهمي الذي لا يُنتج من خلاله الشاب أي شيء، بل لا يجد له مكتباً، وكل ما يفعله أن يأتي أول الوقت ليبصم وآخر الوقت ليبصم من جديد.. وحتى البصمة وجدوا لها طرقاً لتزويرها فتكاسلوا عن الحضور لها.

• من نتائج غياب حس المسؤولية:

الآن مثل هذا الفرد لو دخل بيت الزوجية فاقداً للإحساس بالمسؤولية.. ألن يكون ذلك من عوامل فشل التجربة الحياتية الجديدة؟ على مستوى اقتصاد الأسرة، وتوفير احتياجاتها، وتأمين الأجواء والبيئة النفسية الإيجابية، ونزع فتيل الأزمات، ومعالجة مواطن الخلل، وتربية الأبناء، وما إلى ذلك.

أحياناً نجد بعض الأزواج الشباب في بدايات حياتهم الزوجية ينشغل مع أصدقائه بعيداً عن بيته.. والسبب يعود أحياناً إلى أنه يهرب بهذه الطريقة عن المسؤولية، لأنه من الأساس لم يتعود عليها عندما كان صغيراً.

وهكذا عندما نجد الزوجة الشابة أحياناً تستغرق في النوم لما هو فوق المعدل.. هذه محاولة للهروب من المسؤولية أيضاً. وكذلك عندما تشتت وجود خادمة في البيت وهما فردان فقط.

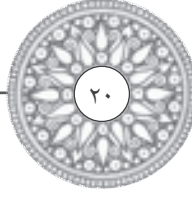
للأسف بعض أولياء الأمور بعد انكشاف هذه الحالات السلبية يساعدون على استمرارها لا على معالجتها، وذلك من خلال التدخل بإنجاز مسؤوليات الأبناء

في بيت الزوجية. فالأم تذهب إلى مسكن ابنتها ولربما تجلب معها الخادمة وتبدأ
تنظف وترتب الشقة.. هذا ليس حلاً، وهي لا تساعد ابنتها هنا في بناء وترتيب
حياتها الزوجية، بل تساهم في تدميرها.

• إعادة نظر:

إننا بحاجة إلى إعادة النظر في المنظومة القيمية التي نزرعها في أبنائنا،
فهي باتت تشتمل على عدد من الفراغات التي تحتاج إلى أن يُعاد ملؤها بالقيم
التي لما غابت صرنا نعاني من آثار غيابها وتبعات ذلك. والإحساس بالمسؤولية
وتحملها واحدة من أهم القيم التي لا بد من إعادة موضعها في تلك المنظومة،
ويمكن للشعار النبوي (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) أن يكون المنطلق الذي
يبين حجم المسألة ومدياتها لنخطط على أساس ذلك كيف نعيد تلك القيمة إلى
وضعها الصحيح.





الخطبة الأولى

اللهم وفقني للخير

جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية تحت عنوان: (وكان من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال: اللهم صل على مُحَمَّد وآله، وَبَلِّغْ بِإِيْمَانِي أَكْمَلَ الْإِيْمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِيْنِي أَفْضَلَ الْيَقِيْنِ، وَأَنْتَ بَنِيْتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ... اللهم صل على مُحَمَّد وآله، وَاكْفِنِي مَا يَشْغُلُنِي الْأَهْتِمَامُ بِهِ) أحياناً يتفاجأ الإنسان بقضايا وأمور تترك أوضاعه، وتشغله عما يصلح حاله، وعن السعي في الغايات الدنيوية والأخروية التي لأجلها خلقه الله.. اللهم جنبني ذلك، كي أستطيع السيطرة على أحاسيسي، ولئلا تضطرب نفسييتي، ولأحافظ على تركيز تفكيري، فأكون الإنسان المنتج للخير على مستوى الفكرة والكلمة والعطاء والعمل.

(وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدَا عَنْهُ) وما أكثر المهيات والأمور التافهة التي تستغرق أوقات الإنسان، ثم لا يجد لها ثقلًا ولا وجوداً في ميزان الحساب الأخروي، فيقع أسير الحسرة والندامة، ويتمنى لو يعود إلى الحياة الدنيا من جديد ليملاً تلك الأوقات الضائعة بما له مردود في الآخرة، صلاةً، وتلاوةً لكتاب الله، وخدمة للناس، ومساعدةً للمحتاج، وأمرًا بالمعروف، وأمثال ذلك.

(وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ) فالفقر قد ينقض على الإنسان فيشل تفكيره ويعطل حركته، ويدفعه إلى الكفر بالقيم والتمرد

عليها، بل والكفر بالله ومَعْصِيته. ولكن في نفس الوقت يا رب: (وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ)
اللهم لا تجعلني مصاباً بالعجب من خلال سعة الرزق.

(وَأَعِزَّنِي، وَلَا تَبْتَلِيَنِي بِالْكِبَرِ) فإن الإنسان إذا امتلك أسباب العزة والقوة
والامتداد في المجتمع، فإنه سيكون معرضاً للتكبر والطغيان. وحقيقة إيمان وتقوى
الإنسان الذي يمتلك أسباب القوة المادية والمعنوية، أو زيفهما، تتجلى من خلال
عدم سقوطه في أحوال الكبر والطغيان.

(وَعَبَّدَنِي لَكَ، وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجِرْ لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيَّ الْخَيْرَ، وَلَا
تَمْحَقْهُ بِالْمُنَّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَأَعْصِمْنِي مِنَ الْفُخْرِ) يا رب، أعني على
أن أكون الإنسان المتواضع حقيقة مع كل ما أمتاز به من علم، وتوفيق للعبادة،
وغنى مادي، ومحبوبة عند الناس.

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَطْتَنِي
عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلَا تُحْدِثْ لِي عِزًّا ظَاهِرًا إِلَّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي
بِقَدَرِهَا).

الخطبة الثانية

أثر فعل الخير

جُبِلَ الناس على حب الخير، وعَمَلَ الخير، وتقدير فاعل الخير والبر والإحسان.
ولذا فإنه على الرغم من كل الدعاية الإعلامية السلبية التي قام بها الأمويون
لتشويه صورة الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقبل ذلك بحق علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وآل علي، إلا أن
حب الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ بقي حاضراً في النفوس، ومن أسباب ذلك: ما كان يقوم به
الإمام من فعل الخير.

الآلة الإعلامية ذات الصبغة الدينية التي كان يوظفها الأمويون في مصالحهم
دون تقوى لم تكن بسيطة.. أموال، وشخصيات، وأساليب، وامتداد.. ومع هذا

كان الإمام المجتبي عليه السلام من خلال موقف واحد يحطّم تلك الماكنة التي لم تكن تهدأ.

• موقف فريد:

في مناقب ابن شهر آشوب: (ومن حلمه عليه السلام ما روى المبرد) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «إمام النحو أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، البصري، النحوي، الأخباري» أي من أهل الاختصاص في التاريخ (وابن عائشة) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «الإمام العلامة الثقة أبو عبد الرحمن، عبيد الله بن محمد القرشي التيمي البصري الأخباري الصادق، ويعرف بابن عائشة، وبالعيشي، لأنه من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، ولد بعد الأربعين ومائة» (أن شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه والحسن لا يرد) لاحظ شدة تأثير الآلة الإعلامية الأموية على الرغم من أن الحسن هو ابن بنت رسول الله الذي يذكرون اسمه قبل وفي كل صلاة، ويذكرون آله في تشهد كل صلاة (فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسلم عليه وضحك فقال: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت) أي اعتقدتني شخصاً آخر بينك وبينه عداوة أو خصومة أما أنا فلا أعرفك ولم يصدر عني سوء تجاهك (فلو استعبتنا أعتباك) أي لو كان هناك سبب للعتب لرفعناه وأرضيناك (ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنياك، وإن كنت طريداً أوبناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك) أي أفضل بالنسبة إليك وأكثر فائدة (لأن لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً) صدم هذا الشامي من معالي أخلاق الحسن عليه السلام.. من هذه الأخلاق الملائكية الصادقة والنابعة من القلب، هذه الطهارة (فلما سمع الرجل كلامه، بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه. الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إلي، والآن أنت أحب خلق الله إلي. وحول رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم) هذا هو تأثير فعل الخير.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا

إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ «فصلت: ٣٤-٣٥». فعلاً المسألة ليست سهلة.. أن يتجاوز الإنسان كرامته، وعِزَّة نفسه، وما تحدّثه به نفسه من الانتقام ورد الاعتبار وأمثال ذلك.. تجرُّع الغيظ ليس أمراً بسيطاً.. يحتاج إلى صبر وقوة.

ولذا قال النبي ﷺ كما روي عنه: (ليس الشديد بالصرعة) أي المصارع الذي يغلب الناس بقوته (إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب). فكيف إذا كان الأمر يتجاوز كظم الغيظ إلى الإحسان؟

إذاً فعل الخير مؤثّر وذِكْره يبقى عبر الزمن.. وهذا ما أكد عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بحسب ما جاء في قسم الحكم من نهج البلاغة برقم ١٠ حيث قال: (خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً، إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عَشْتُمْ حَنَوْا إِلَيْكُمْ).

• الكويت وفعل الخير:

دولة الكويت في سياستها الخارجية - وبشكل إجمالي - انتهجت هذا المسلك، واستطاعت مؤخراً من خلال ذلك أن تحصل على العضوية المؤقتة في مجلس الأمن الدولي بحصولها على ١٨٨ صوتاً من أصل ١٩٢ صوتاً في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهو كما لا يخفى رقم كبير.

صحيح أن قرارات الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن تبقى أسيرة لقرارات الأعضاء الكبار الدائمين من خلال حق النقض «الفيتو»، إلا أن وجود الكويت مع هذه الدول يعطيها الفرصة لطرح آرائها بخصوص القضايا الدولية ومعالجة الصراعات القائمة، بمدى أوسع وأشد تأثيراً.

هذا لم يأت من فراغ، بل نتيجة عمل في الاتجاه السليم من قبل السياسة الخارجية، وتجلّى في:

١. المحافظة على التوازن والحياد - بصورة إجمالية - في السياسة الخارجية، حتى خلال فترة الحرب الباردة التي قسّمت الدول إلى معسكرين متنافسين بشدة، غربي وشرقي.. وهذا ليس بالأمر اليسير.. ففيه الكثير من المطبات.. في قمة ذلك الصراع كانت للكويت علاقات دبلوماسية كاملة مع تلك الأقطاب والقوى العظمى، بالإضافة إلى العلاقات التجارية والثقافية والتعليمية وغيرها.

٢. مساعدة الدول الفقيرة والنامية - وبصورة فريدة على الصعيد الدولي - من خلال وزارة المالية مباشرة، أو الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية الذي أنشئ عام ١٩٦١، أو غير ذلك.

بحمد الله، عندما تحققت الوفرة المالية في الكويت مع ارتفاع أسعار النفط، لم توظف الفائض في خلق النزاعات الدولية، وتغذية أمراء الحروب، ومافيات الأسلحة.. بل في أعمال الخير.

قبل سنة تقريباً، أصدرت وزارة الخارجية الكويتية تقريرها الأول عن المساعدات الخارجية الإنمائية والإنسانية بقطاعيها الحكومي والأهلي، وجاء فيه أن ما قدمته وزارة المالية فقط للدول العربية وغيرها بين عامي ١٩٩٠ حتى عام ٢٠١٤ بلغ أكثر من ٩ مليارات دينار كويتي.

وقدّم الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية خلال نفس الفترة ما يقارب ٢,٧ مليار دينار ما بين منح وقروض ميسرة... هذه صور من أعمال الخير الرسمية بغض النظر عن الأهلية.

٣- الدور الإصلاحي الذي دأبت عليه الكويت لنزع فتيل الأزمات، وحل المشكلات، ورأب الصدع وتطبيع العلاقات بين الدول الشقيقة والصديقة والمتجاورة.

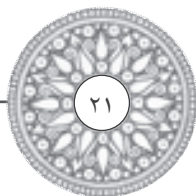
وهذه الأيام نشهد نموذجاً منها ضمن الخلافات القائمة بين بعض أعضاء مجلس التعاون الخليجي، حيث بادرت الكويت بسرعة - من خلال الوسائل الدبلوماسية وعلى أعلى مستوى - ساعية لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، وفتح المجال لحل الخلافات بالحوار لا بالقوة.

• ضريبة النجاح:

إن السياسة الخارجية الإيجابية لدولة الكويت متمثلة في الحفاظ على التوازن في مواقفها الدولية، وفي المساعدات المالية التي تقدمها للدول الفقيرة والنامية، ومن خلال سعيها الدؤوب للإصلاح وحل النزاعات بين الدول، أكسبتها سمعة جيدة ومصداقية في القيم والمواقف، وأهلّتها لأن تحصل على هذا الرقم الكبير في التصويت لنيل عضوية مجلس الأمن.

إلا أن لهذا النجاح ضريبته، إذ يُحمّلُ الكويتَ مسؤوليةً أكبرَ للحفاظ على الإيجابيات السابقة من جهة، ولأن تكون على طول الخط مناصرةً للحق وللمظلومين وللقضايا العادلة من جهة أخرى، لأنها وقفت عام ١٩٩٠ أمام هذا الصرح وتطلّعت إلى نصرتها من قِبَل المجتمع الدولي في مواجهة الغزو والعدوان الذي تعرضت له، ولاحتلال أراضيها، والاعتداء على شعبها، وتدمير مقدراتها.. فكما أرادت في ذلك اليوم أن يُنْتَصَرَ لقضيتها العادلة ولها كصاحبة حق.. فلتكن كذلك تجاه الآخرين.





الخطبة الأولى الدعاء والكرم الإلهي

في الرسالة الحادية والثلاثين من نهج البلاغة وهي وصية من الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: (وَأَعْلَمُ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكْفُلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ «غافر: ٦٠» (أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ، وَتَسْتَرحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئَكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ) وبالتالي تدعوه بشكل مباشر بلا وسائط (وَلَمْ يَمْنَعْكَ أَنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ) فباب التوبة يبقى مفتوحاً للعبد، وعودته إلى المعصية لن تغلقه (وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنَّقْمَةِ) أي بالعقوبة على تلك المعاصي... بالإضافة إلى أنه حين تكشف له خطاياك وتستغفر وتعود إليه نادماً (وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ) على خلاف الناس حين تتسامح منهم فإنهم يذكرونك بما فعلت ولربما يهينونك بالكلمة والموقف ثم يسامحونك (وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى) أي هذا المذنب يستحق الفضيحة ولكن الله يستر عليه، فأى كرم هذا؟ بل إن كرمه لا يقف عند هذا الحد، يضيف الإمام (وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ) بل جعلها فورية متى ما حققت الشروط بالندم والإصلاح الوعد بعدم العود وأمثال ذلك (وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نَزْوَعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ) أي بصوت مرتفع (سَمِعَ نَدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ) أي بخفاء (عَلِمَ نَجْوَاكَ) فالأمر بالنسبة إليه سيان (فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ

بِحَاجَتِكَ، وَأَبْنَتْهُ ذَاتَ نَفْسِكَ) أي تخبره بكل ما تود مما هو في قلبك، ألامك.. آمنياتك.. آمالك.. حاجاتك.. رغباتك (وَشَكَوَتْ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفَتْهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعْنَتْهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ) وهل يستطيع أحد أن يزيد في عمرك سواء؟ (وَصَحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ) وهل هناك أحد من الخلق يتحكم في هذا الأمر؟ أم هل تحتاج لكي تدعوه أن تطلب الإذن بالدعاء وتنتظر قليلاً أو كثيراً؟ أبدأ.. ليس الأمر كما الحال مع الحكام مثلاً المحتجبين عن الشعب والذين تحتاج إلى موعد للقائهم والطلب منهم: (ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَدْنَى لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِهِ) الكرة في ملعبك.. المفاتيح بيدك.. القرار قرارك.. المهم أن تكون لك إرادة في الدعاء، وسيكون الأمر متاحاً في نفس اللحظة.. هل هناك شيء أروع من ذلك؟ (وَاسْتَمْطَرَتْ شَائِبَ رَحْمَتِهِ) فرحمته لا تنزل بالقطارة.. بل مثل المطر المنهمر. هكذا يكون عطاء الله.

ونحن في العشر الأواخر من شهر رمضان، وفي ترقب ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.. والتي يُفَرَّقُ فيها كلُّ أمر حكيم.. نسأل الله سُبحانه وتعالى التوفيق أن نكون ممن يُقْبِلُونَ على الدعاء كما يحب، وممن يُقْبِلُونَ على الدعاء بإخلاص، وممن يُقْبِلُونَ على الدعاء عن وعي وبصيرة وثقة بالله العظيم، وممن يُقْبِلُونَ على الدعاء بقلوب خاشعة، وبأيدي مرتفعة، وبعيون باكية.. ونسأله العفو والمغفرة والتوبة عمّا مضى منا، وأن يكتب لنا ولأهلنا ولأحبائنا وللمؤمنين والمؤمنات، الأحياء والأموات، عتقاً من النار، وجنة نعيم، ورضواناً من عنده أكبر، إنه سميع مجيب.

الخطبة الثانية

لماذا أدعو فلا يستجاب لي؟

تناولت الرسالة السابقة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام في جانب منها موضوع الدعاء وخصائصه. وبدأ الإمام عَلَيْهِ السَّلَام - بعد ذلك العرض - يعالج مشكلة فكرية ونفسية

لها علاقة بما سبق حيث قال: (فَلَا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ) تدعو فلا يُستجاب لك.. وتنتظر اليوم واليومين، ولربما السنة والسنتين، ولربما لأكثر من ذلك فلا تجد الإجابة.. فأين وعد الله حيث قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ؟ «البقرة: ١٨٦». وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ «غافر: ٦٠» ؟

إذا كان هذا التساؤل فيما مضى عفواً ولا يتعارض مع إيمان الإنسان، إلا أنه تحول اليوم إلى سلاح يستعمله الملحدون من أجل الطعن في إيمان الإنسان بوجود الخالق عزوجل، أو بقدرته، أو بمصداقيته !

وهذا يستدعي منا معالجة الموضوع، والإجابة عن الشبهة، وبأساليب وإجابات متنوعة، لنزيل بذلك أية عوالم في ذهن قد تؤثر على إيمان شبابنا وأبنائنا، أو تهزّ ثقتهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو توجههم إلى إهمال العبادة أو التراخي فيها، ومن صورها الدعاء.

• خلل مفاهيمي:

عموماً مرد الإشكال هو وجود خلل في فهمنا للعلاقة بين الدعاء وبين الاستجابة، وكأنها علاقة تلقائية وحتمية.. هذا سوء فهم للآية.

الإمام طرح عدة احتمالات لتأخر استجابة الدعاء أو عدم الاستجابة نهائياً، وهي كالتالي:

١- (فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ): يمكن أن نفهم هذا المقطع بعدة صور:

- بأن يطلب الإنسان دون توجه وخشوع وإقبال على الله، بل بقلب لاه.
- بأن يطلب وثقته بالله تَعَالَى منعدمة أو ضعيفة، فهو يشك في أن الله يسمعه، أو يدعو الله وأمله في إنسان.. أو غير ذلك من صور الخلل في الثقة بالله، أي سوء الظن بالله.

• ولربما يسأل الله السعة في المال مثلاً، ومن نيته أن ينفق هذه الأموال في الحرام، أو لتكون وسيلة لإيذاء أحد، وأمثال ذلك.. فهل يريد أن يستجيب الله دعاءه في مثل هذه الحالة؟

٢. (وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ). بأن يكرر الدعاء والتعبد والتخشع والاستغفار والتوبة أملاً في استجابة طلبه، فيزداد رصيده من الثواب، وتتناقص ذنوبه عن طريق ذلك، وإن كان المحرك في الأساس هو تحقق طلبه الدنيوي المادي.. وهذا من رحمة الله بعباده، وسعة كرمه.

والصبر في حد ذاته والتحمل واستمرار الثقة بالله سيكون سبباً لنيل المزيد من الثواب من عند الله، وللحصول على عطاءات الله المتميزة للصابرين في الآخرة.

٣. (وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً).

بعض الناس يدعون ويتوسلون ويخشعون وينذرون من أجل الحصول على شيء ما يتصورون أن فيه صلاح أمرهم.. الزواج من فلانة.. وظيفة في مكان معين.. ولد.. وغير ذلك..

وعندما لا يتحقق مرادهم يفضيبون.. يحزنون.. يتساءلون.. لماذا لم يستجب الله دعاءنا؟

يجيب الإمام: ليست المسألة عجزاً من الله.. أو إغلاقاً لباب الدعاء.. أو خلفاً للوعد الإلهي.. حاشاه.. بل أنت أخطأت - نتيجة جهلك بالمستقبل وبالحقائق - في تحديد طلبك.. هذا الخيار سيكون مضرّاً بالنسبة إليك، والله تعالى برحمته حجه عنك، وسيبدلك منه خيراً.

سيعطيك الله جَلَّالَهُ ما هو خير مما سألت، مما يعلمه هو عزوجل بعلمه المحيط بكل شيء أنه سيكون فيه صلاحك.. المطلوب منك أن تصبر، وتثق به، وستُسَرَّ بما نلت.

٤. (أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينُكَ لَوْ أُوتِيَتْهُ).

وأحياناً يكون الطلب بأكمله ليس في مصلحة الإنسان.. دنيوياً أو أخروياً أو كليهما، ولذا لا يستجيب الله لطلبه نهائياً، رافةً به وإشفاقاً عليه لجهله بحقيقة الأمور وعواقبها.

• وعد فأخلف:

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنُؤْتِيَنَّهُنَّ الْغَنَاءَ إِن كُنَّ عَلِيْمَاتٍ ۚ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾
«التوبة: ٧٥-٧٦».

طلَبَ المال وسعةَ الرزق، وعاهدَ الله أن يوظفَ المال في الاتجاه الصحيح، ولكن عندما استجيب دعاؤه نكثَ العهد.. والنتيجة: ﴿فَاعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ «التوبة: ٧٧». أعوذ بالله..
آية سوء عاقبة هذه؟ وهل تود أن تكون هكذا؟

• فكروا في آخرتكم:

ولذا أضاف الإمام عليه السلام منبهاً أن لا نجعل ما نهواه هو مورد دعائنا، بل ما حكمنا فيه عقولنا فوجدنا أن فيه صلاحنا فعلاً وفق حساباتنا والمعطيات الخارجية.. أننا لو حصلنا عليه زاننا ولم يكن مما يسيء إلى سمعتنا، أو يقلل من إيماننا، أو يجعلنا نخسر آخرتنا.

وكذلك أن لا نركّز في أدعيتنا على الأمور المادية الدنيوية.. بل أن تكون آخرتنا التي هي حياتنا الحقيقية الباقية هي أكبر همّنا في دعائنا.. فالماديات تفسى، ونحن سنغادر الدنيا في يوم ما. وماذا سنحمل معنا حين نغادرها؟ لا شيء من المال والماديات.. بل الإيمان والعمل الصالح.

قال: (فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ).

• عصر المعاجز قد انتهى:

وأود أن أضيف عاملاً آخر من عوامل الاستجابة.. فأحياناً يكون ما نطلبه في الكثير من أدعيتنا أمراً فيه خرق للقواعد والقوانين الطبيعية.. وبعبارة أخرى البعض يطلب تحقق المعجزة، بينما عصر المعجزات قد انتهى.

رسول الله ﷺ بكل عظمته يطلب المعاجز المادية أو ينقل لله طلبات المشركين للمعاجز فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

الأُولُونَ ﴿الإِسْرَاءُ: ٥٩﴾. ويقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «الأنعام: ٣٧».

• لا حاجة للدعاء!

مثال واحد، وعليه فقس: الشفاء من المرض. الدعاء وحده لا يكفي، بل عليك أن تحقق المقدمة، كأن تذهب إلى الطبيب المعالج.. هذه مسؤوليتك. قم بمسؤوليتك أولاً ثم ادعُ وانتظر النتيجة.

الملحدون يقولون: وما الحاجة للدعاء في هذه الحالة إذا كانت المسألة مرتبطة بمقدماتها المادية؟

نقول: الدعاء هنا لربما يوفقك للحصول على طبيب حذاق، أو التشخيص الصحيح من قبل الطبيب، أو العلاج المناسب في الصيدلية، أو غير ذلك من أسباب المعالجة.

كما أن المطلوب من الإنسان أن يكون دائم الارتباط بالله ويستمد القوة منه، وفي هذا بالإضافة إلى الأثر الدنيوي والأخروي، تأثير على صحته النفسية وقابليته للعلاج، وهذا أمر مثبت علمياً.

• فلنكن العباد المخلصين:

أيستحق الله تبارك وتعالى أن نواجهه معروفاً وكرماً وإحساناً وحباً لنا ورأفته بنا حين يؤخّر استجابة دعائنا، أو يستبدل طلبنا بما هو خير، أو يمنع استجابته لما فيه من ضرر سيلحق بنا دون علمنا، هل يستحق أن نواجهه بالنكران، والتمرد، والضجر، وانعدام الثقة، وسوء الظن به، والابتعاد عنه، والتملل من الدعاء، وترك العبادة، بل قد يصل بالبعض إلى الإلحاد به وإنكار وجوده؟ أهكذا يكون جزاء الإحسان من العبد الذي لا يستحق على الله تبارك وتعالى شيء؟

إن علينا - في كل حال - أن نبقي عبادة المخلصين الذين يشعرون بذل العبودية له.. الذين تمتليء قلوبهم بحسن الظن به.. الذين تقبل جوارحهم على العمل بطاعته.. الذين يجعلون الآخرة نصب أعينهم ومبلغ همهم، فإن هذه الدنيا إلى زوال.. وما عند الله باق.



الخطبة الأولى الباب لا يزال مفتوحاً

جاء في دعاء وداع شهر رمضان في الصحيفة السجادية: (أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ وَسَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ دَلِيلًا مِنْ وَحْيِكَ لئَلَّا يَضِلُّوا عَنْهُ فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾).

يؤكد الإمام عليه السلام في هذا المقطع على الإقبال على التوبة النصوح، التوبة الصادقة التي يصلح فيها الإنسان أخطاءه ويستقيم من خلالها في حياته، وأن الثمن الإلهي المقدم في مقابل هذه التوبة أن ينال الإنسان المغفرة والجنة والهداية والبصيرة.

وهل يملك الإنسان أي عذر يعتذر به لو أهمل التوبة وتغافل عنها، واستغرق في المعاصي، وسوف إلى أن يفاجئه الموت، ويتمنى عندها العود إلى الدنيا، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ «المؤمنون: ٩٩-١٠٠» ؟

كلا، لا أذار.. لأن الحجة قد قامت، قال عليه السلام: (فَمَا عُدْرٌ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ الْبَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ).

ثم ينبّه الإمام إلى عظيم العطاء الإلهي للتوايين، حيث أن عطاءه لا يتوقف عند حد مغفرة الذنوب وقبول التوبة فقط: (وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ) أي في الثمن والعطاء الذي تقدمه لعبادك مقابل توبتهم (عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَوْزَهُمْ بِالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ وَالزِّيَادَةَ مِنْكَ فَقُلْتَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَيْتَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ وَقُلْتَ: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةِ أَنْبَتِ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَقُلْتَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نِظَائِرِهِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الْحَسَنَاتِ). فهل يبقى مع كل هذه الدلائل والتوضيحات القرآنية أي مجال للإنسان ليهمل التوبة؟

ثم يؤكد الإمام زين العابدين عليه السلام أهمية الدعاء وخطورة إهماله، لا في شهر رمضان فحسب، بل في كل حين: (وَأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ، وَتَرَعَيْبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ، عَلَى مَا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تَدْرِكْهُ أَبْصَارُهُمْ، وَلَمْ تَعَهُ أَسْمَاعُهُمْ، وَلَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ، فَقُلْتَ: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ وَقُلْتَ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وَقُلْتَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فَسَمِيتُ دُعَاكَ عِبَادَةً، وَتَرَكْتُ اسْتِكْبَارًا، وَتَوَعَّدْتُ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ).

ومن هنا فإن مسؤولية الإنسان المؤمن تجاه باب الدعاء كمسؤوليته تجاه فتح باب التوبة، أمران، الأول منهما: الإقبال والاهتمام، وإلا فإنه سيكون مسؤولاً عما ضيّع ولن يتجرع في نهاية المطاف إلا الندم الشديد: (فَذَكِّرْكَ بِمَنْكَ وَشَكَرْكَ بِفَضْلِكَ، وَدَعَاكَ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلِبًا لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزَهُمْ بِرِضَاكَ).

أما الأمر الثاني فأن يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الهداية، وعلى عظيم النعمة. أليس هكذا يشكر الناس بعضهم البعض إذا أحسنوا إليهم؟ فالله أولى بذلك.

(وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقًا مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَادُكَ مِنْكَ كَانَ

مَوْصُوفًا بِالْإِحْسَانِ وَمَنْعُوتًا بِالْأَمْتِثَالِ وَمَحْمُودًا بِكُلِّ لِسَانٍ، فَلَكَ الْحَمْدُ مَا وَجَدَ فِي
حَمْدِكَ مَذْهَبٌ، وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ وَمَعْنَى يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ).

فلنتذكر ونحن نودع هذا الشهر العظيم أن إقبالنا على الله وعلى التوبة وعلى
الدعاء لا ينتهي بنهاية الشهر، بل نبقى دائماً في حالة من الارتباط الروحي
المتسامي معه جل وعلا، لننال منه الجزاء الأوفى إنه ذو من عظيم.

الخطبة الثانية

الهزيمة النفسية

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
الْبُاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ
نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ «البقرة: ٢١٤». توالى الآيات والصور الشريفة في العهد المكي في
تقديم جوانب من سيرة الأنبياء والرسول عَلَيْهِ السَّلَام والتحديات والصعوبات التي كانوا
يواجهونها خلال مهامهم الرسالية.

هذه الصعوبات والتحديات كانت تستوجب منهم تقديم التضحيات على
المستوى البدني والنفسي والمالي وغير ذلك.. وقد تستمر الفئة المؤمنة في صمودها
ومقاومتها، وقد تتعب فتتراخي، وقد تتراجع وتهزم، حتى تصل الحالة إلى
الصورة التالية:

قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا
عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ «المائدة: ٢١». وهذا كان بحاجة إلى تقديم
تضحيات وصبر، فهو ليس دخولا عاديا، بل مواجهة عسكرية مع طرف قوي وشرس،
فماذا كان موقفهم؟ موقف الغالبية: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ
نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ «المائدة: ٢٢».

ومن بين عشرات الآلاف الذين حُمِلُوا المسؤولية: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنتَكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ المائدة: ٢٣».

والجواب النهائي: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤-٢٥﴾ المائدة: ٢٤-٢٥».

والنتيجة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٦)». هذه هي العقوبة على موقفهم المتخاذل وعدم الاستعداد لتقديم التضحيات.

كان الأمر بحاجة إلى استبدال ذلك الجيل بجيل آخر مستعد للتضحية للوصول إلى الغاية. فإن الشيء الذي كانوا يطلبونه، وخرجوا من أجله، وكان بإمكانهم الحصول عليه بالتسديد الإلهي وبالثقة بالوعد الإلهي، أضاعوه من بين أيديهم، ولدة طويلة سيعانون فيها ما يعانون.

• رسائل تحذيرية:

هذه الصور التاريخية حملت رسائل تحذيرية للمسلمين لئلا يكرروا ذات الخطأ مع النبي ﷺ. وكأن الآية تقول لهم: أيها المسلمون.. لقد نجوتم من بطش المشركين بمكة وطغيانهم، كما نجى بنو إسرائيل من بطش وطغيان فرعون وملاه، إلا أن هذا ليس نهاية المطاف.. مسيرتكم الجهادية لم تنته.. مسيرة التضحيات لم تنته.. فلا تتراخوا، ولا تهنوا، ولا تستسلموا، ولا تخذلوا النبي.

طبيعة تلك التضحيات ستختلف في ما بعد الهجرة عن المرحلة المكية، ولكن الأمر سيان.. فلا تركنوا إلى الراحة والترف، وتوقعوا الخسائر بأنواعها، فأنتم مقدمون على تجربة صعبة جداً.

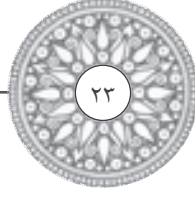
هذه التجربة ستتطلب الكثير من التضحيات والصبر والمقاومة، فإن لم تفعلوا فإن سنن الله في التاريخ لن ترحمكم، وستعيشون متاهات الضعف والحرمان إلى أن يأتي جيل آخر مستعد لتقديم التضحيات للوصول إلى الغاية: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨)».

ومن هنا، فإننا نجد أن جانباً مهماً من الحرب الدعائية والنفسية التي يمارسها العدو والمنافقون من خلال وسائل الإعلام الخيرية هي التركيز على الخسائر وتضخيمها، والتظاهر بالتباكي عليها، دون الإنجازات والانتصارات التي يحققها أصحاب الحق والمقاومون للباطل.

وهذه الحرب الدعائية التي تمارسها هذه الأطراف تهدف الى خنق روح المقاومة لدى الأمة، وهزيمتها نفسياً حتى قبل أن تبدأ المواجهة.

وللأسف فإن الأمة الإسلامية – في غالبيتها – وفي مواجهة بطش وطغيان الصهاينة الغاصبين وقعت أسيرة هذا الفخ المنصوب لها، وانهزمت نفسياً حتى صارت فكرة المقاومة وتحرير الأرض المحتلة عند الكثيرين مجرد أحلام ومن وحي الخيال. وحتى عندما نجحت بعض صور المقاومة وحقت المعادلة الصعبة على الأرض، بالدم.. بالتضحيات الجسيمة.. عمدت بعض الأطراف ساعيةً إلى وأد هذه التجربة الفريدة وخنقها! الحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع أن النتائج لا تتحقق من دون تضحيات.. بالنفس والمال والولد والراحة..

اقرأوا التاريخ وأخبرونا: متى وأين وجدتم تحقيقاً للنصر على الطغاة والجبارين.. متى وأين وجدتم تحريراً للأرض من أيدي المغتصبين.. دون تقديم التضحيات، ودون صبر على الآلام وتجرع للغصص، ودون أن تأتي الباساء والضراء وتزلزل النفوس والأرض من تحت الأقدام، ودون أن تضيق الآمال إلى المستوى الذي يتساءل فيه الناس: متى نصر الله؟ ألم تقدم الجزائر مليون نفس في طريق استقلالها من الاحتلال؟ ألم تقدم فرنسا في ثورتها الشهيرة مليوني نفس في سبيل الخلاص من الحكم المتسلط؟ ألم تضطر أوروبا وحلفاؤها إلى تقديم الملايين من أبنائها في سبيل مواجهة النازية خلال الحرب العالمية الثانية؟ ألم يقدم العراق مئات الآلاف من أبنائه ضحايا مقاومة الطاغوت البعثي؟ إن مقاومة الاحتلال ومواجهة الطواغيت أمر مقدس وفي صميم روح وثقافة كل الأمم عبر الأزمنة، مهما كانت الخسائر والتضحيات. إن يوم القدس العالمي هو يوم نذكر فيه العالم أن الخسائر ليست المعيار في تقييم نتائج مقاومة الاحتلال ومواجهة الطواغيت، وأن انعدام ثقافة المقاومة عند الأمم يعني أن تخسر الإنسانية إنسانيتها إلى الأبد، وأن تتحول الأرض إلى غابة لا يحكمها إلا المتوحشون.



الخطبة الأولى توثيق الديون

سعى الإسلام بطرق متعددة إلى الحد من الخصومات والمنازعات في المجتمع كخطوة من خطوات إحلال السلام والأمن المجتمعي. وواحدة من أسباب بروز الخصومات والمنازعات بين الناس الخلاف على الملكية المالية فيما بينهم نتيجة عدم توثيق المعاملات بأنواعها.

فبسبب موت صاحب العلاقة، أو فقدانه للذاكرة، أو نسيانه، أو للؤمه، أو لضغوط تمارس عليه أو لغير ذلك من الأسباب يتم إنكار استحقاق الآخر لهذا المال.. ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾ إلخ الآية الشريفة من سورة «البقرة: ٢٨٢»، والتي تعد أطول آية في القرآن الكريم، وهي تتحدث عن ضرورة التوثيق، وفيها تسعة عشر بنداً تفصيلياً حول كاتب التوثيق، والمضمون، والضمانات، وغير ذلك، حتى قال عز وجل: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾، والغاية: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي من أجل أن تتحقق العدالة ويأخذ كل حقه.

• بناء الثقة:

قد يقول قائل: مثل هذا التوثيق يُعَدُّ عدم الثقة.. ألا يريد الإسلام أن يبني الثقة بين الناس؟

والجواب أن الإسلام يدعو إلى حسن ظن المؤمن بأخيه المؤمن، ويريد للثقة المتبادلة أن تسود العلاقات فيما بينهم، ولكنه يريد - أيضاً - أن يتخذ إجراءات وقائية كي يضمن استمرارية وقوة هذه الثقة، وكى لا تتعرض لما قد يُسيء إليها بسبب بعض الأوضاع والتصرفات الطارئة. فالإيمان والتدين لا يعنيان العصمة التي يمتنع فيها الخطأ، وتبقى للإنسان نقاط ضعفه التي تستيقظ في داخله، فتضعف إرادته وتقوده إلى الانحراف، فيخون الأمانة وينكر الحق.

الضوابط المادية تمثل هنا عاملاً إضافياً للحماية من الانحراف، وتجنّب النزاعات، وإذا ما أهملها الإنسان المؤمن وتساهل فيها ثم وقع المحذور، فلا يلومنّ إلا نفسه، لأن الله سبحانه وتعالى قد بينّ وحذّر، كما أن العقل يُرشد إلى ذلك أيضاً.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (أربعة لا يستجاب لهم دعوة: الرجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالطلب؟! ورجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟! ورجل كان له مال فأفسده فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم أمرك بالاقتصاد؟! ألم أمرك بالاصلاح؟! ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾. ورجل كان له مال فأدانه بغير بينة، فيقال له: ألم أمرك بالشهادة؟).

وعنه عليه السلام أنه قال: (مَنْ ذَهَبَ حَقُّهُ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ لَمْ يُؤْجَرْ)، فعند المصائب والصبر عليها يؤجر الإنسان، إلا أن الإمام عليه السلام يبيّن هنا أن مثل هذه المصيبة لا أجر فيها، حيث كان الإنسان نفسه هو سبباً رئيساً في حلولها من خلال إهماله ومخالفته للتوجيه الإلهي.

وصدق ربنا العظيم إذ قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ «الإسراء: ٩»، فهو كتاب الحكمة كما أنه كتاب التشريع، وقد قال عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ «البقرة: ٢٦٩».

الخطبة الثانية

نقطة الصفر العلمانية

ذكرت في خطبة سابقة حول العلمانية، أن منظري العلمانية تحدثوا عن علمانيتين:

١. جزئية: وتعني فصل الدولة عن الدين.
 ٢. شاملة: وتعني فصل القيم والأخلاق والدين عن حياة الإنسان، واعتبار المادة الأساس في كل شيء.. وهي قد تقود بالتالي إلى الإلحاد، والقول بأن لا شيء في الوجود سوى هذا العالم المادي، كما وأنه لا شيء بعد هذا العالم المادي.
- أي أن المادة هي محور كل شيء.. هي المبدأ وهي المعاد.. هي المنطلق وهي الغاية.. وأما المنظومة الأخلاقية فتتلخص في أمرين: المنفعة واللذة.
- وأضافوا أن الدعوة إلى العلمانية اليوم هي دعوة للعلمانية الشاملة، لأن فصل الدولة عن الدين قد تحقق فعلياً في كثير من الحكومات في العالم. وما هذه الموجة من الإلحاد في العالم اليوم إلا حالة متناغمة وواحدة من إفرازات الدعوة والعمل على تعميم العلمنة الشاملة.
- ثلاثة أنشطة:

واعتبر دعاة العلمانية الشاملة أن دورة الإنسان في الحياة يجب أن تتلخص في ثلاثة أنشطة رئيسة لتخدم جانبيين فيه، وهما الجانب الاقتصادي الخاص به، والجانب الجسماني. والأنشطة هي:

١. الإنتاج.
٢. الاستهلاك... وكلاهما يختصران «الإنسان الاقتصادي» أو «البعد الاقتصادي في نشاط الإنسان».
٣. إشباع اللذة. «الإنسان الجسماني» أو «البعد الغرائزي في نشاط الإنسان».

ولابد أن تصل البشرية في لحظة من التاريخ إلى الاقتصار على هذه الدورة
فحسب.. دورة الإنسان المادة.. ويعبر عن هذه اللحظة بـ «نقطة الصفر العلمانية».

وهناك نماذج فعلية معاصرة تمثل بعضاً من هذه الصورة:

أ. اللحظة السنغافورية: اشتقاقاً من النموذج الاقتصادي السنغافوري،
حيث يُنظر إلى الإنسان كوحدة اقتصادية - فقط - أي وحدة مخصصة للإنتاج
والاستهلاك.

ب. اللحظة التايلندية: اشتقاقاً من النموذج التايلندي الذي ينظر إلى الفحشاء
والمخدرات كأهم مصدرين للدخل القومي. فالإنسان في هذا النموذج أداة للذة،
ولا مانع من إشباع لذته بما يشاء.

وإذ تتناقض مصالح الأفراد والجماعات، فإن الصراع حتمي.. فما هو
النموذج الأمثل للإنسان المادة في مثل هذه الصراعات؟ البقاء للأقوى والأصلح،
ونموذجه:

ج. اللحظة النازية / الصهيونية: وهما وإن تناقضا وتصارعا، إلا أن كلا منهما
يمثل نموذج الإنسان المادي. فالأقوى والأصلح هو الذي يستحق الحياة.

كانت النازية تتجه إلى التخلص من المعاقين وكبار السن والضعاف، وإلى
تسخير مَنْ لا ينحدرون من الجنس الآري لصالح الآريين، باعتبار أنهم أكثر تفوقاً
من غيرهم. وعندما نتحدث هنا عن التسخير، فإن هذا قد يصل إلى حد تحويل
دهن الإنسان إلى مادة لتصنيع الصابون، وعظامه إلى مادة لتصنيع السماد،
وجسده إلى بديل عن فئران التجارب!

• بين النازية والصهيونية:

والصهيونية تمثل تبلوراً آخر لهذا التصور للإنسان المادة، فقد نظرت
الصهيونية إلى فلسطين باعتبارها أرضاً بلا شعب، على الرغم من وجود الشعب
الفلسطيني عليها، إلا أنها اعتبرتهم مادة يمكن نقلها أو إبادة أو استغلالها، ولا
مكان لشيء اسمه رحمة أو قيمة أخلاقية أو تاريخ إنساني.

ومن نتائج هذا التصور:

١. كل هذه النماذج لا تعترف إلا بالمادة والإنسان بنظرها مجرد مادة ينتج ويستهلك ويشبع غريزته.

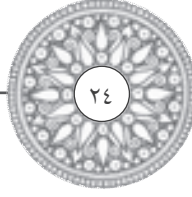
٢. وفق هذه الرؤية فإن التكسب عن طريق الفاحشة مجرد نشاط اقتصادي شأنه شأن أي مورد آخر للتكسب كبيع السجّاد أو تأجير العقارات وأمثال ذلك.

٣. الإنسان مادة استعمالية وطاقة محض، جسداً كان للفاحشة، أو عنصراً مسخراً للأقوى، أو حتى بتحويل غير النافع منه في صورته البشرية إلى مادة أخرى، كالصابون والسماد.

• الإنسان عنصر مادي:

إن الإنسان المركب من مادة، وروح، وأخلاق، وقيم، وقداسة حياة، وغاية أخروية، يتحول في منظور العلمانية الشاملة إلى عنصر مادي بسيط يدخل في عالم صراع الأقوى والأصلح، فإما أن يوظف الآخرين ويستغلهم وفق منافعهم، أو يتم توظيفه هو وفق منافعهم.

ومن هنا فإن الصهيونية – التي تمثل نموذجاً من نماذج النزعة المادية في النظرة إلى للإنسان – كانت ولا زالت تتحدث عن الأرض التي جاء الصهاينة لزراعتها وتحويلها إلى وحدة إنتاجية واستهلاكية، لا عن فلسطين التاريخ والشعب والحضارة، وعلى هذا الأساس فسّرت واستباححت الصهيونية لنفسها أن تقوم بنقل اليهود من الشتات إلى هذه «الأرض»، وإخراج أهل فلسطين أو إبادةهم أو حصرهم في نطاقات ضيقة.. فالإنسان – بحسبهم – ليس سوى وحدة مادية، والبقاء في هذه الحياة للأقوى والأصلح.. لا غير.



الخطبة الأولى

لكل نعمة زكاة

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الأبدان، والعفو زكاة الظفر. وما أدبت زكاته فهو مأمون السلب).

لكل نتيجة إيجابية وامتنياز يناله الإنسان - كفرد أو كمجموعة - ما يُصطَلَح عليه في هذا العصر بالضريبة.. كَوْنَتْ ثروة مثلاً.. إذاً هناك ضريبة تدفعها.. وهذه الضريبة تختلف باختلاف الحالات.

وقد استعمل الإمام الصادق عليه السلام للتعبير عن هذه الضريبة كلمة «زكاة»، وهي من حيث الدلالة أفضل من كلمة ضريبة، لأن الضريبة مشتقة من الضرب، وللضرب دلالة سلبية، بينما للزكاة دلالة إيجابية، حيث تتضمن معنى الطهارة والنمو معاً. أي أن ما يقدمه الإنسان صاحب الامتياز لا يقف عند حد العطاء، بل إن هذا العطاء سيتحوّل تلقائياً إلى نماء لصالحه، كما أنه طهارة وتزكية له في نفس الوقت. ومن هنا أيضاً قال الإمام عليه السلام في نهاية النص السابق: (وما أدبت زكاته فهو مأمون السلب) أي لا تخف النقصان ولا الحرمان عند العطاء، فإن الله ضامن لك بقاء ذلك الامتنياز.. وكأنها بوليصة تأمين مدى الحياة.

على سبيل المثال، فإن من يمتلك العلم ويزكيه بتعليمه، فإن هذا التعليم في حد ذاته سيكون سبباً لزيادة المعرفة من خلال الأسئلة التي يطرحها المتعلمون، ومن

خلال الآفاق التي يفتحها التعليم لتفريعات المعرفة وتفاصيلها المختلفة، ليتحول هذا التعليم إلى سبب لنماء العلم عند صاحبه، ولتزكيته من النقص والخطأ.

• الشيطان والزكاة:

نعم من أساليب الشيطان أن يخوّف من العطاء، وأن يمنع الإنسان من أن يزكي عناصر النعم والقوة لديه، من مال أو جاه أو علم أو غير ذلك، وأما الوعد الإلهي فعلى خلاف ذلك تماماً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ حين يفكر الإنسان بالعطاء ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ حيث يشجع على الإنفاق في المحرمات ويجعله هيئاً في نظر الإنسان ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ «البقرة: ٢٦٨».

• نماذج للزكاة:

وقد قدّم الإمام عليّ السلام نماذج مختلفة من زكاة عناصر الامتياز لدى الإنسان. أغناك الله بالمال؟ إذا اصنع المعروف بمساعدة المحتاجين. أنعم الله عليك بالعلم؟ إذا اصنع المعروف بتعليم الجاهل. أنعم الله عليك بالحكمة؟ إذا اصنع المعروف بتوجيه الناس إلى ما يصلح حالهم. وهكذا، فإنّ على من يمتلك الجاه أن يزكي جاهه بالتوسط لإنقاذ المظلومين واسترداد حقوق الناس وأمثال ذلك.. كما أن للصحة والعافية زكاة، بأن يصبر الإنسان ما إذا مرض.

وأخيراً فقد ذكر الإمام عليّ السلام أن زكاة الظفر والغلبة هي العفو.. كما عفى النبي الأكرم ﷺ عن مشركي قريش يوم الفتح وقال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

ولابد أن أضيف هنا إلى أن ضريبة الانتصار - عند تتبع الآيات القرآنية - لا تقتصر على العفو فقط، بل تتعدى ذلك إلى عدة نقاط سأتناولها في الخطبة التالية بإذن الله عزّ وجلّ.

الخطبة الثانية

الموصل، وزكاة الانتصار

ذكرت في الخطبة الأولى أن لكل نتيجة إيجابية يحققها الإنسان ضريبة وفق التعبير الدارج، أو بتعبير الإمام الصادق عليه السلام زكاة، وهو تعبير أفضل لما يتضمنه من معنى النماء والطهارة. وذكرت أيضاً أننا عندما نستقريء القرآن الكريم فإننا سنصل إلى نتيجة مفادها أن زكاة الانتصار لا تتوقف عند حد العفو عند المقدرة، بل تتعدى ذلك إلى عدة أمور من أهمها:

١. عدم الاسترخاء: والاستغراق في الأجواء الاحتفالية، والركون إلى النتيجة التي تحققت في الميدان. فبعد تحقيق المسلمين للانتصار في معركة بدر الكبرى بدأ المشركون بإعداد العدة لمعركة جديدة وبإمكانات أكبر.. كما واشتد عدااء اليهود وزادت مؤامراتهم لتخوفهم من النمو المطرد للمسلمين مما قد يُنهي آمالهم في القضاء على الإسلام في قادم الأيام.. هذه ضريبة الانتصار!

ولذا، فإن سورة الأنفال التي تحدثت عما جرى في معركة بدر وظروفها، أمرت النبي ﷺ والمسلمين بالتالي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ «الأنفال: ٦». أي لا مجال للاسترخاء، فإن تحقيق النصر في معركة لا يعني بلوغ نهاية طريق الصراع مع الباطل وأهله، بل لربما يكون مدخلاً لمزيد من التحديات الأصعب والأشد.

٢. تجنب الغرور: كما وحذر القرآن الكريم من الغرّة بالنصر، مقدّماً نموذج ما جرى يوم حنين، فلولا العناية الإلهية التي تدخلت لكانت النتيجة مأساوية. فالمسلمون بعد فتح مكة والانتصارات التي سبقت هذا النصر العظيم في الأحزاب وخيبر، اغتروا بالعامل المادي الذي تمثل في الكثرة العددية، ونسوا القانون الإلهي

الذي حقق لهم النصر من قبل على الرغم من قلة عددهم حينذاك: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ أي أصحاب البصيرة والوعي ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ «البقرة: ٢٤٩».

ولذا فإنهم فشلوا في أول اختبار لهم بعد فتح مكة بثلاثة أسابيع تقريباً حين تواجهوا مع هوازن وغطفان في حنين، قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ «التوبة: ٢٥».

٣. الحذر من الظلم: فالمنتصر قد يشعر بنشوة الانتصار، فتطفئ لديه مشاعر العداء تجاه الآخرين، خصوصاً كانوا له أم لم يكونوا، مما قد يفقده الاتزان في القرارات والمواقف، ويرتكب ما لا يرضي الله سُبحانه وتعالى من صور الظلم والظغيان.

ولذا فإننا نجد أن الله عَزَّجَلَّ ينبه المسلمين وهم في أوج قوتهم وانتصاراتهم إلى ضرورة التحلي بالتقوى في التعامل مع المشركين الذين لم يعادوهم، وأن لا يجعلوهم في خانة واحدة مع المعادين. فقال عَزَّجَلَّ بعد البراءة من المعاهدات المبرمة مع المشركين الذين لم يوفوا بمضامين بنودها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ «التوبة: ٤».

وهذا ما نبه عليه الإمام علي عَليهما السلام في كتابه إلى مالك الأشر حين ولاه مصر فكان فيما قال له: (وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عَقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطِّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً) أي درعاً ووقاية (دُونَ مَا أُعْطِيتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتِيتِ أَرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ) أي من خلال ما تبين لهم من العواقب الوخيمة (فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بَعْدَكَ، وَلَا تَخْتَلِنَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِيءُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ).

٤. تذكر الله ونعمه: قال عَزَّجَلَّ مبيناً وظيفة الإنسان المؤمن تجاه الانتصار في

المواجهة مع الباطل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ما هي الوظيفة حينئذ؟ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾
«سورة النصر».

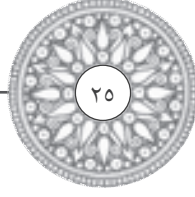
• انتصار تحرير الموصل:

إننا في الوقت الذي نهنيء فيه الجار العراقي لتحقيقه الانتصار الكبير بتحرير مدينة الموصل وتوجيه الضربة القاصمة للمسّخ ولويد التزاوج بين المدرستين التكفيرية والبعثية، هذا الانتصار الذي لا تتوقف آثاره عند الحدود السياسية والجغرافية للعراق، بل يتعدى ذلك ليشمل كل موقع عانى وما زال يعاني من آثار ما اقترفته الأيدي الإجرامية للإرهابيين التكفيريين.. فإننا نوجه إلى حكومة العراق وشعب العراق وقواته المسلحة رسالة محبة ونصح بأن يدرسوا مفهوم الانتصار وزكاته كما عرضه القرآن الكريم، وأن يدرسوا إيجابيات هذه التجربة وسلبياتها، فيعملوا على تنمية نقاط القوة، ومعالجة نقاط الضعف.

ورسالة أخرى نوجهها إلى الدول التي باركت هذا الانتصار أو أبدت ارتياحاً لتحقيقه، بأن مسؤوليتها لا تقف عند هذا الحد، بل يجب عليها أن تهض من أجل القضاء على بؤر الفكر التكفيري ومنايع قوته، لتساهم بجدية في إنهاء هذا المشهد الدّموي البشع الذي تشن منه البشرية اليوم بفعل سياسات وتصورات غبية أحياناً، وبفعل غايات خبيثة أحياناً أخرى، وتمثّلت في دعم المنهج التكفيري الإجرامي، حيث حسبت أنها ستكون في منأى عن تأثيراتها السلبية، فإذا بها تكتوي بنيرانها.

• العدوان الصهيوني على القدس:

وأخيراً لا بد من التنديد بما اقترفه الصهاينة بحق المسجد الأقصى والمصلين والمتظاهرين مؤخراً، والدعاء بالنصر لكل العاملين على مواجهة هذه الغطرسة الصهيونية، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّا نَفْسُهُمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ «آل عمران: ١٧٨».



الخطبة الأولى

القضاء وطلب الحق

تشير بعض الآيات القرآنية إلى أن الله ﷻ عندما كان يريد أن ينبّه الأنبياء إلى ما له علاقة بتكاملهم، فإنه كان يُدخلهم أحياناً في بعض التجارب العملية التي يكتشفون من خلالها تلك الأمور بكل وضوح.

فالمعرفة التي تنتج عن طريق التجربة الشخصية تكون أكثر وضوحاً وأعمق تأثيراً من تلك التي تنتج عن طريق المطالعة أو الدراسة أو ما شابه. ومن هنا نجد أن الله عندما أراد أن ينبّه النبي موسى ﷺ إلى أنه بحاجة إلى ضبط انفعالاته النفسية، أدخله في تجربة الرحلة مع العبد الصالح والتي جاءت بعض تفاصيلها في سورة الكهف.

وهكذا، عندما أراد الله ﷻ أن ينبّه داود ﷺ إلى حساسية القضاء - وقد كان بالإضافة إلى النبوة ملكاً وحاكماً يتقاضى لديه الناس فيحكم بينهم - وضرورة التحلي بالحيادية التامة، وإقصاء أية مشاعر، أو خلفيات، أو ضغوطات، يمكنها أن تؤثر على الحكم، فإنه أدخله في تجربة عملية حكمتها سورة (ص).

قال ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ «٢١-٢٣».

تأثر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإرباك النفسي الناتج من دخولهما المفاجيء، ولصورة الإنسان المظلوم التي قَدَّمها صاحب الشكوى، وأخذته الغيرة على الطرف المستضعف بحسب الظاهر، فاستعجل في إبداء رأيه من خلال ما سمعه من طرف واحد، قبل أن يعطي الفرصة للمشتكى عليه كي يُبدي رأيه، ففعل في البين كذباً، أو تدليساً، أو إسقاطاً لبعض التفاصيل المؤثرة في الحكم وأمثال ذلك.

ولذا، فإن من آداب القضاء في الفقه أن لا يقضي وهو غضبان، ومع كل وصف يساوي الغضب مما يُشغل النفس، كالجوع والعطش والغم والفرح ومدافعة الأخبثين وغلبة النعاس.

وهناك رواية أخرى وهي من الإسرائيليات وتتلخص في أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أعجب بزوجة قائد عسكري وقد رآها وهي تستحم، فأرسله إلى الخط الأمامي من القتال كي يموت ويتزوج امرأته، فكانت الشكوى كما في الآية القرآنية رمزية تشير إلى فعلته، ليحكم على نفسه.

هذه الرواية مرفوضة، فهي لا تتناسب وشأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد روى أبو الصلت الهروي عن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: (إن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ عَجَلَ على المدعى عليه، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾ ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يُقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول. فكان هذا خطيئة رسم الحكم، لا ما ذهبتم إليه) أي من القول بقصة القائد وزوجته.

• النبي داود يكتشف الخلل:

نعود إلى الآيات التي تحكي ما جرى لاحقاً: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «٢٤».

وفجأة انتبه داود إلى أنه قد استعجل، ولعل الله نبهه: ﴿وَضَلَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ «٢٥-٢٤». ثم جاء التوجيه الإلهي: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ «٢٦».

• آداب وإجراءات وقائية:

لقد اتفقت البشرية طوال التاريخ على خطورة مسؤولية القضاء، وأهمية أن تُنَاطَ بمن يملكون الأهلية لها، وأن تحاط ببعض الإجراءات الوقائية ومجموعة من الآداب التي تحفظ لها الحياد وتتحقق من خلالها العدالة.. وللحديث تنمة في الخطبة الثانية بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الخطبة الثانية

نزاهة القضاء

لأمير المؤمنين علي عليه السلام توجيهات مُحْكَمَة في باب القضاء سجّلها في كتابه الذي قدّمه إلى مالك الأشر حين ولاه مصر، قال: (ثُمَّ اخْتَرْتُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ) ويبدأ الإمام عليه السلام بسرد معايير هذه الأفضلية:

١. السيطرة على الانفعالات والمشاعر: (مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تَمَحْكُهُ الْخُصُومُ).

٢. الحق والعدالة غايته: ولذا فهو لا يكابر عند الخطأ (وَلَا يَتِمَادِي فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصِرُ مِنَ الْفِيءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ).

٣. القناعة وعفة اليد: (وَلَا تَشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ).

٤. عدم الاستعجال في إصدار الأحكام: بل يحاول أن يستقصي الأمور ويتفهمها ويبحث عن أدلتها المحكمة، قال عليه السلام: (وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ) ومن هنا فهو (أَوْقَفُهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقْلَهُهُمْ تَبَرُّماً بِمِرَاجَعَةِ الْخُصْمِ) أي لا يمل من التحقق والتأكد (وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ) أمضاهم في القرار (عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ) لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يجعل للوساطات، والمحسوبيات، والانتماءات، والظروف السياسية مجالاً للتأثير على الحكم.

هـ. الفطنة والوعي: للأساليب الخادعة ومحاولات التأثير على الحكم، ولذا فهو (مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ).

وختم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: (أُولَئِكَ قَلِيلٌ).

ثم قدّم سرداً لمجموعة من الإجراءات المهمة لإعانة القضاة على أداء مهامهم بكل حيادية، ومراقبة أدائهم توخياً للعدالة، وهي كالتالي:

١. (ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ) بالمراقبة وتقييم الأداء، فالقاضي - في الإسلام - ليس بفوق أن يُراقَبَ وَيُحَاسَبَ وَيُثَابَ أَوْ يُعَاقَبَ. ومن هنا نجد أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ بادر إلى استدعاء قاضي الكوفة شريح بن الحارث الكندي حين علم أنه قد اشترى بيتاً جديداً وحذره من أن يكون قد اشتراه من رشوة أو ما شابه، وكتب له كتاباً يتضمن عبارات التزهيد في الدنيا والأمر بالتقوى والتحذير من عقاب الله. وقد تحدثت قبل سنة ونصف تقريباً مؤيداً إقرار مقترح إنشاء مجلس مخاصمة القضاء.

٢. (وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقَلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ) كي يعيش غنى النفس ولا يقبل على الرشى، فَإِنَّ أَقْبَلَ عَلَيْهَا فسيكون ذلك من خسة نفسه وعدم استحقاقه لهذا المقام.

٣. (وَأَعْطَهُ مِنَ الْمُنْزَلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ) فمن المهم أن تكون الثقة قائمة بين الحاكم العادل وبين القاضي، وأن تكون العلاقة قوية لا تزعزعها الشكوك والظنون، كضمانة إضافية على الشفافية وقبول النصيحة.

ثم أكد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ على أهمية الأمر وضرورة عدم التهاون فيه إذ قال: (فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتَطْلُبُ بِهِ الدُّنْيَا).

وجاء هذا تحذيراً منه عَلَيْهِ السَّلَامُ من التراخي في تنفيذ توصياته وتعليماته في هذا المجال، وإلا فإن الفساد سيجد لنفسه طريقاً من جديد ليتغلغل في جسد القضاء، ولربما استغل الدين لتبرير الحيف في الأحكام، وتحوّل إلى وسيلة للاستنزاق، والتكسب، وطلب الدنيا، وتلبية أهواء النفس، بدلاً من أن يكون وسيلةً للتقوى، وتحقيق العدالة، واستتباب الأمن.

• رجل الحق والعدالة:

وتأتي حساسية هذه الوصايا والتعليمات وأهميتها من حيث أنها صدرت عن رجل الحق والعدالة، الذي قبل أن يقف - وهو خليفة المسلمين - موقف المشتكى عليه أمام قاضي الكوفة، وخصمه يهودي! حتى إذا خاطبه القاضي بالكنية احتراماً، نبّهه الإمام إلى ما في هذا التصرف من محاباة تُلجّل بالعدالة التي ينشدّها!

وفي الإسلام نصوص كثيرة تتحدث عن مقوّمات القضاء، وشروطه، وآدابه، وصفات القاضي، وطريقة التحاكم، وأسلوب إصدار الأحكام، بالإضافة إلى العواقب الوخيمة للظلم في الأحكام.

• مصير القاضي الظالم:

ومن بين تلك النصوص ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (مَنْ حَكَمَ فِي دَرَاهِمِينَ) أي في حدود دينار كويتي واحد، ومن الواضح أنه مبلغ بسيط وتافه ولكن الخطورة هنا أنه (بغير ما أنزل الله عزّ وجلّ ممن له سوط أو عصا) أي وكان يمتلك قوة الإجبار على التنفيذ (فهو كافر بما أنزل الله عزّ وجلّ على محمد ﷺ) في إشارة إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

• شرف القضاء أساس الملك:

إنّ العدل في القضاء أحد أركان العدل في المجتمع، ومن أهم أسباب تحقيق الأمن والشعور بالطمأنينة وقوة الانتماء والنهوض بالتنمية.

وقد أحسن أبائنا الذين أعدوا الدستور الكويتي حين أقرّوا المادة الثانية والستين بعد المائة والتي تنص على أن: (شرف القضاء ونزاهة القضاة وعدلهم أساس الملك وضمان للحقوق والحريات)، فإن أصاب الخلل جسد القضاء، كان ذلك بمثابة خرق في جسد سفينة تمخر عباب بحر ﴿لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾.



الخطبة الأولى ثغرة في الجدار

في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق بسند معتبر عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، وقد ذكره الشيخ الطوسي في أصحاب الكاظم عليه السلام قائلاً: «ثقة، جليل القدر. لقي الرضا عليه السلام، وكان عظيم المنزلة عنده، وروى عنه كتاباً» قال: (بعث الرضا عليه السلام إليّ بحمار فركبته وأتيته وأقمت عنده بالليل إلى أن مضى منه ما شاء الله) ويبدو أنه زار الإمام وهو في بستان له خارج المدينة (فلما أراد أن ينهض قال: لا أراك أن تقدر على الرجوع إلى المدينة) فالوقت قد تأخر وقد يكون الوضع غير آمن للتنقل (قلت: أجل جعلت فداك. قال: فبت عندنا الليلة واغد) أي واخرج صباحاً (على بركة الله عز وجل). قلت: أفعل جعلت فداك. فقال: يا جارية، افرشي له فراشي، واطرحي عليه ملحفتي التي أنام فيها، وضعي تحت رأسه مخادتي. قال: قلت في نفسي: من أصاب ما أصبت في ليلتي هذه! لقد جعل الله لي من المنزلة عنده وأعطاني من الفخر ما لم يعطه أحداً من أصحابنا: بعث إليّ بحماره فركبته، وفرش لي فراشه، وبت في ملحفتي، ووضعت لي مخادته. ما أصاب مثل هذا أحد من أصحابنا. قال: وهو قاعد معي وأنا أحدث في نفسي) ويبدو أن الإمام لاحظ على وجه البزنطي علامات العجب الذي دخل في نفسه فخاف أن يكون هذا سبباً لإفساد أخلاقه ونفسيته (فقال عليه السلام: يا أحمد، إن أمير المؤمنين أتى زيد بن صوحان في مرضه يعوده) ولعل الصحيح أنه عاد أخاه صعصعة بن صوحان كما في أكثر من رواية ولعل الراوي أو الناسخ أخطأ في الاسم. وفي تلك

الزيارة موعظة، علماً بأن الإخوة زيداً وصعصعة وسيحان كلهم من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام وسأتحدث عنهم وعن عيادة الإمام له في مناسبة قادمة بإذن الله. نعود إلى خبر البنظي حيث قال له الإمام عليه السلام بعد ذلك: (فافتخر على الناس بذلك. فلا تذهبن نفسك إلى الفخر، وتذلل لله عز وجل. واعتمد على يده فقام عليه السلام).

النفس البشرية حساسة جداً، وبعض الأمور التي قد تبدو بسيطة في الوهلة الأولى نجدها تؤثر بشكل كبير على النفس وتخرجها عن حالة التوازن. هذا التأثير قد لا يظهر بسرعة، ولكنه يفتح ثغرة في جدار التقوى والأخلاق، ليفتح المجال كي تتوسع شيئاً فشيئاً، ويظهر أثرها التدميري في جهة محددة، أو في عدة جهات.

ولذا وردت عدة روايات مثلاً أن النبي ﷺ لما سمع من يمدح شخصاً آخر في وجهه قال: (أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل) مع أنه موقف واحد، ولكن هذا الموقف الواحد قد يكون الثغرة التي تفتح أبواب جهنم! ولذا قال ﷺ: (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب).

ومما ينبغي الحذر منه أن مثل هذا المديح قد يلجأ إليه البعض من أجل فتح ثغرة للعبور إلى عقلك من أجل التأثير عليك، وإقناعك بأمر قد يكون باطلاً أو لتغيير مواقفك، تماماً كما حاول قوم شعيب عليه السلام أن يؤثروا عليه من هذه الناحية: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ «هود: ٨٧».

وجود هذه السمة في النفس البشرية تستدعي من الإنسان أن يكون حذراً حساساً حين يتعامل مع المؤثرات المختلفة، ولا يقول هذه بسيطة، وهذه مرة وتنفوت، فربما كان هذا الأمر البسيط أو كانت هذه المرة الأولى هي بداية التدمير لأخلاق الإنسان أو تقواه أو ورعه أو عفته.

الخطبة الثانية

المشهد المقدسي

خلال الأسابيع القليلة الماضية، طغى المشهد المتأزم في القدس - والمسجد الأقصى على وجه الخصوص - على كثير من الأخبار السياسية والأمنية المتعلقة بالمنطقة.

رأينا في هذا المشهد كيف استطاع أبناء فلسطين الغياري على مقدساتهم أن يُجبروا الكيان الصهيوني على التراجع عن خطواته الأمنية وقراراته التعسفية بحق المسجد الأقصى.

بالطبع فإن هذا لم يتحقق بلا ثمن، فخلال المواجهات العديدة مع قوات الاحتلال، سقط اثنا عشر شهيداً، وفق تقرير حقوقي صادر عن مؤسسة «ضمير الفلسطينيين»، واعتُقل نحو ٤٠٠ فلسطيني خلال حملات دهم واسعة شنتها قوات الاحتلال، كما بلغت التشديدات الأمنية الإسرائيلية ذروتها، ووصلت إلى حدّ إعلان حالة الطوارئ، وفرض عقوبات جماعية على المقدسيين.

وبالمناسبة، فقد جاءت هذه الخطوة الصهيونية في ذكرى مرور نصف قرن بعد أول إغلاق إسرائيلي للأقصى عام ١٩٧٦، ومن المحتمل أنها أرادت أن تختبر الإرادة الفلسطينية من جهة، والإرادة العربية والإسلامية - من جهة أخرى - تجاه خطواتها التصعيدية بحق المسجد الأقصى.

• أوضاعنا مأساوية:

فماذا وجدت؟ أما إقليمياً، فالكل مشغول بنفسه ومشاكله وبالصراعات البينية:

- حروب مدمرة في سوريا وليبيا واليمن.

• صراع بين الأشقاء في الخليج.

• تجاذبات طائفية وقومية في العراق المنهك أصلاً من الحرب ضد الإرهاب.

• خلية العبدلي من جديد:

وعلى المستوى المحلي عندنا في الكويت، كنا نتطلع بعد صدور الحكم النهائي في قضية ما يعرف باسم «خلية العبدلي» أن يُغلق الملف، وأن يُترك للأجهزة الأمنية تنفيذ الحكم في الإطار الدستوري والقانوني.

وإذا بالبعض يحوّل القضية إلى مفردة من مفردات الصراع الطائفي بكل مفرداته المقززة، وإفرازاته المنتنة، لننشغل بأنفسنا من جديد فيما يوهن الحالة الوطنية، ونتشغل عن قضايا الأمة.

وعجباً كيف تناسوا أن الكويت أخذت على عاتقها الإصلاح بين الأشقاء في مجلس التعاون الخليجي، وتم السماح للأصوات النشاز أن تعلو لتخلق عداوات بين أبناء الوطن الواحد.

إن الذكرى الأليمة للثاني من أغسطس تؤكد أن خيارنا في الكويت هي الوحدة الوطنية لا غير، وتغليب مصلحة الوطن على الأجندات الحزبية والقبلية والتكسبات الانتخابية، وأن اعتداء أي بلد على آخر لن يجر إلا الويلات، والرابع الوحيد هو العدو الحقيقي المتمثل في الكيان الصهيوني الذي نسيناه وتشاغلنا عنه.

• بين اليوم والأمس:

أما من يرقب أوضاع الأمة من بعيد، فسيكتشف أن حالها اليوم أشبه ما يكون بحالها قبل الإسلام والذي وصفته الزهراء عليها السلام بقولها: (كُنْتُ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ، مُذَقَّةَ الشَّارِبِ وَنَهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجَلَانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ... أَذِلَّةٌ خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ). (1)

الكل يدرك ويتحدث عن أن ما تمر به الأمة الإسلامية والعربية اليوم يمثل مخططاً لتفكيكها، وإضعافها، وتدمير مقدراتها، بما يخدم مصالح الكيان الصهيوني. ومع هذا فإن الجميع استسلموا لهذا المنزلق الخطير دون مراعاة لما هو المهم وما هو الأهم، وما وراء الفتن، وما هي غاياتها.

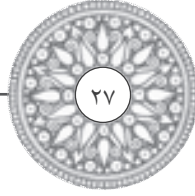
وبالإضافة إلى كل هذا، هناك بعض الجهات التي تعمل على أن تؤسنا من القضية الفلسطينية، وأن تُظهرها وكأنها عقبة أمام الخير الذي ينتظر المنطقة، فمتى ما تخلينا عنها وطوبنا صفحتها حل السلام، وعاش الجميع في أمن ورخاء.

وهناك مَنْ يعمل على تقديم القضية الفلسطينية على أنها قضية عفا عليها الزمن، حتى أننا بتنا نشاهد كثيراً من أبناء الجيل الحالي غير مدرّكين لحقيقة هذه القضية وأهميتها، بل هي لا تشكل بالنسبة إليهم أية أهمية تُذكر.

• جرائم ومسؤوليات:

ومن خلال هذا وذاك، أصبحت جرائم الاحتلال الإسرائيلي في ذيل قائمة اهتمامات الأمة، وهذا ما يدفع الصهاينة من حين إلى آخر إلى إطلاق بالون اختبار، ليقسوا من خلاله إمكانية الانقراض الأخير الذي سيحقق أحلامهم. إنَّ مساعي حُرّف البوصلة عن الكيان الصهيوني باعتباره العدو الأول للأمة الإسلامية والعربية، وإشغالنا بصورة مستمرة بقضايا طائفية وعرقية، لا يخدم سوى الصهاينة الذين يتفرغون لارتكاب حماقاتهم، ويستفردون بالفلسطينيين لتحقيق أحلامهم المشؤومة بهدم المسجد الأقصى، وبناء هيكلهم، وتهويد القدس، والقضاء على كل ما هو إسلامي ومسيحي فيه، ثم في كل فلسطين.

إنَّ مسؤوليتنا في هذا المقطع الزمني الحرج من تاريخ أمتنا تقتضي أن نتخلى عن عصبياتنا وتحزباتنا وعن التشاغل بتصفية الحسابات فيما بيننا، وأن نركز جهودنا لمقاومة عدوِّنا الحقيقي الذي نسيناه، وأدرنا له ظهورنا، فإذا به يأمن جانبنا ليعبث كيف شاء.



الخطبة الأولى محكمات أم متشابهات؟

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ «آل عمران: ٧».

ما هي الآيات المتشابهات؟ وما عددها؟ ولماذا هناك آيات متشابهات؟
هناك اختلاف في تحديد ماهية المتشابهات، ويبدو أنها أكثر من نموذج،
وسأعرض لبعضها.

وهناك مبالغة في عدد الآيات المتشابهة، حتى قال بعضهم أن كل القرآن من
المتشابه مع أن الآية بذاتها تؤكد وجود المحكم. وقال آخرون أن أكثر القرآن من
المتشابه وهذا أيضاً غير صحيح.

والحقيقة أن أكثر آيات القرآن محكمة، وإلا لما كان كتاب هداية، ولكن يبقى
السؤال مطروحاً: لماذا هناك متشابهات في القرآن؟ لماذا ليس كل القرآن من
الآيات المحكمات؟

الإجابة على هذا التساؤل تستدعي في البداية أن نسلط الضوء على بعض ما
يمكن أن يكون من الآيات المتشابهات.

• من أدوات التكفيريين:

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «التوبة: ٥».

الآية لغوياً واضحة المعنى - فهي كلام عربي متشكل من مفردات وقواعد تنظم بها في تركيبية ذات دلالة - فهي من المحكمات من هذه الجهة، ولكنها قد تصير من التشابهات بلحاظ أنها تتضمن حكماً، وهو الأمر بقتل المشركين واعتقالهم ومحاصرتهم و...و...

فلو أخذنا به من دون قيد فستكون النتيجة أن تكليفنا قتل كل مشرك إن لم يُسلم.. يعني الآن لورأينا هندوسياً في الخارج فيجب عليه أن يُسلم أو نقتله.. هل الأمر فعلاً هكذا؟

نعم، إن لم نراع القيود الموجودة في آيات أخرى من قبيل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ «المتحنة: ٨».

الآية الأولى في حد ذاتها ليست من التشابهات، ولكنها كذلك بالنسبة إلى غير الراسخين في العلم.. ومثل هذه الآيات كانت أدوات الخوارج في جرائمهم، بما في ذلك قتل أمير المؤمنين عليه السلام.

وهي أدوات التكفيريين اليوم أيضاً.. فهم يستشهدون بآيات قرآنية يجعلونها بمثابة مرجعيتهم في الأحكام التي يصدرونها، والجرائم التي يرتكبونها، متجاهلين آيات أخرى تخصص أو تقيد الحكم.

ولذا أخبرنا الله بأن مثل هذه الآيات تناسب النموذج الباحث عن الفتنة، أو بتعبير آخر الذين يصطادون في الماء العكر، لأنهم سيفشلون في تبرير أفعالهم الشنيعة إذا كانت الرؤية واضحة.

• أمر طبيعي:

وجود مثل هذا المتشابه في القرآن وفي أي نص دستوري أو قانوني أمر طبيعي

تفرضه طبيعة اللغة وكثرة التفرعات والاحتمالات، ولذا نجد للدساتير مثلاً ملاحق ومواد فرعية ونصوصاً تفسيرية.

وهناك نماذج أخرى لما يمكن أن يصير من المتشابهات من آيات القرآن الكريم، وسأستعرض اثنتين منها في الخطبة الثانية بإذن الله سبحانه وتعالى.

الخطبة الثانية

الذين في قلوبهم زيغ

ذكرت في الخطبة الأولى نموذجاً من الآيات التي يمكن أن تتحول إلى متشابهات ويلجأ إليها الذين في قلوبهم زيغ والذين يريدون الفتنة لشرعنة جرائمهم وأعمالهم المنافية للعقل والفطرة السليمة.

ومن النماذج أيضاً التلاعب في أسباب نزول الآية، وفي تحديد الشخصيات المقصودة بها، وتوظيف ذلك كله لغايات شخصية أو حزبية أو طائفية أو غير ذلك. فعندما نتحدث آية عن شخص، ولسنا قادرين على تعيينه، فإنها تصبح متشابهة من هذه الناحية، ويأتي أصحاب الغايات الخاصة فيوظفونها في مصلحتهم.. ولربما كانت الآية بصدد الحديث عن نموذج من الأشخاص، لا عن شخص في الخارج على وجه التحديد.

• توظيف سياسي:

في صحيح البخاري برقم ٤٥٥٠ عن يوسف بن ماهك قال: (كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُباع له بعد أبيه. فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً) وعبد الرحمن هذا هو الصحابي عبد الرحمن ابن الخليفة أبي بكر، وقد أسلم قبل فتح مكة وهاجر

إلى المدينة (فقال: خذوه) أي أمر باعتقاله، أي أنه قال أمراً ساء الوالي وغضب منه بشدة، وإن كانت الرواية هنا لم تذكر لنا ماهية الشيء فقد ذكرته روايات أخرى كثيرة سأتناول نموذجاً منها بعد قليل (فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا. فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُهُ أَفْ لَكُمْ مَا أَتَعَدَّانِي﴾) والآية ١٧ من سورة الأحقاف كالتالي: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُهُ أَفْ لَكُمْ مَا أَتَعَدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والذم فيها واضح (فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري). أي ما نزل في قصة الإفك في سورة النور.

• أمر طبيعي:

وقد انزعج ابن حجر شارح صحيح البخاري من أسلوب أحد الشراح في اختصار ما قاله عبدالرحمن، فقال: (وقد اختصره فأفسده) ثم جاء ابن حجر ببعض الروايات المفصلة للحدث.

ومراعاة للاختصار أذكر نموذجاً لما دار ورواه ابن كثير في تفسيره عن عبدالله بن المديني قال: (إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألسنت الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألسنت ابن اللعين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهم عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف) وللأسف أن البعض يحذف الأسماء.

على العموم، فالآية تحتمل أن تكون قد قصدت شخصاً معيناً، وتحتمل أنها جاءت كنموذج متكرر قد يصدر من أكثر من شخص، ولكن مروان استغل وجود هذا التشابه فيها ووظفه انتقاماً من شخص معارض له.

• التحقق الخارجي:

نموذج آخر لما قد يصبح من المتشابهات نتوصل إليه من خلال قوله عَزَّوَجَلَّ:
﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلَهُ﴾.

التأويل بمعنى الظهور والتحقق الخارجي للشيء. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ «يوسف : ١٠٠». أي هذا هو التحقق الخارجي لرؤيا سجود الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له.

مثال الآية المحكمة من حيث المعنى والمتشابهة من حيث التأويل: قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ «البقرة: ٢٠٧». قال الشهرستاني في الملل والنحل أن نافع بن الأزرق قال: إن الله أنزل في شأن عبد الرحمن بن ملجم قاتل عليٍّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾! فنافع يدعي أن الآية بُشِّرَتْ بظهور ابن ملجم في المستقبل، وأن هذا هو تأويلها!

هكذا كان - وما زال - يتم توظيف تأويل الآيات لبعض المصالح الشخصية أو الحزبية أو الطائفية وأمثال ذلك.

• فكر سقيم:

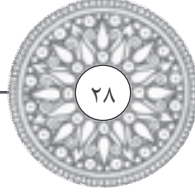
إن أصحاب هذا النوع من الفكر السقيم الذي وصل إلى حدِّ إجلالٍ وتعظيم عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتأويل الآيات المتشابهة من القرآن الكريم زوراً وبهتاناً لنصرته، يُمثل نموذجاً تاريخياً لما حذر منه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، وقد فرخت هذه العقول السقيمة المدارس والاتجاهات التكفيرية التي تعتمد على التعامل القاصر مع الآيات المتشابهة، وعدم رَدِّها إلى المحكم من القرآن الكريم، فشرقت وغربت في توجيه تهم الكفر حيث شاءت أهواؤها، وحيث قادتهم أفهامهم القاصرة.

ولما توسَّعت تلك المدارس والاتجاهات وتضخَّمت، خرجت الجماعات الإرهابية من أرحامها، وانطلقت متحالفة تارة مع بعض الأجهزة المخبرائية التي لا تريد

ببلاد المسلمين خيراً، ومع مخلفات الأحزاب المادية الدموية كالبعثيين تارة أخرى، فارتكبت ما شاءت من مجازر بحق كل من خالفها، وخلفت من ورائها دماراً لا يُوصَف، سواء على المستوى المادي أو الفكري أو الإنساني.

• مراجعات ضرورية:

إن على العالم الإسلامي وهو يشهد اندحارَ الإرهابيين التكفيريين ميدانياً، السعي بكل جدية للقضاء على منابع التكفير وأساسه من خلال مشاريع علمية وتربوية وإعلامية جادة وحثيثة، لكي لا تبقى لهذا الوباء المدمر باقية، وعلى كل المدارس الإسلامية على تنوعها، بما في ذلك المدرسة السلفية، التفكير بجدية لإقامة مراجعة شاملة لمتبنياتها العقيدية والتشريعية والأخلاقية، لأن مآسي السنوات الماضية كشفت عن حجم الخلل الموجود في هذا الإرث عند الأطراف المختلفة، وأن مستقبل الأمة مرهون بمثل هذه الخطوات الجادة التي لا محيص عنها.



الخطبة الأولى أبناء صوحان العبدى

جئت في خطبة ماضية على ذكر «زيد وصعصعة وسيحان» أبناء «صوحان العبدى»، وكلهم من أنصار أمير المؤمنين علي عليه السلام. ووعدتكم أن تكون لي وقفة مجددة مع شيء من سيرتهم. وكنت قد ذكرت أنهم كانوا من أهل «دارين» بجزيرة «تاروت» بالقطيف.

أما زيد فقد كان أميراً في قومه، ومن خيار أنصار أمير المؤمنين، واستشهد هو وأخوه سيحان في معركة الجمل. عن الإمام الصادق عليه السلام: (لما صُرع زيد بن صوحان رحمة الله عليه يوم الجمل، جاء أمير المؤمنين عليه السلام حتى جلس عند رأسه، فقال: رحمك الله يا زيد، قد كنت خفيف المؤنة عظيم المعونة. قال: فرفع زيد رأسه إليه وقال: وأنت فجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، فوالله ما علمتُك إلا بالله عليمًا، وفي أم الكتاب علياً حكيمًا، وأن الله في صدرك لعظيم، والله ما قاتلتُ معك على جهالة، ولكني سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله تقول: (حيث أنه لم يلق النبي وإن كان قد أسلم حال حياته صلى الله عليه وآله) سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، فكرهت والله أن أخذلك فيخذلني الله).

أما صعصعة فقد امتدت به الحياة إلى سنة ٦٠ هـ، وشارك في الجمل وصفين والنهروان، وكان أحد أبطالها، وجعله الإمام شاهداً على وصيته، وكان راوي

الكتاب الرائع ومنقطع النظير الذي كتبه الإمام علي عليه السلام لما ملك الأشتر لما ولاه مصر. قال عنه ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: (كان سيِّداً من سادات قومه عبد القيس، وكان فصيحاً، خطيباً، عاقلاً، لساناً، ديناً، فاضلاً، بليغاً).

علق ابن أبي الحديد على قول الإمام علي عليه السلام عنه: (هذا الخطيب الشحشح) بقوله: (وكفى صعصعة بها فخراً أن يكون مثل علي عليه السلام يُتني عليه بالمهارة وفصاحة اللسان. وكان صعصعة من أفصح الناس).

مرض صعصعة ذات مرة فعاده الإمام علي عليه السلام ثم قال له: (يا صعصعة، لا تتخذ عيادتي لك أبهة على قومك).

وكان رد صعصعة كالتالي: (بلى والله، أعدّها منّة من الله عليّ، وفضلاً).

فقال له الإمام: (إنّي كنت ما علمتك إلاّ لخفيف المؤونة حسن المعونة).

فقال صعصعة: (وأنت والله يا أمير المؤمنين ما علمتك إلاّ بالله عليمًا وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً).

وبقي صعصعة وفيّاً لآل البيت عليهم السلام، وروي أنه نفي بسبب ذلك من الكوفة إلى جزيرة أوال «البحرين حالياً» وبها تُوِي ودُفن رحمه الله، وله فيها مقام معروف، فكان مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ «الأحزاب: ٢٣».

الخطبة الثانية

الشباب بين الحماسة والحكمة

تحدث القرآن الكريم عن بعض تفاصيل قصة النبي موسى عليه السلام في أكثر من

سورة.. إلا أنه قدّم لنا في سورة القصص بعض التفاصيل التي لا نجدها في سور أخرى، ومن بينها قصته وهو شاب يعيش في بلاط فرعون معزّزاً، حيث اتخذته امرأة فرعون طفلاً كالولد، وترعرع في قصرها لسنوات.

ومن بين المشاهد التي قدّمها القرآن الكريم لفترة شباب موسى عليه السلام المشهد التالي: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ...﴾ «القصص: ١٥-١٦».

بعد تلك المكانة والعزة أصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفاً يترقب.. ثم يتكرر المشهد أمامه من جديد، ويكاد أن يتعامل معه بنفس الطريقة التي ندم عليها مسبقاً، لولا اكتشافه أن أمره قد افتضح.

وتتوالى الأحداث، إلى أن يأتيه التحذير بأن الملاء يأترون به ليقتلوه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ «القصص: ٢١».

هذه هي طبيعة عهد الشباب عموماً، ومن أهم ما يميزها:

١. انبعاث الآمال والتطلعات نحو بناء المستقبل الشخصي والعالم، وتحديد المكانة في المجتمع.

٢. توهج المشاعر، والانقياد إلى العاطفة، اتساقاً مع نمو الجانب العاطفي لديهم بسرعة أكبر من نضجهم العقلي.

٣. الحماسة والعنفوان والقوة.

• عاطفة قوية:

ولذا نجد أن الشاب ابن العشرين يُقدّم على ما لا يُقدّم عليه ابن الأربعين، بل وابن الثلاثين.. هذه هي طبيعة المرحلة السنية التي يمرّ بها.. ومن هنا نجد أن عاطفة موسى عليه السلام وحماسه جرّته إلى اللجوء إلى العنف في مواجهة موقف لربما كان بالإمكان التعامل معه بأسلوب آخر بعيد عن ذلك.

أما الذي ساقه إلى الموقف العنيف وغير المناسب فهو ما بيّنته الآية الشريفة

حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾.. عاطفة الانتماء.. وتقسيم المجتمع إلى معسكرين.. جماعتي.. وأعدائي.. حب شديد وتضحية من أجل جماعته.. وبغض وعنف تجاه المعسكر الآخر.

بالطبع فإن المقدار من العلم والحكمة التي وهبها الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَام حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «القصص: ١٤» هذا المقدار جعله يقيّم الموقف بعد ذلك بسرعة وبالشكل الصحيح: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.. ومع هذا كاد أن يكرر ذات العمل الذي أرجع منشأه إلى الشيطان.

لماذا؟ لأن العاطفة لدى الشاب قوية جداً، فهي تغلب الحكمة والعلم.. وتختفي عندها ملامح وعبر تجارب الآخرين.. بل وحتى تجربته السابقة ومعاناته الشخصية. هذا الانجرار إلى العاطفة القوية القائمة على الإحساس بالانتماء، والمواقف المترتبة عليها كلّفته الكثير، واضطرّته إلى أن يفقد الأمن والامتيازات التي كان يتمتع بها، وأن يهجر وطنه، وأن يخسر مكانته الاجتماعية، وأن يهرب خائفاً مطاردًا، وأن يعيش في الصحراء عشر سنوات.

عن أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَام: (ينبغي للعاقل أن يحترس من سُكر المال، وسُكر القدرة، وسُكر الشباب، فإن لكل ذلك رياحاً خبيثة) أي تأثيرات سلبية (تسلب العقل وتستخف الوقار).

• عوامل خارجية:

ولا ينبغي أن ننسى العوامل الخارجية المؤثرة بقوة من قبيل:

١. التأثير التحريضي لوسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، والذي يعمل على إذكاء مشاعرهم، والتشجيع على التمرد على القيم، تارة تحت شعار الحرية واستقلالية الشخصية، وأخرى بذريعة التجديد، أو عدم فهم الآباء للواقع أو حتى اتهامهم بقبول الذل والخضوع.

٢. استثارة الشهوة والغريزة والدفع نحو المغامرة والعنف عن طريق البرامج والأفلام التي يتابعونها.

٣. العامل التكنولوجي الذي سرق أبناء هذا الجيل، وأخذهم بعيداً عن واقعهم الاجتماعي، فأنزلوا في أفكارهم وحواراتهم، ورسوموا تصوراتهم من وحي العالم الافتراضي، فابتعدت قراراتهم عن الواقعية وغابت عنهم مجموعة من العوامل التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ القرارات المصيرية.

هذه الخلطة المزدحمة بالمؤثرات الداخلية والخارجية تضغط بقوة على جيل الشباب، وتجعل عالمهم مليئاً بالتحديات، وتدفعهم لأن يعيشوا نوعاً من الاغتراب والازدواجية بين الموروث الديني وبين الواقع الذي يتفاعلون معه.

• العقل والمرجعية:

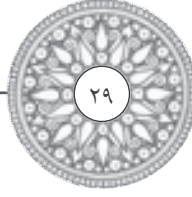
ومن هنا نقول:

١. بضرورة استثارة العقل والحكمة لدى الشباب وبشكل دائم، لأن من شأن الانفعال الشديد والعاطفة القوية أن تحجب دور العقل لدى الإنسان.

٢. التأكيد على أهمية وجود مرجعية - ولا أقصد المعنى الاصطلاحي للكلمة بل المعنى اللغوي - عاقلة وواعية، عركتها الحياة، وأنضجت خبراتها، تكون هي ملجأ الشباب لتقييم التصرفات والمواقف وردات الأفعال.

• تمهّل أيها الشاب:

إننا لا نريد هنا أن نسلب الشباب حقاً من حقوقهم، لا على المستوى الفكري ولا على المستوى العملي، ولكننا نؤكد على ضرورة أن يعوا طبيعة وخصائص المرحلة التي يعيشونها، وأنها تفرض عليهم التواصل مع أصحاب الرأي والحكمة والخبرة في الحياة، وأن الخطوات التي يُقدمون عليها نتيجة التعجّل والتفرد في القرار، والانسحاق وراء عاطفتهم الشديدة، قد لا تمسّهم هم فقط، إذ لربما أربكت ارتداداتها واقع مجتمع بأكمله، وإلى مديات بعيدة جداً، ثم لا يعون ذلك كله إلا حين يتجاوزون هذه المرحلة العمرية، ويعيدون قراءتها، فإذا بالزمن لا يعود، فيقولون كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد وقف في لحظة صدمة بعد أن هدأت نفسه وأنجلت الغبرة: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.



الخطبة الأولى

احترام المسجد ورعاية المصلين

﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ «النور: ٣٦-٣٨».

هذا هو الوضع الطبيعي لبُيُوتِ الله، للمساجد.. وهذا لا يتحقق إلا بالمحافظة على أجواء السكينة والخشوع والهدوء.. وبأن يُعطى المتعبِّدون فيه الفرصة للتقرب إلى الله سُبحانه وتعالى، فقد فروا من شواغل الدنيا التي لا تنتهي، وهمومها التي لا تنقضي، ليكونوا لفترة وجيزة بين يدي الله سُبحانه وتعالى.

• حرم المسجد وملحقاته:

حَرَّمَ المسجد هذا للعبادة، ولطلب العلم، ولتمتين علاقات الإخوة الإيمانية، ولكن ليس بمعنى أن يتحوَّل إلى موقع لرفع الأصوات ولو في الصلاة والذكر وتلاوة كتاب الله سُبحانه وتعالى بصورة تشوِّش على الآخرين وتُفقدتهم التركيز، فضلاً عن أن يكون محلاً لتبادل الحديث والتسامر.

وقد روي أنه: (يأتي في آخر الزمان قوم يأتون المساجد، فيقعدون حلقاً، ذكراً، الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله فيهم حاجة).

الديوان مفتوح، والساحة الخارجية متوفرة أيضاً، ويمكن لمن أحب تبادل

الحديث بهدوء وبمراعاة الأجواء والآداب العامة لبيت الله سُبحانه وتعالى أن ينتقل إليهما.. ولندع هذا الحرم لما يحب الله سُبحانه وتعالى.

وفي المقابل نتمنى ألا يتحول - أحياناً - السعي لتصحيح الخطأ بتنبيه الغافلين، إلى سبب لارتفاع الأصوات، وحصول نوع من الفوضى التي تزيد من التشويش، ولا تؤدي إلى رفع الخلل، فالخطأ لا يُعالج بخطأ آخر، وينبغي أن يتم ذلك بكل احترام للإخوة الذين قد يغفلون في لحظة ما، وينسون أنهم في محضر بيت من بيوت الله.

ولنتذكر في نهاية المطاف الصورة القرآنية لأهل ذلك المسجد الذي أثنى عليه الله سُبحانه وتعالى، فقال في وصفه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ «التوبة: ١٠٨».

الخطبة الثانية

عيد الغدير: يوم المسؤولية

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ «الإسراء: ٥٣».

- في إحيائنا لذكرى غدير خم أبعاد متعددة، من بينها:

١. الاحتفال بهذه الذكرى المباركة لإبقائها نابضة بالحياة مهما مرّ الزمان، وتعاقت الأجيال، وتناغمًا مع قول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ «إبراهيم: ٥».

٢. تجديد العهد بالنبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وترسيخ الولاء لهذه المدرسة العظيمة على المستوى الإيماني، والروحي، والتشريعي، والأخلاقي.

٣. تحمّل مسؤولية الانتماء إلى هذه المدرسة بالالتزام بالمنهج الوحدوي الذي

رَسَّخَهُ أمير المؤمنين علي عليه السلام وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية، حيث قال كما في الكلمة برقم ٥ من نهج البلاغة: (لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وخاطبه العباسُ وأبوسفَيانُ في أن يبايعا له بالخلافة، وذلك بعد أن تَمَّت البيعة لأبي بكر في السقيفة، وفيها يَنْهَى عن الفتنة وَيُبَيِّن عن خُلُقهِ وعِلْمِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ...) ثم بيّن أن موقفه بعدم المصادمة لم ينشأ عن جبن منه وقال: (وَاللَّهِ لَا بَنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بَنَدِي أُمِّهِ، بَلْ ائْتَدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بَحْتُ بِهِ لَا ضُطْرِبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ) الحبل (في الطَّوِيِّ) البئر (البعيدة).

ومن جديد أكد الإمام عليه السلام على ذات المنهج حيث قال في الكلمة ٧٣ من نهج البلاغة: (لَمَّا عَزَمُوا عَلَى بَيْعَةِ عَثْمَانَ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَا سَلَمَ مِمَّا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّمَسَّاسُ لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرِفِهِ وَزَبْرِجِهِ).

إحيائنا لذكرى الغدير الأغر، وسائر المناسبات يجب أن يصب في هذا الاتجاه الوجداني الذي رسم الإمام معالمه بكل وضوح وشفافية، وإلا فلن نكون صادقين في انتسابنا لمدرسته المباركة.

• مهما اختلفنا مذهبياً:

من مسؤوليتنا أن نسعى ألا نحول هذه المناسبات إلى محطة للفتنة، ومحطة لإثارة النزاعات، ومحطة لافتعال الصراعات المذهبية، وإلى بوابة لتنفيذ الشيطان الباحث عن كل ثغرة ينزغ من خلالها بين الإخوة، في الوقت الذي أكد فيه الإمام علي عليه السلام أن الناس: (صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرُكَ فِي الْخَلْقِ).

أي مهما اختلفنا مذهبياً، فإن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تجعل من كل المؤمنين بها إخوة في الإيمان، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «الحجرات: ١٠».

وعلى الطرف الآخر أن يتقبل خصوصياتنا المذهبية، ما دمنا لا نسيء إلى مقدساته، وما دمنا نحتمي بالمناسبة ضمن الإطار المناسب.

وإذا كانت لدى أحد أية ملاحظة، فلا بد أن يتم طرح ذلك من خلال الحوار،

وعقد الجلسات العلمية، وتبادل الرأي، لا بالعنف وإثارة النزاعات. فقد نقل لنا التاريخ صوراً مؤسفة لمناسبات مذهبية تحولت إلى حلبة للفتن، أدت إلى قتل الأبرياء وإحراق الناس أحياءً، وتدمير مناطق سكنية بأكملها، والتعدي على الحرمات بأبشع الصور.

• فتنة سنة ٣٦٣ هـ:

وكنموذج على ذلك ما جاء في أحداث سنة ٣٦٣ هـ من كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير حيث قال - وأنقل كلامه بالنص مع التحفظ على بعضه تعابيره - : (في عاشوراء عُمِلَت البدعة الشنعاء على عادة الروافض) يقصد إقامة مراسم العزاء الحسيني (ووقعت فتنة عظيمة ببغداد، بين أهل السنة والرافضة، وكلا الفريقين قليل عقل أو عديمه، بعيد عن السداد، وذلك: أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة، وبعضهم بالزبير، وقال: نقاتل أصحاب علي) وبالتالي هجموا على المجالس العاشورائية (فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير، وعاث العيَّارون) أي البلطجية بالتعبير المعاصر (في البلد فساداً، ونُهبت الأموال).

استحضار هذه المشاهد التاريخية لأغراض تربوية، وتضمينها في المناهج التعليمية يعد أمراً مهماً، لكي تدرك الأجيال ضرورة التعامل المسؤول مع التطرف، وتنتشل نفسها من براثن الكراهية.

• كلمة الرئيس البلجيكي الأسبق:

قبل يومين نشرت إحدى الصحف المحلية مقالاً لرئيس وزراء بلجيكا الأسبق «جاي فيرهوفستات» كتبه على إثر مقتل الناشطة المناهضة للفاشية «هيدر هير» وإصابة كثيرين آخرين في فيرجينا الأمريكية في أجواء مظاهرة أقامها النازيون الجدد، وتحدث فيه عن تنامي روح التطرف في أمريكا وأوروبا وبروز الفاشية والنازية. قال في نهاياته: (مع تصاعد الكراهية اليوم مرة أخرى، يتعين علينا أن نتذكر أن التعليم عنصر حاسم في الكفاح ضد الاستبداد... يتعين علينا أن نشجع الناس على التأمل في دروس الماضي، عندما ارتُكبت انتهاكات شنيعة ضد الملايين من البشر).

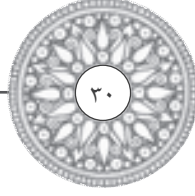
• كلمة خطيرة:

الآية التي صدرت بها خطبتي هذه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أعقبتها آيتان: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «الإسراء: ٥٣-٥٥». والآن لاحظ ماذا قال العلامة الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية، وكلامه مهم جداً: (الآية وما بعدها من الآيتين ذات سياق واحد، وخلاصة مضمونها: الأمر بإحسان القول ولزوم الأدب الجميل في الكلام تحرُّزاً عن نزغ الشيطان، وليعلموا أن الأمر إلى مشيئة الله لا إلى النبي).

ثم قال: (ومن هنا يظهر أن المؤمنين قبل الهجرة ربما كانوا يحاورون المشركين فيغلطون لهم في القول ويخاشنونهم بالكلام وربما جبهوهم بأنهم أهل النار، وأنهم معشر المؤمنين أهل الجنة ببركة من النبي ﷺ، فكان ذلك يهيئ المشركين عليهم ويزيد في عداوتهم ويبعثهم إلى المبالغة في فتنهم وتعذيبهم وإيذاء النبي ﷺ والعناد مع الحق. فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يأمرهم بقول التي هي أحسن).

إذا كان الأمر هكذا تجاه المشركين، أليس من الأولى أن يكون كذلك بين المسلمين بعضهم البعض؟

إن هذا المنطق القرآني الداعي إلى اعتماد القول الأحسن هو الذي يجب أن يسود في أسلوب إحيائنا لمناسباتنا المذهبية، وفي طريقة تعامل الآخر معنا فيما له من ملاحظات حول ذات الموضوع، وفي تعاملنا وتحاورنا مع بعضنا البعض في المسائل التي نختلف فيها، لأن هذا الأسلوب هو الذي يعرقل مشاريع الشيطان في أن ينزغ بين الإخوة، ويغلق أمامه أبواب الفتن. ولنتذكر بأن كثيراً من صور الصراع المذهبي هي في الواقع صراعات سياسية أو حزبية أو لمصالح شخصية ألبيست لباس الانتصار للدين والمذهب لقداستهما في النفوس.. فلنحذر أن نكون حطياً لنيران مؤججي الفتن، وأن نكون أتباعاً لهم لا عن بصيرة، وقد قال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.



الخطبة الأولى

باعوا آخرتهم.. فخسروا

في الحكمة برقم ١٠١ من نهج البلاغة قال أمير المؤمنين عليه السلام: (لَا يَشْرِكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لَا سِتْصِلَاحَ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ).

من المفترض بالإنسان أن يوازن ما بين سعيه للدنيا وسعيه للآخرة، وعلى الأقل أن يساوي بينهما.. فكم يُتوقع للإنسان أن يعيش في الدنيا؟ سبعون سنة؟ ثمانون؟ مائة؟ وليقارن ذلك بالحياة الآخوية.. كم ستدوم؟

من المنطقي أن يكون الإعداد والاهتمام بما يدوم أكثر إعداداً واهتماماً أكبر، أو على الأقل أن لا يقل بل يتساوى مع الإعداد لما يدوم أقل.. بل وأقل بكثير جداً.. بل لا يُقاس هذا بذلك!

فهل شأن المؤمنين بالآخرة في التعامل مع الحياتين وفق هذا المنطق؟ أعتقد أن أكثر المؤمنين غافلون عن هذه المعادلة المنطقية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ناهياً عن الوقوع في شرك فقدان التوازن بين الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ «المنافقون:٩».

وأمير المؤمنين عليه السلام بين في الحكمة السابقة واحدة من النتائج الخطيرة المترتبة على ذلك، وترك شيء من الدين لأجل الدنيا يمكن تصويره على نحوين:

١. ترك الواجب وفعل الحرام تبعاً للشهوات.. ومن الواضح كيف يتم استدراج الإنسان في هذه الحالة، شيئاً فشيئاً، كمّاً وكيفاً، لما للشهوة من قوة جاذبية شديدة تُسوّغ له الكبائر، وتزيّن له القبائح، فتفتح له أبواب المعاصي التي لم يكن يتجرأ على فعلها أو مجرد التفكير بها من قبل.

٢. الاستغراق في الدنيا ومتطلباتها، على حساب الآخرة والإعداد لها.

وكلما تشاغل في جزئية، انفتح له بابٌ جديد يشغله عن آخرته، ويدفعه بعيداً عن التفكير والإعداد لها، ولربما كان هذا الشغل الدنيوي الجديد يتطلب جهداً أكبر ووقتاً أطول من سابقه، ليجد نفسه لاحقاً وقد نسي آخرته، وغفل عنها، ولربما لا تُسعفه الظروف للتعويض، فإذا به قد بنى بيتاً لحياة مؤقتة، بينما لم يُعد شيئاً لحياة هي مصيره الأخير والأبدي.

وصدق الله عزَّ وجلَّ إذ قال واصفاً أمثال هؤلاء: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الخطبة الثانية

الاستشراق اليهودي والواقع العربي

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا، مَن الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأُئْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ «النساء: ٤٤-٤٦».

أسهم مسلمة اليهود في القرنين الهجريين الأول والثاني - كما لا يخفى - في تحريف وتشويه التراث الإسلامي الخاص بتفسير القرآن والحديث النبوي

والتاريخ والمعتقد. واستمر هذا الدور - وإن تضاعل بشكل كبير في قرون لاحقة - ليعود بقوة مع بروز ظاهرة الاستشراق في القرن الثامن عشر الميلادي، حيث كان للمستشرقين اليهود حضور بارز في هذا المجال، وقدموا نتاجات متنوعة، بما في ذلك ما يخص القرآن الكريم.

فقد عمد بعض المستشرقين اليهود إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة العبرية واللغات الأوروبية، وتقديم دراسات حول تاريخ القرآن ومفاهيمه، وضمّنوها الكثير من الأفكار والمعلومات المغلوطة التي بقيت آثارها حاضرة لدى الغرب إلى هذا اليوم، وأثّرت في نظرتهم وفهمهم للإسلام.

• مراحل الاستشراق اليهودي:

هذا الدور الاستشراقي اليهودي لم يقتصر على البُعد النظري والفكري، بل أخذ - بمرور الوقت ومع بروز بعض المستجدات على الساحة العالمية - منحىً آخر لا يقل خطورة عنه. فقد قسّم بعضُ الباحثين المختصين جهودَ اليهود في هذا المجال إلى ثلاث مراحل، ولكل مرحلة خصوصياتها ودورها الذي تم توظيفه في نهاية المطاف لخدمة المشروع الصهيوني:

١. مرحلة الاستشراق اليهودي، والتي جاءت في إطار الحركة الغربية للاستشراق ككل.

٢. مرحلة الاستشراق الصهيوني، والتي ارتبطت بالحركة الصهيونية التي ظهرت أواخر القرن ١٩ الميلادي، فأصبح له أهدافه وموضوعاته الخاصة التي تهدف لخدمة الحركة الصهيونية والتمهيد لتأسيس الكيان الإسرائيلي في فلسطين.

٣. مرحلة الاستشراق الإسرائيلي، والتي بدأت مع الإعلان عن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وجمعت بين أهداف المرحلتين السابقتين، والأهداف السياسية والأمنية والمخابراتية والتوسعية للكيان الصهيوني.

• الجامعة العبرية في القدس:

وإدراكاً مبكراً منهم لأهمية قيام مؤسسات «علمية» توظف جهود مستشرقها

وتتسَّق فيما بينهم، لم ينتظر الصهاينة قيام دولتهم ليؤسسوا تلك المراكز بما يخدم مشروعاتهم الاستعماري الهادف إلى تمزيق الصف الإسلامي والعربي، وإضعاف لثقة المسلمين بدينهم، والتشكيك في متبنياتهم.

ففي المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ تقدم «تسفي شابير» باقتراح تأسيس «الجامعة العبرية في القدس». ولكثرة العقبات استغرق الأمر ٢٨ سنة إلى أن تحقق، ١٦ سنة منها بُدلت لشراء قطعة أرض في القدس.

وفي عام ١٩١٨، أي بعد عام من الاحتلال البريطاني لفلسطين، أقيم حفل وضع حجر الأساس، لفتحت الجامعة بعد ذلك في عام ١٩٢٥ في حفل حضره اللورد البريطاني بلفور صاحب الوعد المشؤوم.

ومع قيام دولتهم، انصبَّت جهود «قسم الدراسات الاستشرافية» في الجامعة على تقديم الخدمات العلمية لوزارتي الخارجية والدفاع في إسرائيل! مما يعني الاهتمام بتوظيف نتائج البحوث والدراسات ميدانياً ومن قبل الدولة، على خلاف ما يجري في الكثير من الدول العربية والإسلامية.

بالطبع لا بد أن ندرك أن هذه الدراسات والبحوث لا تأتي من أجل التزلف للحكومة، والثناء على برامجها واستراتيجيتها وخططها المستقبلية، كما يحصل في غالبية الدول العربية والإسلامية، بل تقدّم ما تتوصل إليه سواء أوافق الحكومة أو خالفها، فالغاية عندهم أهم من الأفراد والحكومات.

وتتبع عن هذه الجامعة الآن خمس مؤسسات بحثية تتنوع نشاطاتها بين دراسة الحضارة الإسلامية، وشؤون اليهود في بلاد المسلمين، والصراع العربي/الإسرائيلي، ونشر بحوث المستشرقين الإسرائيليين في الشؤون الإسلامية والعربية.. وهناك جامعات ومؤسسات بحثية أخرى عديدة.

• خطة المستشرق برنارد لويس:

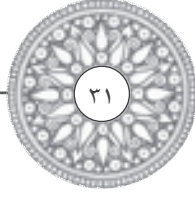
ثم لاحظ كيف يتم توظيف دراسات المستشرقين اليهود. مثال على ذلك ما جاء في عدد ٣٠ أكتوبر ١٩٩٢ من مجلة Executive Intelligence Review EIR الصادرة عن «حركة لاروش: وهي منظمة دولية عالمية تهتم بالاقتصاد والسياسية والثقافية والحياة الاجتماعية» كتب «جوزيف بريودا» مقالاً بعنوان: «خطة برنارد

لويس الجديدة سوف تنقذ الشرق الأوسط» تحدث فيه عن الكيفية التي تم بها تفكيك حواف الإمبراطورية السوفياتية وفق خطة المستشار اليهودي «برنارد لويس» فانهارت، وأن المشروع القادم وفق مقالة للويس نفسه «إعادة التفكير في الشرق الأوسط» هي لبننة الشرق الأوسط، بمعنى إطلاق الحروب البينية القائمة على أساس طائفي وعرقي، ومن ثم خلق كيانات ودويلات صغيرة تتفكك من خلالها الدول العربية بحدودها الحالية، لترسم من خلال ذلك خارطة جديدة للمنطقة.. والمستفيد الأول بالطبع هو الكيان الصهيوني.

واليوم يدور حديث عريض عن مستقبل المنطقة على ضوء ما جرى بعد تقسيم السودان واحتمالات تقسيم العراق وسوريا وما تشهده المنطقة ككل من أوضاع سياسية وعسكرية وأمنية غير مستقرة، واليد الاستخباراتية الصهيونية التي امتدت عابثة وبقوة بالمشهد الطائفي والعرقي، وكان العرب والمسلمون الأدوات التي استخدمت بخضوعهم لعصبياتهم وعواطفهم وقراءتهم السطحية للأحداث.

• معرفة الخصم:

إن النشاط الاستشراقي اليهودي لم يُقصر جهوده على البُعد النظري، بل وظفها ووجهها لخدمة الكيان الصهيوني في المجالات السياسية والأمنية والعسكرية والمخابراتية، لأن القائمين على هذا النشاط يدركون تمام الإدراك أن معرفة الخصم - في نقاط قوته وضعفه - معرفة حقيقية هي أول الطريق لتحقيق النصر عليه. وما لم تتحقق هذه المعرفة فسيبقى الخصم منتصراً، يفرض شروطه، ويسير نحو تحقيق غاياته وأهدافه.. وبانتظار اليوم الذي يدرك فيه العرب والمسلمون أهمية إنشاء مراكز الدراسات والبحوث الاستراتيجية الجادة، والقائمة على أسس علمية، والمعتمدة على الشفافية والحيادية، وتوظيفها من قبل الجهات المختصة لمواجهة عدوهم الذي لا يدخر وسعاً، ولا يدع باباً إلا ويطرقة، ما دام يخدم قضيتته، ويحقق أهدافه. وما أشبه اليوم بالأمس حين نقارن أوضاعنا بأوضاعهم حيث قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا، مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا، فَيَا عَجَبًا - عَجَبًا وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ لَهُم - مِنْ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ).



الخطبة الأولى الحسين السبط

روى أحمد بن حنبل في مسنده، والترمذي في سننه، وابن ماجه في سننه، والحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين، وآخرون: (عن يعلى بن مرة قال): أسلم وشهد مع رسول الله الحديبية وبيعة الرضوان وخيبر وفتح مكة والطائف وحنيناً، وكان فاضلاً. سكن الكوفة، وكان من أنصار أمير المؤمنين علي عليه السلام. (قال رسول الله ﷺ: حسين مني وأنا منه) وفي نص آخر: «وأنا من حسين» (أحب الله من أحب حسيناً، الحسن والحسين سبطان من الأسباط).

قال الألباني في كتابه «صحيح الجامع الصغير وزيادته» برقم ٣١٤٦: (حسن). وصححه ابن حبان والحاكم.

• المعنى اللغوي:

السُّبُط في المعاجم اللغوية بمعنى: (ولد الابن والابنة)، ومن الواضح أن النبي لا يريد هذا المعنى اللغوي، لأن من البديهي أن الحسن والحسين ابنا ابنته.

علاوة على أنه ﷺ قدّم قبل ذلك قوله: (حسين مني وأنا منه)، وهو ليس لبيان الانتماء الأسري، بل مثلما يرى الأب أحد أبنائه يتصرف مثله من حيث الشهامة مثلاً، فيقول: «هذا ابني». أو يُقال: «هذا الشبل من ذاك الأسد».

ما سبق يؤكد أن النبي ﷺ إنما يريد أن يشير إلى شيء عهده المسلمون وعرفوه من قبل، ولذا قالوا أن الألف واللام في كلمة «الأسباط» للعهد الذهني.

• رسالة النبي:

أي أن النبي ﷺ يقول للمسلمين: لقد علمتم أمر الأسباط.. إن حال الحسن والحسين وشأنهما كشأن الأسباط.. فمن هم الأسباط؟ وماذا عرف المسلمون عنهم ليحيلهم النبي إلى ما عرفوا؟ وما وجه الشبه؟ سأتناول هذا كله في الخطبة الثانية من القرآن ومن العهد القديم بإذن الله عز وجل.

الخطبة الثانية

فك لغز الأسباط

ذكرت كلمة «الأسباط» في القرآن الكريم - معرّفة بالألف واللام - أربع مرات، مرتان في سورة البقرة، وثالثة في سورة آل عمران، ورابعة في سورة النساء.. وكلها سور مدنية.

في سورة البقرة كان الحديث موجهاً لليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ «البقرة: ۱۳۵-۱۳۶».

وتتمة للخطاب السابق قال سبحانه وتعالى في الآية ۱۴۰ منها: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أأنتم أعلم أم الله﴾.

وهكذا جاءت الآية ۸۴ من سورة آل عمران في سياق الحوار مع أهل الكتاب: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦٤﴾.

وأيضاً في إطار الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم من قضية التوحيد والنبوة قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ «النساء: ١٦٣-١٦٤».

وفي مورد واحد جاءت الكلمة من دون «ال»: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ «الأعراف: ١٦٠» وهي سورة مكية، واستعملت الكلمة هنا في معنى مغاير لما في الآيات المدنية، فالمراد هنا كما في لسان العرب: (السَّبَطُ من اليهود: كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد).

• من هم الأسباط؟

في كل الموارد الأربعة الأولى جاء الحديث عن الأسباط في سياق الحديث عن الأنبياء والمرسلين والرسالات، فمن هم الأسباط؟

ذهب كثيرون إلى أنهم أسباط النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي يوسف وإخوته، وعددهم اثنا عشر سبطاً.

وذهب آخرون إلى أنهم أنبياء من سلالة أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، دون تحديد لهم. وفي رأي آخر أنهم كانوا من ذرية أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنهم ما كانوا من الأنبياء، بل كانوا من الأوصياء، وأيضاً دون تحديد لهم.

• المفاجأة!

ولي رأي في الموضوع توصلت إليه بفضل من الله عَزَّوَجَلَّ.. فالقرآن الكريم في العهد المدني حيث يخاطب أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، يحيلهم إلى العهد القديم المشتمل على التوراة وغيرها من الكتب، وما فيه من ذكر لأنبياء وشخصيات عهدوها وارتبطوا بها في تاريخهم الممتد لقرون.

وبالتالي حين يذكر الأسباط ضمن حديثه عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَام، لابد وأنه يقصد مجموعة معينة لها ارتباط خاص فيما بينها، وليس المراد بعض أنبياء بني إسرائيل بشكل مبعثر، ولا المراد أولاد يعقوب، لأنهم - ما عدا يوسف عَلَيْهِ السَّلَام - ليسوا بهذا المستوى الذي يُجعلون فيه مع تلك الأسماء، لاسيما مع ما حكاه القرآن عنهم.

وفعلاً، عندما نرجع إلى العهد القديم، سنجد بعد توراة موسى عَلَيْهِ السَّلَام «سفر يشوع» ثم مباشرة بعد ذلك «سفر القضاة»، وبمراجعة كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» ص ٤٨١، وجدت جدولاً يشتمل على عدد وأسماء هؤلاء القضاة، فإذا هم اثنا عشر، أحد عشر رجلاً ومعهام امرأة!

أي لورجعنا إلى التاريخ بالترتيب، سنجد النبي موسى، فوصيه يشوع بن نون، فأحد عشر قاضياً ومعهام قاضية.. تماماً كما هو الحال مع نبينا فعلي والزهراء وأحد عشر إمام!

ولكن هل كلمة «قضاة» هو التعبير الدقيق لما ورد في النص الأصلي؟ عندما تعود إلى الويكيبيديا تحت عنوان Biblical judges أي (قضاة الكتاب المقدس) ققلاً عن: Coogan, A Brief Introduction to the Old Testament, Glossary, pg. 426

فستجد أنه يطلق على الفرد منهم في العبرية šōpêṭ وتلفظ «شَپِيط» أو بالفاء، وهو يقابل كلمة «سبط» بالعربية. والعبارة هكذا:

A Biblical judge (Hebrew שופט šōpêṭ/shofet, pl. שופטים šōpəṭîm/shoftim) was "a ruler or a military leader as well as someone who presided over legal hearings." These judges appear most often in the Book of Judges, which is named after them.

وبالتالي فهم ليسوا قضاة بالمعنى الدقيق، بل حكام وأولياء وقادة، وكتابهم في العهد القديم اسمه الأصلي «سفر الأسباط / شَپِيطِيم».. فماذا كان دورهم؟

• مسؤولية الأسباط:

قبل أن يتوفى موسى عَلَيْهِ السَّلَام استدعى جميع بني إسرائيل وأوصاهم من جديد

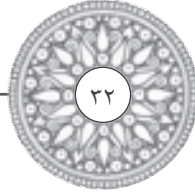
بالتمسك بتوحيد الله وبطاعته، والعمل بالمواثيق التي أخذها عليهم، ثم قال لهم كما في «سفر التثنية» من التوراة: (أنا اليوم قد بلغت من العمر مائة وعشرين سنة، وصرت عاجزاً عن قيادتكم.. وسيكون يشوع قائدكم كما وعد الرب.. وكان الرب قد قال لموسى: ها أنت قد أوشكت على الموت، وأيام حياتك باتت معدودة، فادعُ يشوع، وقفاً كلاكما عند خيمة الاجتماع لكي أوصيه.. وقال الرب لموسى: ما إن تموت وتلحق بأبائك حتى يسرع هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الغرباء).

وقاد يوشع بني إسرائيل، ووقعت مسؤولية الحفاظ على الرسالة من بعده على الأسباط «القضاة» الواحد تلو الآخر، فواجهوا الانحراف عن التوحيد، وعن طاعة الله فيما أمر ونهى، حتى عبّر عنهم بالأبطال، لأنهم كانوا أبطال دعوة التوحيد والحفاظ على رسالة السماء وشرعية الله.

ولربما تكون لنا وقفة أخرى تفصيلية مع ما جاء عن دور الأسباط في حماية رسالة السماء، تماماً كما قال النبي عن عترته: (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً).

• التشابه الغريب:

لقد كان الأسباط الذين ذُكروا في العهد القديم بعنوان «القضاة» - وهي ترجمة غير دقيقة للكلمة العبرية «شُطِيم» - كانوا أولياء بني إسرائيل من بعد موسى ووصيه يوشع بن نون، والهداة لهم وحملة الرسالة وحفظ الدين.. منهم امرأة وأحد عشر رجلاً، ليكون مجموعهم مع موسى ويوشع أربعة عشر.. وبالأسباط ربط النبي الأكرم ﷺ الحسن والحسين حيث قال: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط) ليقول للمسلمين: إن الحسن والحسين في الولاية والهداية وحمل الرسالة والحفاظ على الدين بمثابة أولئك الأسباط في بني إسرائيل.. فهما من الأربعة عشر أنوار الولاية والهداية، رسول الله ﷺ فعلي فالزهراء فالحسن والحسين فالأئمة من ذرية الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَام.. اللهم اجعلنا من المتمسكين بولايتهم والمهتدين بهداهم إنك سميع مجيب.



الخطبة الأولى

من خطب الإمام الحسين عليه السلام

في تاريخ الطبري ضمن أحداث سنة ٦٠ للهجرة: (قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي الْعِزَارِ، إِنَّ الْحُسَيْنَ خَطَبَ أَصْحَابَهُ وَأَصْحَابَ الْحَرِّ بِالْبَيْضَةِ) منطقة تقع في محافظة المثنى جنوب العراق قريبة من بلدة السلمان (فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بَفْعَلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ». أَلَا وَإِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ، وَعَطَلُوا الْحُدُودَ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ، وَأَحْلَوْا حَرَامَ اللَّهِ، وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيْرَ. قَدْ أَتَنَنْتِي كُتُبُكُمْ، وَقَدِمْتَ عَلَيَّ رُسُلُكُمْ بِيَعْتِكُمْ، أَنْكُمْ لَا تُسَلِّمُونِي وَلَا تَخَذِلُونِي، فَإِنْ تَمَمْتُمْ عَلَى بِيَعْتِكُمْ تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ، فَأَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَابْنُ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَفْسِي مَعَ أَنْفُسِكُمْ، وَأَهْلِي مَعَ أَهْلِيكُمْ، فَلَكُمْ فِي أَسْوَةٍ. أَيُّ مَصِيرِنَا وَاحِدٍ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَلَنْ أَتَخَلَّى عَنْكُمْ، لَا بِنَفْسِي وَلَا بِأَهْلِي (وَأِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَنَقَضْتُمْ عَهْدَكُمْ، وَخَلَعْتُمْ بِيَعْتِي مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، فَلَعَمْرِي مَا هِيَ لَكُمْ بِنُكْرٍ، لَقَدْ فَعَلْتُمُوهَا بِأَبِي وَأَخِي وَابْنِ عَمِّي مُسْلِمٍ، وَالْمَغْرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِكُمْ. فَحَظُّكُمْ أَخْطَأْتُمْ، وَنَصِيبُكُمْ ضَيَعْتُمْ، وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي الْعِزَارِ: قَامَ حُسَيْنٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذِي حُسَمٍ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ الْأَمْرِ مَا

قَدْ تَرَوْنَ) يشير بذلك إلى انقلاب الأوضاع في الكوفة ومقتل مسلم وهانيء وابن يقطر ومواجهة الحر والقوة العسكرية تحت إمرته (وَأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا وَاسْتَمَرَّتْ جِدًّا) قد يكون من المرورة (فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِيسُ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَيْبِلِ. أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يَعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتْنَاهَى عَنْهُ! لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحِقًّا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا شَهَادَةً، وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا).

وفي تحف العقول أنه أضاف بعد ذلك قوله عَلَيْهِ السَّلَام: (إِنَّ النَّاسَ عِبِيدُ الدُّنْيَا وَالَّذِينَ لَعَقُوا عَلَى أَسْنَنِهِمْ، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَائِشُهُمْ فَإِذَا مُحْصُوا بِالْبَلَاءِ، قَلَّ الدِّيَانُونَ).

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين جميعاً ورحمة الله وبركاته.

الخطبة الثانية

عاشوراء.. وسوء استغلال القوانين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ «الحجرات: ٦».

أردت - كالمعتاد - أن أتناول هذه الآية الشريفة بالشرح والبيان وسبب النزول، فمن الطبيعي كي نفهم معنى الآية، وما هي الرسالة الموجهة إلينا من خلالها، أن نرجع إلى سبب النزول.

فرجعت إلى كتب التفسير، كتفسير الطبري وابن كثير والقرطبي، فإذا بأسباب النزول تتحدث عن فلان الصحابي.. فغيّرت رأبي، وتعوذت بالله من

الشیطان الرجیم، لأننی لا أريد أن أعرض نفسي للمشاكل والمحاسبة.. وهكذا
أعرضت عن شرح الآیة، وتفسیرها، والاستفادة منها.

• درس التفسیر:

وبدأتُ درسَ تفسیر القرآن، وقررت أن أبدأ بسورة التحريم، ومن جديد
رجعت إلى كتب التفسیر، فإذا بالآیات الشریفة تتناول بعضُ شؤون البيت النبوی،
وأحداث جرت بین النبی وبعض أزواجه.

فصرفت النظر عن تفسیر هذه السورة، ویمت وجهي نحو سورة قصيرة،
سورة الكوثر، فلما رجعت إلى التفسیر وجدتها تتحدث عن والد صحابي، فخفت
أن أذكر ذلك وأتهم أني أردت الإساءة إليه.

وهكذا تنقلت بین قصار السور المکیة، فإذا بالأمر يتكرر معها، وتذكرت بعض
القوانين، فشعرت بمغص معوي خوفاً من أن يكون تفسیري لهذه السور سبباً لوجع
الرأس.. فأعرضت عن الدرس.

• غزوة أحد:

وفي الذكری السنوی لغزوة أحد، سألني بعض الإخوة أن أتحدث عن هذه الغزوة
من واقع ما عرضه القرآن الکریم في سورة آل عمران، من خلال أسباب النزول،
وتطبيق ذلك عن طریق ما جاء في تاریخ الطبري، والسيرة النبویة لابن هشام،
وغيرهما من كتب السيرة عند المسلمين.. ماذا جرى؟ ولماذا هُزم المسلمون؟ وكيف
أثرت إشاعة قتل النبی ﷺ في المعركة على بعض المسلمين؟ ومَن بقي صامداً
يدافع عن النبی ومَن لم يصمد حيث استوقفني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوُّونَ
عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ «آل عمران: ١٥٣».. إلخ التفاصيل.

• كلیلة ودمنة:

من جديد رجعت إلى كتب التفسیر وأسباب النزول وكتب السيرة، ثم اعتذرتُ
للأخ الکریم وقلت له: ما رأيك لو فتحنا كتاب کلیلة ودمنة وقرأنا منه بعض
القصص، فأنا في غنى عن القيل والقال.

فقال لي: أخاف أن يُقال أن مؤلفه كان من كفار الهند وأن المترجم زنديق!

فقلت: إذاً نقرأ من رحلة ابن بطوطة.. فقال لي: ولكن أخاف.. وقبل أن يكمل بيّنت له أنني ألغيت البرنامج ككل.

• موسم محرم:

وجاء موسم محرم، وطلب مني أن أرتقي المنبر، لأتحدث عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فأعددت خطبتي، وعرضتها على بعض الإخوة، لعل فيها ما قد يسبب سوء فهم أو إساءة. فاقترح أحد الإخوة أن أشطب كل العبارات التي فيها ذكر ليزيد، فهذا يُغضب فلاناً.. وطلب مني الثاني أن لا أذكر الأمويين بسوء، لأن علاناً يحبهم وستثار حفيظته بهذا الكلام.. وأصرّ الثالث على أن لا أحلّل أسباب الثورة الحسينية وخلفياتها، فالأمر قد يثير حساسية البعض.. وأما الرابع فأشار عليّ من باب الاحتياط أن لا أتناول اسم أحد من المعسكر المعادي للإمام الحسين ممن جاء ذكرهم في تفاصيل الأحداث، لعل من بينهم من لا يصاح أن نذكره بسوء. وخرج الأعراء وإذا بورقتي لم يتبقّ منها شيء سوى على طريقة من أراد اختصار قصة النبي يوسف عليه السلام: ضاع صبي في الصحراء، وبعد سنوات وجده أهله وقد صار وزيراً في مصر!

• سيناريو المستقبل:

كان هذا السيناريو من وحي الخيال لما قد سيكون عليه الوضع بعد عدة سنوات، فيما لو استمرّ البعض بسوء استغلال قوانين الوحدة الوطنية والمطبوعات والنشر ومنع الإساءة ومنها قانون رقم ٣ لسنة ٢٠٠٦ بشأن المطبوعات والنشر وفيه: (المادة ١٩: يحظر المساس بالذات الإلهية أو القرآن الكريم أو الأنبياء أو الصحابة الأخيار أو زوجات النبي ﷺ أو آل البيت عليهم السلام بالتعريض أو الطعن أو السخرية أو التجريح بأي وسيلة من وسائل التعبير المنصوص عليها في المادة ٢٩ من القانون... إلخ).

أنا مع هذا القانون.. وقد تحدثت مراراً وتكراراً عن ضرورة احترام مقدسات الآخرين، والامتناع عمّا قد يسيء إلى الوحدة الإسلامية، وإلى حرمة السب واللعن، لأنه يتنافى مع تعاليم القرآن، ومع سيرة وأخلاق النبي ﷺ، ومع توصيات أهل بيته عليهم السلام.. وخطبي موجودة مسجلة بالصوت والصورة.. ولكن لا نريد أن

نفتح المجال لتفسير كلمات «المساس، التعريض، الطعن، التجريح» الواردة في القانون بمزاجية.

كل قانون وتشريع قابل لأن يُفسَّر ويُطبَّق بأكثر من صورة، وأن يقع الخلاف بشأن المراد منه.. حتى التشريعات الإلهية الواردة في القرآن الكريم اختلف فيها. الوضوء الذي يأتي به المسلم كل يوم مرات عديدة، ونزلت بشأنه آية، اختلف المسلمون في معناها وتطبيقها، هل المراد غسل القدمين أم مسحهما؟

• أسئلة برسم الإجابة:

والحقيقة أنني أسأل إخواني من علماء أهل السنة والجماعة، والسلفية، والصوفية: كيف تعرضون تفسير الآيات والصور القرآنية التي أشرت إليها وأسباب نزولها؟ وكيف ستحدثون عن غزوة أحد مثلاً وما جرى فيها؟ وكيف ستحدثون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام لو طلب منهم ذلك؟

وماذا تفعل الرقابة بمثل تفسير الطبري المعتمد عند المدرسة الأشعرية، وتفسير القرطبي المعتمد عند المدرسة السلفية وهي كتب تذكر أسباب نزول الآيات وفي بعضها ما فيه؟ هل تمنع الكتاب؟ هل تشطب على أسباب النزول فيه؟ هل تزيل بعض أوراقه مثلاً؟ هل تسمح الأسماء الواردة فيه؟

ثم فلنفرض أن عالماً أو مبلغاً أو خطيباً كانت لديه بعض الآراء والقناعات الخاطئة والمتطرفة في وقت ما، وتم تسجيلها.. ثم بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة نضج وتغيرت آراؤه وصار متزناً وترك مقولاته تلك.. أيعقل أن يحاسب عليها ويرتب عليها الأثر بعد كل هذه السنوات؟

• إعادة نظر ضرورية:

أتصور أن المسألة برمتها بحاجة إلى إعادة نظر من حيث التطبيق، وإلى معالجة بطريقة مختلفة كي لا تتطور الأمور إلى ما هو أسوأ، ويتحوّل القانون الذي يُراد منه أن يكون وسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية، إلى قانون يُستغل لإثارة الفتن بين مكونات الوطن الواحد.

ولربما من سبل فك الاشتباك ونزع فتيل الأزمة أن تُشكّل لجنة، ولو من أربعة

من أهل الحكمة ورجاحة العقل والخبرة والعلم من الطرفين، للتعامل مع الحالات الحساسة والطارئة، ولتكون المرجع في التحقق في مثل ما أثير هذا العام على بعض الخطباء الحسينيين، وسبل التعامل مع الأمر عند ثبوته.. ولتكن اجتماعاتها عاجلة كي تُعالج الأمور بحكمة وقبل أن تتصاعد وتأخذ لها أبعاداً لا تُصب في المصلحة العامة.

وليس الغرض تشكيل لجنة من أي كان والسلام، بل أشدد على أن يكونوا من أهل الحكمة والتعقل، لأن هناك في الطرفين من يبحث عن الإثارة، أو يسعى إلى الشهرة، أو مصاب بداء التعصب، ولا يهمه أن يدمر الوطن، لأنه لا يعيش إلا ذاته أو عصبياته وأفقه الضيق.

• كيف يكون موسم محرّم؟

لقد قلت من قبل، وأعيد قولي من جديد: إننا لا نريد من إحياء الذكرى المباركة لثورة الإمام الحسين عليه السلام أن تكون محطة لإثارة النزاعات الطائفية، ولشحن الصدور ضد بعضنا البعض، وللإساءة إلى مقدّسات الآخرين، ولزرع الفتنة بين المسلمين، فضلاً عن أبناء الوطن الواحد، فالحسين ليس للشيعة فقط، وما كانت ثورته ذات طابع طائفي، أو من أجل نصرة مذهب على آخر.

بل نريدها أن تكون محطة تتناغم في أطروحاتها مع الشعارات التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام والمتمثلة في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أننا في نفس الوقت نريد من الآخر أن يتفهّم خصوصياتنا، وأن لا يُحوّل الموسم في كل عام إلى سبب للإثارة الطائفية، وإشعال الساحة بالقييل والقال، من خلال البحث في الملفات القديمة التي قد يعود بعضها إلى أكثر من عقدين من الزمان، ليسجل نقطة هنا أو نقطة هناك، وكأننا في حلبة مصارعة، وليس في وطن نريد أن نتعايش فيه بمحبّة، ونؤصل فيه كل ما يحقق التقارب والتلاحم فيما بيننا.



الخطبة الأولى العقيلة العالمة

تتردّد عند الحديث عن العقيلة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عبارات الثناء على علمها، إلا أنه عادةً ما تنقصنا الشواهد التي تدعم هذه المقولة. وسأقدم في هذه الخطبة بعضاً منها وبشكل مختصر وسريع.

• شهادة السيد الخوئي:

١- قال السيد الخوئي: (روت عن أمها سلام الله عليها، وروى عنها جابر. الفقيه: الجزء ٣، باب معرفة الكبائر، الحديث ١٧٥٤، وروى عنها عباد العامري).

ومن بين رواياتها عن مولاتنا الزهراء عَلَيْهَا السَّلَام، الخطبة المشهورة التي ألقتها في المسجد النبوي بعد وفاة النبي ﷺ، والمعروفة بالخطبة الفدكية، ورواها عنها الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام، وابنه زيد الشهيد، وعبدالله بن عباس.

• شهادة الجوهري:

وقد أشار ابن أبي الحديد المعتزلي إلى أسانيد الخطبة نقلاً عن أبي بكر الجوهري، وذكر أنها تنتهي إلى السيدة زينب. ولنلاحظ أن الزهراء عَلَيْهَا السَّلَام توفيت والسيدة زينب في السادسة من عمرها، وهذا يدل على فطنتها، وقوة حافظتها، وحرصها على تحمّل المسؤولية في هذا المشهد العصيب.

• شهادة الأصفهاني:

وذكر أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين أن خطبة الزهراء رويت بسند عن ابن عباس عنها، قال: (والعقيلة هي التي روى ابن عباس عنها كلام فاطمة في فذك، فقال: حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي).

• مصادر علم متنوعة:

٢. وروت كذلك بحسب ما ذكر بعض أهل الاختصاص عن أبيها علي عليه السلام، وعن أخويها الحسنين عليهما السلام، وعن السيدة أم سلمة زوج رسول الله ﷺ، وعن أم أيمن، وعن أم هانيء بنت أبي طالب، وعن أسماء بنت عميس زوجة جعفر الطيار وأم زوجها عبدالله.

• الرواة عنها:

٣. روى عنها عدد من أهلها ومن الصحابة والتابعين، فقد ذكرنا جابراً الأنصاري، وعبدالله بن عباس، وعباداً العامري، والإمام زين العابدين، وزيداً ابنه، وروى عنها عبدالله بن جعفر، وفاطمة بنت الحسين الصغرى، ومحمد بن عمرو الهاشمي، وعطاء بن السائب، وغيرهم.

• حمل العلم وأداؤه:

لقد كانت العقيلة زينب رضي الله عنها بالإضافة إلى شخصيتها البطولية التي تجلت في المواقع العديدة بعد عاشوراء، كانت العالمة التي حملت وأدت شيئاً من علم جدّها رسول الله وأبيها علي وأمّها الزهراء وأخويها سيدي شباب أهل الجنة.. فأية سلسلة من العلم مباركة هذه؟! إنها كالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.. فسلام على هذه الشجرة المباركة، وأنفعنا اللهم بها علماً وعملاً إنك أنت السميع العليم.

الخطبة الثانية

الأسباط.. حماة التوحيد

انطلاقاً من قول النبي ﷺ: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط) قدّمتُ لكم قبل أسبوعين ما توصّلتُ إليه من نتائج بخصوص المراد من الأسباط في القرآن الكريم، وفي هذا الحديث، ومراد النبي ﷺ من الإشارة إلى أن الحسن والحسين من الأسباط. وقبل أن أكمل صورة ما ذكرتُ في تلك الخطبة، أمرُّ بشكل سريع على بعض النقاط:

١. النبي يقول للمسلمين: لقد علّمتهم أمرَ الأسباط.. إنَّ شأنَ الحسنين كشأنَ الأسباط.

٢. ورد ذكر الأسباط في القرآن الكريم ٤ مرات، إلا أن الغموض يكتنف هويتهم.

٣. بالرجوع إلى العهد القديم من الكتاب المقدّس، وبعد التوراة وسفر يشوع وصي موسى، يأتي سفر باسم «سفر القضاة»، وبالعودة إلى الأصل العبري لعنوان هذا السّفر، كما جاء في الويكيبيديا تبين أنه «شِطِيم» جمع «شِيط» «שִׁטָּם» أي سفر الأسباط.

وقد أشكل بعض الأعضاء بأنه لا يمكن الاعتماد كثيراً على الويكيبيديا في التأكيد من أن المسمّى الأصلي للسفر هو «شِطِيم» «שִׁטָּם».

• مصادر متعدّدة:

موقع الويكيبيديا أحال إلى كتاب: «مقدّمة موجزة للعهد القديم: الكتاب المقدس العبري في سياقه» A Brief Introduction to the Old Testament: The Hebrew Bible in Its Context والمؤلف هو: مايكل ديفيد كوغان Michael David Coogan وهو محاضر في مادة العهد القديم باللغة العبرية

في كلية اللاهوت بجامعة هارفارد ومدير المنشورات للمتحف السامي بهارفارد.
وهناك مصادر أخرى عديدة ذكرت ما سبق، من بينها قاموس العهد القديم
باللغات العبرية والآرامية والإنجليزية المسمى:
A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament المطبوع سنة
١٩٠٦ لعدة مؤلفين من بينهم فرانسيس براون.

• تحديد العدد:

وبالرجوع إلى كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» ص ٤٨١، سنجد
جدولاً يشتمل على عدد وأسماء هؤلاء القضاة، وهم اثنا عشر، أحد عشر رجلاً
بالإضافة إلى امرأة!

أي لورجعنا إلى التاريخ بالترتيب، سنجد النبي موسى، فوصيه يوشع بن نون،
فأحد عشر سبطاً «قاضياً» ومعهم امرأة من الأسباط.. تماماً كما هو الحال مع
نبينا فعلي والزهراء وأحد عشر إمام!

• وصية موسى ثم يوشع:

وكان النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَام قبل وفاته قد أوصى بني إسرائيل بالأخذ بالتوراة
وبالانقياد لوصيه يوشع بن نون، وحذّره من الشرك بالله.

وقاد يوشع بني إسرائيل، وحقق لهم الانتصارات على أعدائهم الوثنيين،
وقبل وفاته قال لهم: (وَالآن اتَّقُوا الرَّبَّ وَاعْبُدُوهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، وَانْزِعُوا الْأَوْثَانَ الَّتِي
عَبَدَهَا آبَاؤُكُمْ...) «سفر يشوع: ٢٤/١٤».

وبعد زمن من وفاة يوشع، عاد بنو إسرائيل إلى الشرك وفعل الموبقات،
فابتلاهم الله بأعدائهم الذين استضعفوه، فجاء دور الأسباط لإعادة الناس
إلى توحيد الله وطاعته والخلص منهم.

جاء في كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» ص ٤٧٢: (يغطي سفرُ
القضاة ما يزيد على ٣٢٥ عاماً، مسجلاً ستَّ فترات متعاقبة من الاضطهاد
والحرية، مستعرضاً سيرة اثني عشر محرراً).

وفيه: (وسفر القضاة هو سفر الأبطال، إذ نجد فيه اثني عشر رجلاً وسيدة).
وفيه أيضاً: (وعندما نقرأ سفر القضاة، علينا أن نُلقي نظرة فاحصة على هؤلاء الأبطال... ملاحظين اتكالهم على الله وطاعتهم لأوامره).

• تحريف الحقائق:

بالطبع يجب أن أنبه أن هذا السفر كباقي أسفار الكتاب المقدس قد تعرّض للتحريف والتلاعب، ففي حين أنهم يُقرّون الدور العظيم الذي قام به الأسباط في الدعوة إلى التوحيد وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، إذ بهم ينسبون إليهم فعل بعض الأمور الشنيعة! تماماً كما فعلوا من قبل مع إبراهيم ولوط وداود وسليمان.

والذي يجعلنا مطمئنين من براءة الأسباط من تلك الاتهامات، أن الله ذكرهم في مصاف الرسل: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ «آل عمران: ٨٤».

• إنجازات متنوعة:

والآن فلنتحدث قليلاً عن إنجازاتهم.. فقد جاء في سفر الأسباط «١٢/٢- ١١» في وصف أوضاع بني إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون: (وَأَقْتَرَفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبُعْلِيمَ... وَغَوَوْا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ أَوْثَانِ الشُّعُوبِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ، وَسَجَدُوا لَهَا، فَأَغَاضُوا الرَّبَّ).

ثم جاء دور القضاة «١٨/٢»: (وَأَقَامَ الرَّبُّ مِنْ بَيْنِهِمْ قُضَاةً) وفي العبرية (וַיָּקָם יְהוָה، נִפְטִים; וַיִּנְשִׂיאוּם، מִיַּד נְשִׂיָהֶם) والكلمة الثالثة «נִפְטִים» وتقرأ «شفتيم - شفتيم» أي الأسباط.

ويبدأ السفر ببيان دور كل واحد من أولئك الأسباط، ويمكن تلخيص الأدوار التي قاموا بها كالتالي:

• إعادة التوحيد:

١. أعادوا بني إسرائيل إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته. فقد توالى مشهد عودة بني إسرائيل إلى الشرك مع وفاة كل واحد من أولئك الأسباط، ليأتي سبط آخر

ويعيدهم إلى الجادة. في سفر الأسباط «١٨-١٩/٢»: (وَيْفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ الرَّبُّ يُقِيمُ قَاضِيًا، كَانَ يُؤَيِّدُهُ بِقُوَّةٍ طَوَالَ حَيَاتِهِ... وَلَكِنْ مَا إِنْ يَمُوتُ الْقَاضِي حَتَّى يَرْتَدُّوا عَنِ الرَّبِّ وَيَنْفَاقُمْ فَسَادُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ تَفَاقُمْ فَسَادِ آبَائِهِمْ).

• التربية الروحية:

٢. التربية الروحية والإيمانية، وقد كان للسيدة الوحيدة بين الأسباط، واسمها دُبُورَة دور في ذلك.

في «التفسير التطبيقي» ص ٤٩٣: (وقصتها تثبت أنها لم تكن تسعى إلى السلطة، بل كانت تريد أن تخدم الله. وكلما مدحها الناس، كانت ترجع بالفضل إلى الله. لم تتكر وضعها في حضارة المجتمع كامرأة وزوجة، أو تتمرد عليه، ولكنها لم تسمح مطلقاً أن يكون ذلك عائقاً أمامها... وتضع أمامنا حياة دُبُورَة تحديات في جوانب عديدة، فهي تذكّرنا بالحاجة إلى أن نكون تحت تصرف الله... وتبين لنا بوضوح ما يستطيع شخص أن يعمل عندما يكون المسيطر هو الله).

وقد نقل لنا هذا السفر بعضاً من «أناشيدها» أي مناجياتها وابتهالاتها وأدعيتها.

• قتال الأعداء:

٣. خوض الحروب من أجل تحرير بني إسرائيل من العبودية والاضطهاد. فبعد أن غَضِبَ اللهُ على بني إسرائيل لشركهم غزاهم أحد الملوك فاستعبدهم ٨ سنوات وعندها: (اسْتَغَاثَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالرَّبِّ، فَأَقَامَ لَهُمْ مُخْلَصًا أَنْقَذَهُمْ هُوَ عُثْنِيئِيلُ بْنُ قَنَازَ أَخِي كَالْبِ الْأَصْغَرِ. فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ) «١٠-٩». ثم يصف النص كيف حرّر عُثْنِيئِيلُ بني إسرائيل من العبودية.

• التضحية والفداء:

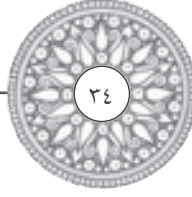
٤. التضحية والفداء من أجل المباديء والقيم التي نهضوا من أجلها، وتحملوا مسؤوليتها بأمر من الله تعالى، فتجد - على سبيل المثال - آخر الأسباط واسمه شمشون، وهو كما في «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» ص ٥١٩ (ممن آمنوا بالله، ونالوا ما وعدهم الله)، نجده يُدمّر معبد الوثنيين بتدمير العمودين الذين

يرتكز عليهما السقف، فإذا بالمعبد ينهار على الأصنام وعلى الوثنيين وعلى نفسه، وهو مُكَبَّلٌ بالقيود بعد أسره، وقد اقْتُلَعَتْ عيناه.

وبندائه في لحظة الفداء يُضْرَبُ المثل القائل: (عليّ وعلى أعدائي يا رب).

• دعوة للمزيد من التحقيق:

وهكذا تبين لنا من خلال العرض السابق كيف عملت الترجمة إلى اللغات المختلفة للتراث العبري للكتب السماوية وغيرها، وكذلك تبديل بعض الكلمات بكلمات أخرى، على ضياع مجموعة من الحقائق والمفاهيم على مدى مئات السنين، والتي كان بإمكانها أن تُرْشِدَ إلى بعض ما يشير إليه القرآن الكريم، كما في الآيات التي تحدّثت عن الأسباط، وما أشار إليه النبي ﷺ في حديثه إذ قال: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط)، وهذا ما يتطلّب من المحققين واللغويين أن يبذلوا المزيد من الجهود من أجل فكّ رموز بعض القضايا التي ما زال يكتنفها الغموض، ويمكن لها أن تفتح لنا آفاقاً جديدة من المعارف الدينية التي يزخر بها كتابُ الله عزَّ وجلَّ .



الخطبة الأولى

الذكر عند الإمام زين العابدين عليه السلام

عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام:
(إن أبي علي بن الحسين عليهما السلام ما ذكر الله عزَّ وجلَّ نعمةً عليه إلا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ فيها سجود إلا سجد، ولا دفع الله عزَّ وجلَّ عنه سوءً يخشاه، أو كيداً كائناً إلا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد، ولا وفق لإصلاح بين اثنين إلا سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده، فسُمِّي السجاد لذلك).

لا يستطيع الباحث المتجرد - ولو لم يقل بإمامة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بالمعنى الذي نتبناه - أن يفسر الثروة الإيمانية والروحية والأخلاقية المتوافرة في الصحيفة السجادية، وبشكل منقطع النظر، إلا من خلال أن يُدرك ويقرَّ أن تلك المضامين كانت نابعة من القلب.

أدعياء الدين كثر.. أصحاب الجباه السود كثر.. أهل المساجد كثر.. الذين يحملون المسابيح في أيديهم كثر.. الذين يطيلون لحاهم كثر.. ولكن كم منهم صادق في إيمانه وتقواه؟ كم منهم يتطابق ذكره اللساني مع ذكره القلبي، ومع ما يدور في عقله، وما تفعله جوارحه؟

نفس الإمام يحذرنا من بعض هذه النماذج الخادعة حيث قال: (إذا رأيتم الرجل قد حسنَ سمتهُ وهدْيُهُ، وتماوت في منطقهِ، وتخاضع في حركاتهِ، فرويداً لا يغرَّنكم، فما أكثر من يُعجزُهُ تناوُلُ الدنيا، وركوبُ الحرام منها، لضعف نيَّته

ومهانته وجُبن قلبه، فنصب الدين فخاً لها، فهو لا يزال يَخْتَلُ أي يخدع (الناس بظاهره، فإن تمكن من حرام اقتحمه....) ويسترسل عَلَيْهِ السَّلَام في التحذير من نماذج مشابهة لا يتطابق ظاهرها مع باطنها.

(اللهم يَا مَنْ ذَكَرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ) وهذا من دعاء الإمام زين العابدين في خواتم الخير (وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعَتُهُ نَجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وَأَلْسِنَتَنَا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وَجَوَارِحَنَا بِطَاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ) هكذا كان الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام وهكذا يجب أن يكون ذكرنا لله: (وَأَجْعَلْ خَتَامَ مَا تُحْصِي عَلَيْنَا كِتَابَةَ أَعْمَالِنَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً لَا تَوْقِفُنَا بَعْدَهَا عَلَى ذَنْبٍ اجْتَرَحْنَاهُ، وَلَا مَعْصِيَةٍ اقْتَرَفْنَاهَا. وَلَا تَكْشِفْ عَنَّا سِتْرًا سَتَرْتَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، يَوْمَ تَبْلُو أَخْبَارَ عِبَادِكَ. إِنَّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعَاكَ، وَمُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاكَ) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الخطبة الثانية

لكي لا ينسانا الله

في القرآن الكريم حديث متكرر عن النسيان، وعن نتائج وتبعات وعقوبات الذين ينسون العهد مع الله.. بدأ مع آدم عَلَيْهِ السَّلَام، ومرر بعبدة أقوام، محذراً المسلمين من تكرار التجربة.

وعندما نتحدث عن النسيان الوارد في الآيات القرآنية، فليس المراد منه دائماً «عدم التذكّر»، بل استعمل هذا اللفظ في عدة موارد مجازاً وللدلالة على الإهمال وعدم المراعاة والتراخي، فالذي تناول المفطر – مثلاً – وهو ناس أنه على صيام لا يؤاخذ تكليفاً فليس بمرتكب حرام، ولا وضعاً، فصومه صحيح أيضاً.

وفي وسائل الشيعة عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام عن رسول الله ﷺ قوله: (رُفِعَ عَنْ أُمْتِي

تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما أُكْرهُوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضْطُرُّوا إليه، والحسد) ولعل المراد منه المشاعر دون ما يُترجم إلى قول أو فعل ولنلاحظ نهاية الحديث ففيه دلالة على ذلك، وهذا لا يعني التشجيع عليه أو عدم تأثيره السلبي على النفس بحيث يفسح الإنسان لنفسه أن يحسد بهذه الحدود، كل ما في الأمر أن النبي يبيِّن رحمة الله، وهكذا بالنسبة إلى العنوانين التاليين (والطَّيْرَة، والتفكر في الوسوسة في الخلوة، ما لم ينطقوا بشِفَة) فإذا ترتَّب الأثر الخارجي حوسب الإنسان.

• قابلية للتراخي:

من نماذج الحديث القرآني عن النسيان – أي الإهمال وعدم المراجعة والتراخي – ما جاء في سورة طه ١١٥-١٣٢ وبدأت بقصة آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

لنلاحظ أولاً كي نفهم معنى النسيان هنا، فإبليس عندما أراد إغواء آدم ذكره بكلام الله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِّنَ النَّاصِحِينَ﴾ «الأعراف: ٢٠-٢١» أي أن آدم لم يكن ناسياً بمعنى عدم تذكر التحذير الإلهي، بل أهمل الأمر الإلهي ولم يراعِه، وصدَّق القسم الذي جاء به إبليس.

الإنسان كفرد، والبشر كجماعة، لديهم القابلية لأن يصدر عنهم الإهمال والتراخي وعدم المراجعة، وهذه الحالة خطيرة حذر منها القرآن عدة مرات وضرب عليها الأمثلة. وفي سورة الأنبياء: ٤٤ يبيِّن الله سُجْحَانَهُ وَتَعَالَى خطورة الاستسلام لهذا النوع من النسيان: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ المشركين ﴿وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ امتدَّ بهم الزمان وترتَّب على ذلك أنهم:

١. شعروا بالقوة.. قوة الصحة والعافية والمال والترف والرفاهية والامتداد بالذرية.

٢. أهملوا حقيقة الموت المتربِّص بهم

٣. كفروا بالحياة الآخرة، وبالحساب والعقاب والثواب

أين ذهبت عقولهم؟ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾
أفلا يرون الناس يموتون من حولهم؟ أليس في هذا واعظ لهم كي ينتبهوا إلى
مصائرهم، ويضعوا في حساباتهم احتمال البعث والحساب؟

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ هل يتصورون أن بإمكانهم قهر الموت وتقدير الأمور كيف
يشاؤون؟ هذه واحدة من مخاطر إهمال ذكر الله ﷻ وذكر الموت والآخرة وأن
هذه الحياة مؤقتة.. من مخاطر الاستغراق في هذه الحياة وشؤونها بالمستوى الذي
يجد فيه الإنسان نفسه كحال أولئك المشركين، فيصبح كل تفكيره وهمّه وجهده
لهذه الحياة، ليأتي يوم القيامة مفلساً.

هذا النموذج عبّر عنه القرآن بالصورة التالية: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي أهملوا ذكر
الله ﷻ وأوامره ونواهيه ﴿فَنَسِيَهُمُ﴾ «التوبة: ٦٧» أي ساهمهم الله وسيسلب عنهم
رحمته. هذا الإهمال منهم أدى إلى ما بدأت به نفس الآية السابقة «التوبة: ٦٧»:
﴿يَأْمُرُونَ بِالنَّكْرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.. وهذا كله من نتائج
هذا النسيان والإهمال والتراخي.

• الاعتبار بقصة آدم:

ثم يقدم الله في سورة طه - بعد ذكر قصة آدم - العبرة منها وذلك بتقديم
القاعدة الضامنة للنجاة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ واتباع الهدى يحتاج إلى التذكر
الدائم وهو بدوره يحتاج إلى أدوات:

١. حضورك في المساجد.. عن الإمام علي عليه السلام: (مَنْ اخْتَلَفَ إِلَى الْمَسْجِدِ
أَصَابَ إِحْدَى الثَّمَانِ: أَخًا مُسْتَفَادًا فِي اللَّهِ، أَوْ عِلْمًا مُسْتَطَرَفًا، أَوْ آيَةً مُحْكَمَةً، أَوْ
رَحْمَةً مُنْتَظَرَةً، أَوْ كَلِمَةً تَرُدُّهُ عَنِ رَدَى، أَوْ يَسْمَعُ كَلِمَةً تَدُلُّهُ عَلَى هُدًى، أَوْ يَتْرَكُ
ذَنْبًا خَشِيَةً أَوْ حِيَاءً).

٢. ذهابك إلى الحج والعمرة.

٣. حضور الجنائز وزيارة المراقد والمقابر.

٤. تلاوة كتاب الله والاستماع والإنصات إليه.

٥. الدعاء.

٦. الجلوس إلى إخوانك الذين يذكرونك بالله وبالآخرة.. وأمثال ذلك..
وعندها ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ هذا النموذج من الناس في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة.

• مخاطر المخالفة:

وأما مخاطر ونتائج مخالفة هذه القاعدة وإهمال ذكر الله ﷻ فالكالتالي:
١. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ في الحياة الدنيا. من طبيعة النفس البشرية أن لا تشبع، فهي في نهم مستمر.. للمال، للغريزة الجنسية، للجاه، للشهرة.. كل إنسان بحسبه.

وكل هذا يستتبع الحسد، والتفكير المنهك، والقلق، والاكتئاب، وآلام المعدة والقلول والرأس. إلخ. وإذا دخل في المجالات غير القانونية فمصيبة أخرى.. سجن وملاحقة وخوف، والقائمة تطول.

٢. ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، قَالَ رَبُّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿إهمال الإنسان وتراخيه أوصله إلى هذه النتيجة، حيث سيهمله الله وسيسلب عنه رحمته في الآخرة.

٣. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وهذه من نتائج ذلك الإهمال الذي عاشه هذا النموذج في الدنيا:

أ- الإسراف في المعاصي والاستغراق في الدنيا..

ب- ثم عدم التأثر بكل الدلائل المنبّهة له والتي كانت تسعى لفتح عينيه على الحقيقة... والله عادل حين يهمله في الآخرة.

٤. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾. تجارة خاسرة بكل المقاييس. من حيث النوع، ومن حيث الامتداد.

• توافر عوامل التذكّر:

ثم تستدرك الآيات لتؤكد حقيقة أن عوامل عدم الغفلة عن ذكر الله والآخرة

موجودة: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ والعقول.

والمطلوب منك أن تفتح عينيك، وأن تفكر بشكل سليم، وتحسبها صح، تماماً كأي إنسان حاذق يريد دخول عالم التجارة حيث يأخذ بعين الاعتبار الجدوى الاقتصادية، والتكلفة، والأرباح، وغير ذلك.

٥. من نتائج الإهمال والاستغراق في التلهي عن ذكر الله والآخرة، سوء تفسيرهم لعدم المعاقبة العاجلة في الدنيا، وهذا بدوره سيساعد على المزيد من التراخي والإهمال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ أن نغذبهم في الدنيا على ما يقتربون ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فهناك نهاية للطريق، ثم يُبعثون.. وكل ما يصدر عن الله من تأجيل عقوبة الاستئصال يصدر عن حكمة ولغرض.

• خطوات للتذكّر:

وتكمل الآيات بعرض المطلوب من الإنسان المؤمن الذي يتطلّع إلى أن يذكره الله في الآخرة:

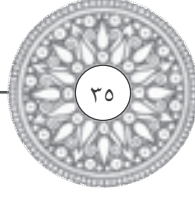
١. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ والذي يعين الإنسان على الصبر أمور:
٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ وهذا المزيج من الصبر والذكر اللساني قد يوصلك إلى الطمأنينة النفسية وبالتالي ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.
٣. ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فمثل هذه المقارنات مُتعبة وتزرع عدم الرضا بقضاء الله وتدفع إلى الحسد، والبخل، والكثير من الرذائل، ونتيجتها أن تجذبك إلى الدنيا وتجعلك تغفل عن ذكر الله والآخرة.
٤. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ انهض بمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووقّر حولك الأجواء الإيمانية.
٥. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ حبّ الصلاة إلى نفسك، ولا تعتبرها مجرد تكليف تريد إسقاطه، أو أمراً يحتاج إليه الله، وحينها ستشعر

بتأثير هذه الصلاة في حياتك إيجاباً وتجعلك من أصحاب النفوس المطمئنة.

٦. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ وهذا هو العامل الآخر الذي سيجعل الإنسان من المستحقين لعناية الله ورحمته في الآخرة. فالتقوى صمام الأمان الذي يصلح مسيرة الإنسان كلما ضغطت الشهوات عليه، وكلما زين له الشيطان المعاصي، وكلما أغرته الدنيا بزخرفها وزبرجها.

• التذكّر الواعي:

إنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ عندما يأمرنا بأن نذكره، فالمطلوب أن نذكره عن وعي وبصيرة، أن نذكره لكي نهتدي، أن نذكره لكي نُصلح أحوالنا، أن نذكره لكي ترتقي أخلاقنا، أن نذكره لكي نرفع منسوب التقوى في نفوسنا، وهذا ما سيجعلنا مستحقين لذكره إيانا في الآخرة، ولا نكون من الذين نسوا الله في الدنيا فنسيهم في الآخرة، وحشرهم عمياً لا يهتدون، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.



الخطبة الأولى طين وروح وعقل

لا ينظر الإسلام إلى الإنسان باعتباره قبضة من طين فحسب، بل قبضة من طين ونفخة من روح الله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾.

هذا التعبير لا يعني أنَّ في الإنسان شيئاً من الألوهية، ولكن فيه شيء من نفحات الله وإبداعه، بالمستوى الذي أمر الله ملائكته بالسجود لآدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ «ص ٧١-٧٤».

والعقل الإنساني المتميز هو الإبداع الأبرز في خلقه، ومن هنا نفهم ما جاء في الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ أَقْبَلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتَ خَلْقاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ. بَكَ آخِذٌ، وَبَكَ أُعْطِي، وَعَلَيْكَ أَثِيبُ).

فالملائكة تشترك مع الإنسان في أنها تمتلك عقلاً، إلا أن عقلها ليس خلاقاً ولا مبدعاً، فالملائكة لا تبني حضارة، ولا تُطوِّر أدوات، على عكس الإنسان الذي يمتلك عقلاً قادراً على تطويع وتطويع ما حوله لصالحه.

• الإبداع الأبرز:

ولربما إلى هذا تشير الآيات التالية حيث استغربت الملائكة من خلافة

الإنسان في الأرض، وتساءلت: ما الذي يميّز هذا المخلوق الطيني؟

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ «البقرة: ٣١-٣٣». ألم أقل لكم إنّ في هذا المخلوق الطيني سرّاً وراء ظاهره البسيط؟ لقد أعطيته عقلاً قادراً على أن يضع لما حوله أسماءً تميّز بها عن بعضها البعض، وأن تكون هذه الأسماء ذات ارتباط بالموجودات الخارجية بنحو من الارتباط، من حيث الشكل أو الصفات الأخرى كاللون أو الطعم أو الحجم أو الصلابة إلخ.

• عقل خلاق:

وكانت هذه هي بداية ظهور خلاقية العقل البشري، هذه الخلاقية التي مكّنته من صنع الحضارات على مدى التاريخ وغزو الفضاء واكتشاف المخلوقات التي لا تُرى بالعين المجردة وتحدي الطبيعة...

ولذا كان من المنطقي أن يحوط الله هذا الخلق الإبداعي بتشريع:

١. يحفظ له إمكانية قيامه بدوره الطبيعي.

٢. ويمنع الإنسان من التعدي على هذا الدور.

٣. ويمنعه مما يؤدي إلى تعطيل عمله.

هذا التشريع يتمثل في تحريم تناول ما يُذهب العقل «المسكرات». وإذا كان المصداق الأبرز لذلك هو الخمر في زمن نزول التشريع، فإنّ الدائرة في هذا الزمان أوسع من ذلك، إذ أصبحت تشمل أنواعاً من المواد المخدّرة وعقاقير الهلوسة وغير ذلك. ولنا وقفة مع هذه النقطة في الخطبة الثانية بإذن الله عزّ وجلّ.

الخطبة الثانية المُسكرات.. عنوان المهانة

في الأساس لا يحتاج الإنسان إلى تشريع كي يمتنع عن تناول المُسكرات، فالذين رأوا تأثير المسكرات على متناوليتها احترموها شخصياتهم وعقولهم، وامتنعوا عنها تلقائياً وبلا تشريع.. وهكذا بالنسبة إلى الذين جرّبوها وندموا لما صدر عنهم أثناء ذهاب عقولهم.

• نماذج من العهد الجاهلي:

في الجاهلية - كما روى صاحب السيرة الحلبية - حرّم عبد الله بن جدعان القرشي «وكان من سادات قريش على عهده» على نفسه الخمر بعد أن كان مُغرماً بها، والسبب في ذلك أنه سكر ذات ليلة وصدرت عنه مجموعة من التصرفات المشينة بشخصيته، من بينها أنه مدّ يده نحو ضوء القمر ليمسكه، فضحك منه جلساؤه، ولما أفاق وعلم بما جرى، حلف أن لا يشربها أبداً.. لماذا؟ لأنه احترم شخصيته واحترم عقله.

وللصحابي الجليل المهاجر عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذي لم يشرب الخمر في الجاهلية كلمة جميلة تلخص الفكرة، قال: (لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد) ففاقد العقل يصدر عنه ما لا يريد حين يكون في وعيه.

ومثل ابن مظعون كان الشهيد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (أوحى الله تعالى إلى رسول الله ﷺ إني أشكر لجعفر بن أبي طالب أربع خصال) هذه الخصال كانت من جعفر قبل الإسلام (فدعاه النبي ﷺ فأخبره) وبالتالي أحب أن يعرف تلك الخصال، فقال جعفر

متواضعاً ومتجنباً الرياء: (لولا أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أخبرك ما أخبرتك: ما شربتُ خمرًا قط، لأنِّي لو شربتها زال عقلي. وما كذبتُ قط، لأنَّ الكذب يُنقصُ المروّة) أي يُسقط من شخصية الإنسان (وما زنيت قط، لأنِّي خفت إذا عَمَلْتُ عَمَلِ بي. وما عَبدْتُ صنماً قط، لأنِّي علِمْتُ أنه لا يضر ولا ينفع. فضرب النبي (ص) على عاتقه وقال: حقُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنّة) أي أن هذه البشارة كانت قبل أن يشترك في غزوة مؤتة ويستشهد. هكذا يكون الإنسان الذي يحترم شخصيته ويحترم أعظم شيء في تكوينه.. عقله.

ومثل هذه الشخصيات آخرون ذكّرهم التاريخ كالشاعر النابغة الجعدي، وأمّية بن أبي الصلت، وحرام جد جابر الأنصاري والذي لُقّب بحرام لأنه حرّم الخمرة على نفسه، وقيس بن عاصم بن سنان، ومقيس بن صبابة السهمي، وكلهم حرّموا المسكرات على أنفسهم احتراماً لعقولهم.. إما بعد الوقوع في تجربة مريرة، أو من خلال تجارب الآخرين من حولهم.

• نزول التشريع بالتحريم:

ومع أن الأمر في الأساس لا يحتاج إلى تشريع - كما ذكرت - إلا أن كل الشرائع السماوية - بحسب الرواية التالية - حرّمت على أتباعها ذلك، فعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام: (ما بعث الله نبياً قط إلا وقد علّم الله أنه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر، ولم تزل الخمر حراماً).

وإذ كان عنوان الخمر يغلب على عهد النبي على المسكر المستخرج من العنب، فلربما حاول البعض أن يجد لنفسه ثغرة بشرب المسكر المصنوع من غير العنب، فقال النبي ﷺ كما روى ذلك الشيخ الطوسي في الأمالي عن النعمان بن بشير أنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيها الناس! إن من العنب خمرًا، وإن من الزبيب خمرًا، وإن من التمر خمرًا، وإن من الشعير خمرًا، ألا أيها الناس! أنهاكم عن كل مسكر).

• إجراء إضافي:

ومع النهي اتخذ النبي ﷺ إجراءً إضافياً ووقائياً، يتمثل في نوع من المقاطعة

الاجتماعية بهدف الردع، ففي رواية عن الصادق عليه السلام أنه قال: (قال رسول الله ﷺ: مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ مَا حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى نَاسِي، فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُزَوَّجَ إِذَا خُطِبَ، وَلَا يُشْفَعَ إِذَا شُفِّعَ، وَلَا يُصَدَّقَ إِذَا حَدَّثَ، وَلَا يُؤْتَمَنَ عَلَى أَمَانَةٍ، فَمَنْ ائْتَمَنَهُ بَعْدَ عِلْمِهِ فَلَيْسَ لِلَّذِي ائْتَمَنَهُ عَلَى اللَّهِ ضَمَانٌ، وَلَيْسَ لَهُ أَجْرٌ، وَلَا خُلْفٌ) أَي مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَخَسِرَ مَالَهُ فَلَا يَتَوَقَّعُ مِنَ اللَّهِ الثَّوَابَ وَأَنْ يُبَدِّلَهُ عَمَّا خَسِرَ.

وفي رواية أن الصادق عليه السلام سأل أباه الباقر عليه السلام عن السبب في ذلك فقال: (لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ «النساء: ٥») فهل تعرف سفيهاً أسفه من شارب الخمر؟ قال: ثم قال: لا يزال العبد في فُسْحَةٍ مِنَ اللَّهِ حَتَّى يَشْرِبَ الْخَمْرَ، فَإِذَا شَرِبَهَا خَرَقَ اللَّهُ عَنْهُ سَرِبَالَهُ كَنَايَةً عَنِ السُّتْرِ، فَيُفْضَحُ نَفْسَهُ أَوْ لَا يَكُونُ صَاحِبَ حَيَاءٍ وَعِفَّةٍ وَحِشْمَةٍ (وكان وليه وأخوه إبليس، وسمعُه وبصرُه ويدهُ ورجلهُ، يسوقه إلى كل شر، ويصرفه عن كل خير).

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ: (شاربُ الخمر لا يُعاد إذا مرض، ولا يُشهد له جنازة).

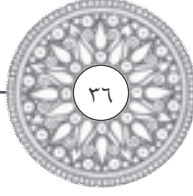
وفي ثالثة عن الصادق عليه السلام أن زنديقاً قال له: (لم حرم الله الخمر، ولا لذة أفضل منها؟ قال: حرّمها لأنها أمُ الخبائث، ورأسُ كل شرٍّ، يأتي على شاربها ساعة يُسلبُ لُبُّه، فلا يعرف ربّه، ولا يترك معصية إلا ركبتها، ولا يترك حُرمة إلا انتهكها، ولا رجماً ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها. والسكران زمامه بيد الشيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيثما قاده).

• رسالة إلى شبابنا وأولياء الأمور:

في الختام رسالة أوجهها إلى شبابنا الأعزاء لا سيّما الذين يفتحون على تجربة السفر إلى بلاد لا يُمنع فيها بيع المُسكرات.. سواء بغرض الدراسة أو السياحة.. وإلى أولياء أمورهم أيضاً: العقل هو أكرم وأعظم شيء في الإنسان.. وبه امتاز الإنسان عن البهائم.. وبالمسكرات من أنواع الخمر والمخدرات وحبوب الهلوسة وأمثالها يتنازل الإنسان عن قيمته وشخصيته وكرامته، ويعرض نفسه إلى المهانة والذلة لينحطّ بذلك إلى ما دون مستوى البهيمة. انظروا حولكم

كيف تتدمر الأسر بسبب إدمان رب الأسرة على المُسكر.. كيف يعيش الأب المدمن لحظات الذلّ وهو يبكي ندماً لأنّه يرى نفسه عاجزاً أمام وضع أسرته المزري.. وحقد أبناؤه عليه.. وكراهية زوجته له.. ولربما جرّه ذلك للاعتداء عليهم ضرباً وإهانة.. حتى إذا أفاق عضّ أصابع الندم على ذلك.

أولياء الأمور أمامهم مسؤولية مهمّة بأن ينتبهوا إلى أجواء الصداقة التي تحيط بأبنائهم في تلك البلاد.. لا يكفي أن ترعى ابنك مادياً بتوفير المسكن الملائم.. كما لا يكفي أن تتابع تقدّمه الدراسي، وإن كان ذلك هو الأساس في تغريبه.. بل احرص أيضاً على أن تجد له الرفقة الطيّبة التي تذكّره بصلاته.. وبعلاقته برّبّه وهو في زحمة الانشغال في دراسته.. فإنّ الأصدقاء والأجواء المحيطة بالشباب هي العامل الأقوى والأكثر تأثيراً في سلوكياتهم وفي رسم معالم شخصياتهم.



الخطبة الأولى

والأ... فمصيبتك أعظم

في ذكرى استشهاد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام نتوقف مع حكمة رواها عنه الأمير ورام في كتابه «تنبيه الخواطر ونزهة النواظر» أو «مجموعة ورام»، وورام بن أبي فراس الحلبي من نسل مالك الأشتر، كان قائداً عسكرياً، ثم انصرف إلى العلم وغدا من العلماء الزهاد الممدوحين «ت٦٠٥هـ».

في الخبر الذي رواه أن الإمام عليه السلام عزى رجلاً مات بعض ذويه فقال له: (إن كانت المصيبة أحدثت لك موعظة، وكسبتك أجراً، فهو، وإلا فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ميتك).

• البكاء من الفطرة.. ولكن:

من الطبيعي أن يحزن الإنسان عند فقد العزيز، وأن يبكي.. بكى آدم.. وبكى من جاء بعده.. وهكذا بكى رسول الله ﷺ عند فقد ابنه الرضيع إبراهيم.. وبكى حين أخبره الوحي أن الحسين سبطه العزيز على قلبه سيقتل.. وبكى من جاء بعد رسول الله.. هذه هي طبيعة الإنسان.

والبكاء في نفسه غير منافي للصبر، ولا للرضا بالقضاء.. نعم، بعض الأمور المصاحبة له قد تمثل تعبيراً عن الجزع وعدم الرضا بقضاء الله وقدره، وقد مثل لذلك في الأحاديث الشريفة بشق الثوب، ولطم الوجه وخذشه، والصراخ بالويل والعويل، وهي أمور منهي عنها في الشرع.

فأين الخطأ؟ .. الخطأ أن يحبس الإنسان هذا الحدث في إطار المشاعر، ولا يحوِّله إلى فكرة عملية تغيّر واقعَه إلى الأفضل.. بأن يقترب إلى الله أكثر.. وبأن يعود إلى إنسانيته أكثر.

• ابكِ على نفسك:

هذا ما نبّه عليه الإمام المجتبي عليه السلام وكأنه يقول: إن لم تتعظ، فإنّ نفسك أولى بالبكاء عليها من بكائك على فقيدك.

ابكِ على نفسك إن لم تتعظ باللحظات الأليمة التي عايشتها وشاهدت فيها الحقيقة بألم عينك.. حقيقة أنّ الموت لك بالمرصاد.. وأنّه لا يبقى لك من هذه الدنيا إلا إيمانك وعملك الصالح.

لا البناء الفاخر سيبقى لك.. ولا السيارة الفارهة.. ولا الثروة المتراكمة.. ولا آلاف المشجعين والمصفّقين.. ولا المنصب والكرسي الذي قاتلت من أجل أن تحصل عليه.. لن يبقى لك شيء من هذا عندما تواجه لحظة الحقيقة. فهل ستكون لحظة مصابك بعزيرك هي لحظة التغيير في حياتك.. أم ستغلق ملف المصيبة بعد أن اكتفيت بملئه بأهات الأحزان، لتعود إلى سيرتك الأولى؟ اللهم بصّرنا بأمر ديننا ووفقنا لما تحب ربنا وترضى.

الخطبة الثانية

دم .. لفطير صهيون

﴿كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَى وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مَنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مَنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢-١١٠﴾ «آل عمران».

يعيش اليهود - كشعب - عبر التاريخ حالة من العقدة المتأصلة بسبب:

١. الجرائم الكثيرة التي قاموا بها.

٢. والنفس الخبيثة التي لا تتورّع عن إلحاق الأذى بالأغيار «الجوئيم» وبأشنع الصور.

• روايتان:

أما منا رواية «تاجر البندقية» للأديب الإنجليزي «وليم شكسبير» حيث يطالب المرابي اليهودي برطل من لحم المدين لتعثره في سداد دينه.

ورواية «دم لفطير صهيون» للروائي المصري «نجيب الكيلاني» والتي تحكي حادثة قتل «الأب توما» على يد اليهود في إحدى حارات دمشق القديمة على عهد محمد علي باشا، وذلك تلبيةً لطقس يهودي يتطلب مزج دم قتيل من الأغيار بفطير يأكلونه في يوم عيد لهم.

هاتان الروايتان اللتان جاءتا في زمنين متغايرين، ومن قبل أدبيين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين، وإلى شعبين متباينين، تعكسان صورة اليهود لدى الأمم التي تعاملت معهم بشكل مباشر، وذاقت الأمرين من نفسيتهم المعقدة وانعكاسات تلك النفسية.. الانعكاسات التي قدّمتها الآية الشريفة كالتالي: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

وقد بيّنت الآية الشريفة - وبوضوح - الحالة النفسية التي باتت تلازم اليهود أينما كانوا بسبب ذلك العصيان والعدوان المنطلق من النفسية المعقدة بقول الله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا﴾ وفي قوله جلاله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾. و﴿ضُرِبَتْ﴾ تعني أن هذه الحالة من الدلّة والهوان والشعور بالهزيمة النفسية باتت هي حالتهم الأصلية أينما وجدوا.. صارت مصيرهم المحتوم.. أثبتت عليهم.. وشملتهم.

• حالة استثنائية:

واستثنت الآية حالة يستطيع من خلالها اليهود الخروج من وضعية المهانة والذل: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾. إما أن يرضى عنهم الله فيوفّقهم للخروج من هذه الحالة، وهذا لن يحصل.. لماذا؟ الآية بنفسها تجيب: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

وإما أن يقوم الناس بتهيئة الظروف لهم، فيُسهّلون لهم بالتالي مهمّة الخروج من حالة الذل والهوان.. وحينها سيقفز اليهود إلى المواقع التي تركها الآخرون، أو سهّلوا لهم أمر السيطرة عليها، فيستعيدون شيئاً من القوة التي سيوظّفونها من جديد في الإفساد في الأرض.

إذاً نحن الذين نفتح لهم الطريق كي يُعربدوا كما شاءوا... ولو تحمّلنا مسؤولياتنا كما ينبغي لأعدناهم إلى وضعهم الأصلي وصورتهم الحقيقية.. صورة المهانة والذل.

• لماذا خير أمة؟

ومن هنا نفهم موقعية الآية الأولى مما تلوت: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أيها المسلمون! يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لكم: إذا تحمّلتُم هذه المسؤوليات أصبحتم أعزّة وأرجعتم اليهود إلى وضعهم الأصلي.. وضع الذل والمهانة. وأما إذا مددتم لهم حبل النجاة.. إذا مكّنتموهم من هذا الحبل.. إذا تراجعتم عن إيمانكم بالله وعن قول الحق وعن مسؤولياتكم تجاه باطلهم، فسيعودون إلى طغيانهم وظلمهم وإفسادهم في الأرض.

لماذا تخافون منهم؟ هل تخافون أن يمحّوكم عن الوجود؟ إنهم ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.. هم لا يملكون أسباب محوكم من الوجود.. كل ما يملكونه هو إثارة المشاكل. بل وحتى لو وصل الأمر إلى حد الصراع الميداني العسكري ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾.. فما هي المعادلة إن صمدتم في وجههم؟ ﴿يُؤَلِّقُكُمُ الْآذِبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾.

• إذلال الصهاينة في ٢٠٠٦:

وهذا ما ثبت عملياً في عدوان ٢٠٠٦ على لبنان... وكلنا يتذكّر مشهد هروب المقاتلين الصهاينة وعويلهم، واصطِيَادَ دباباتهم الأسطورية وتدميرها، وسقوط قوَّات النخبة لديهم في الكمائن التي نصبت لهم.

إذاً، يقول لنا الله عَزَّوَجَلَّ: الأمر بأيديكم.. هم أذلاء خاسئون يعيشون الهزيمة النفسية، ولكن أنتم الذين تقررون مصيركم أمامهم.. هل تعطونهم أسباب القوة وتسلمون إليهم رقابكم، أم لا.

• موقف رئيس مجلس الأمة:

قبل أيام تجلّى هذا المشهد واضحاً في مؤتمر الاتحاد البرلماني الدولي الذي عُقد في روسيا.

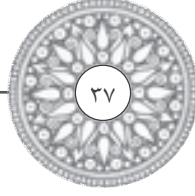
فبعد الكلمة التي ألقاها رئيس مجلس الأمة الكويتي وضمّنها الموقف الشعبي والرسمي لدولة الكويت من الكيان الصهيوني وجرائمه، ومن احتلال فلسطين.. (إنها فلسطين) والكلمات له (ليس غيرها.. فلسطين الأرض العتيقة، فلسطين أرض الديانات والأنبياء، فلسطين الجرح المفتوح، القاتل والمقتول، هناك تتجسد كلمة احتلال).

بعد هذه الكلمة التي تضمّنت العديد من صور الجرائم الصهيونية، وما أعقب ذلك من ردّ وفد الكنيسة الإسرائيلي عليها، جاءت اللحظة الفارقة.. وضمن مداخلة لم تتجاوز خمساً وأربعين ثانية.. خمس وأربعون ثانية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. خمس وأربعون ثانية من كلمة حق كانت كفيلاً بأن تسقط عن الصهاينة كل الخيلاء والغطرسة التي يعيشونها.. وما تمتّعوا بها إلا بحبل منّا.. بتنازلاتنا.. بصمتنا.. بمواقفنا المتخاذلة.. بلهات البعوض وراء السلام المزعوم مع كيان ذليل في دخيلة نفسه، كيان لا يعرف وسيلة لردعه إلا لغة القوة.. كلمة عرّتهم وأعادتهم إلى حجمهم الحقيقي ووضعهم الأصلي.. ليحملوا حقائبهم مطرودين، أذلة صاغرين، وقد صدحت قاعة المؤتمر بالتصفيق لهذا الموقف الكويتي الشجاع.

وطرب الناس على مواقع التواصل الاجتماعي بهذا النبأ.. وأصبح اسم رئيس مجلس الأمة الكويتي ثانيَ وسم أو هاشتاق في التويتر على مستوى العالم في ذلك

اليوم، احتفاءً بموقفه.. مما يكشف عن أنَّ ضمير الشعوب العربية والإسلامية ما زالت نابضة بالحياة في موقفها من المحتل الصهيوني، وأنَّ محاولات التطبيع مع الكيان الغاصب مصيرها الفشل المحتوم متى ما تحمّلت هذه الشعوب مسؤوليتها في قول كلمة الحق بشجاعة، وخاصةً إذا تلاحم الموقف الرسمي مع الموقف الشعبي من هذه القضية، كما تجلّى ذلك في الكويت من خلال برقية الإشادة التي بعث بها أمير البلاد واستقباله الحافل لرئيس وأعضاء الوفد البرلماني، ليؤكد الموقف الكويتي الصامد ضدّ التطبيع مع الكيان الصهيوني، والذي يأتي نتيجة تمتّع الشعب بهامش من الحرية والمشاركة في اتخاذ القرار السياسي، مما يساعد على تقارب موقفه من هذه القضية مع الموقف الرسمي، وعلى استقواء الموقف الحكومي بالموقف الشعبي في المحافل الدولية.

ومن حقنا أن نتساءل هنا عن سرّ الهجمة المفاجئة التي واجهها رئيس مجلس الأمة فوراً بعد عودته من ذلك المؤتمر من قبل بعض الأطراف الداخلية، وأنا لست معنياً بالدفاع عن شخصه، وإنما من حقنا أن نتساءل عن سرّ التوقيت، وما وراء الأكمة.



الخطبة الأولى تغيير المشاعر والقناعات

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «الأنفال: ٦٢-٦٣».

ليس من السهل تغيير الإنسان، سواء في قناعاته، أو في مشاعره، أو في مواقفه.. فكيف لو كان المراد هو التغيير إلى المستوى الذي وصفه القرآن الكريم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ «الحشر: ٩».

الآية واضحة جداً... فالنبي الأكرم ﷺ بكل عظمته، وشخصيته، وأخلاقه، وقدراته الذاتية، لم يكن بإمكانه إحداث ذلك المستوى من التغيير الذي طرأ على المهاجرين والأنصار. فالعوامل المختلفة التي كانت تؤثر في مشاعرهم المتبادلة وعلى قناعاتهم، وبالتالي على مواقفهم، كانت عنيفة جداً، وحادة جداً.. التناقضات كانت كبيرة.

فمن جهة الانتماء إلى بلدين مختلفتين، فهؤلاء من مكة وهؤلاء من المدينة، ثم الذين قدموا من مكة أصحاب انتماءات أسرية بل وقبيلية مختلفة، وكانت بينهم منافسات، وتذكر قصة وضع الحجر الأسود في مكانه بعد إعادة بناء الكعبة

المشرفة، بل كانت بينهم صراعات وتحالفات متباينة، كما في قضية حلف الفضول. ثم إنَّ بعضهم عرب وبعضهم موالى وبعضهم سادة وبعضهم مستضعفون.

وكان هناك صراع طويل وعنيف بين الأوس والخزرج، وبينهم ثارات، بالإضافة إلى دور يهود المدينة في إثارة الأحقاد والنزاعات بين القبيلتين.

كل هذه العوامل وغيرها كانت تجعل من مسألة التغيير تلك وبذلك المستوى أمراً شبه إعجازي، ولذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾.

والآن، إذا كنا نتحدّث عن مستوى أقل من تغيير القناعات والمواقف، وتبديل مشاعر الآخرين السلبيّة أو المنعدمة.. فماذا سيتطلّب الأمر؟ سأحدث عن جانب من ذلك في الخطبة الثانية بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

الخطبة الثانية

نظرة على مشروع تحصين

هناك مستويات من التغيير يمكن تحقيقها على مستوى تغيير قناعات الناس ومشاعرهم، ولكن الأمر يحتاج إلى عمل ومبادرة. ومن صور المبادرات قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ «فصلت: ٢٤». هذا إنجاز ومستوى من النجاح.

• ألمانيا والولايات المتحدة:

ألمانيا في الحرب العالمية الثانية كانت في حالة حرب وعداء مع الولايات المتحدة، والمفاهيم والمواقف والمشاعر لدى غالبية الألمان – بالتأثير النازي – كانت

عنيفة جداً ضد المعسكر الآخر. فكيف تبدّلت هذه الحالة بعد خمس عشرة سنة من انتهاء الحرب فقط، بحيث صار غالبية الألمان ولاسيما في ألمانيا الغربية ينظرون إلى أمريكا وكأنها «الجنة»؟

• إعادة برمجة الألمان:

هناك مقال مثير تحت عنوان «كيف نهضت ألمانيا بعد الحرب؟» يتحدث فيه كاتبه عن الخطوات التي تمّ اتخاذها في هذا الطريق، من قبيل مشروع مارشال لانتشال اقتصاد أوروبا — وألمانيا الغربية على وجه الخصوص — ومشروع جلب العمالة الأجنبية، وغير ذلك.

ومن بين هذه الخطوات ما عَـنَوَنَهُ الكاتب كالتالي: «إعادة برمجة الألمان». قال في البداية: (أمريكا لم تعتمد على الاقتصاد فقط، فقد سَخَرَت كُلَّ قدراتها العلمية والاستخباراتية لتحويل ألمانيا إلى صديق وحليف في وسط أوروبا، فمن ذا الذي كان سيُصدق أن الألمان سيُصبحون أصدقاءً لأمريكا بعد أن قامت بقصفهم قصفاً شنيعاً لدرجة أن مدينة كولن لم يبق منها إلا ثلثها، وفي هامبورغ دُمِّرَ ٣٠٠ ألف منزل، أما مدينة دريزدن فإن بعض الدراسات تُقارنها أحياناً بهيروشيما. المهم أنه بعد كل هذا فإن الكثير من الألمان يَعتبرون ما فعلته أمريكا تحريراً لهم.... فكيف نجحت أمريكا في تغيير نظرة الألمان نحوها؟).

ثم تحدّث عن طبيعة الخطوات الإجرائية لتحقيق إعادة البرمجة هذه. قال: (بعد الحرب كانت أمريكا تؤمن بأن «كُلَّ ألماني كان نازياً»). وبالتالي فهي لم تدفن رأسها في الرمال وتكرر الحقيقة الماثلة أمامها وتكرر وجود الكراهية العميقة والشديدة.. بل أقرّت بوجود المشكلة، بل وبالغت نسبياً في وجودها بافتراض أن الكل يحمل الأفكار والمشاعر النازية. هذه هي الخطوة الأولى الصحيحة والمطلوبة في معالجة أية مشكلة ورفع أي خلل.

وتم عنونة المشروع كالتالي: «الاستراتيجية النفسية من أجل ألمانيا»، وانخرطت فيه السي أي إيه، وخبراء ألمان، وهوليوود، ووسائل الإعلام الألمانية الجديدة، وبالأخص المجالات العلمية، والنقابات العمالية والصناعية، والنوادي الثقافية والفنية، وأطراف أخرى.

• وسائل الاستراتيجية النفسية:

ثم قال: (إحدى أعجب الوسائل التي استُخدمت كانت إجبار الألمان على زيارة معسكرات الاعتقال النازية «غصباً عنهم»، كما حصل في مدينة «فايمر»، حيث تم إجبار كل سكان المدينة رجالاً ونساءً على التجوّل بين الجثث المتعفنة ومُعابنتها كي يعتبروا، ومع أن المشاهد كانت صعبة جداً على النفس إلا أن الأمريكيان كانوا يعتقدون بأن هذه إحدى أقوى الوسائل لـ «تربية» الألمان).

والوسيلة الأخرى: (بدأت أمريكا حملة إعلامية ضخمة... بدأت بأفلام تتحدث عن فظائع الألمان ومحاكمات قيادات النازية، ولكن الخبراء في ألمانيا بدؤوا يقترحون أفلاماً مع محتويات إيجابية تعلّم الألمان «التسامح والأخوة» التي كانت تهدف لإتاحة الفرصة للألمان للانخراط من جديد فيما يُسمى «منظومة القيم الغربية الديمقراطية»).

وهكذا تم إنفاق مبالغ هائلة، ضمن خطة عمل مدروسة وُضعت على أسس علمية، وتم تنفيذ المشروع على قدم وساق، إلى أن تحقق النجاح - بعد خمس عشرة سنة - ببلوغ ذروة التوقّعات. إذاً مسألة تغيير القنوات والمشاعر إلى مستوى ما أمر ممكن، مهما كانت حادة وعنيفة.

• مشروع تحصين:

في شهر يوليو من هذا العام، أعلنت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت عن إطلاق مشروع باسم «تحصين»، وذلك لتعزيز الوسطية، وبمشاركة خمس جهات حكومية هي وزارات الشباب، والتربية والتعليم العالي، والإعلام، والشؤون، والداخلية.

ثم أعلن - خلال هذا الأسبوع - عن البدء بتنفيذ المشروع الذي: (يستهدف تزويد طلبة الصف الثاني عشر، وطلبة المعاهد والجامعات، بمهارات علمية في مجال نشر وتعزيز الوسطية ومواجهة الانحراف الفكري والسلوكي). كلام جميل جداً.. ولكن أود أن أسجّل هنا عدة ملاحظات:

١. وقعت الوزارة في خطأ كبير بتصريحها - ضمن الإعلان عن إطلاق المشروع - بأن: (الكويت لا تعاني من أيّ تطرف، وهذا المشروع يأتي لتحصين

الشباب من أي فكر متطرف قد يتسلل إليهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي المتاحة للجميع).

لا أرى أي داع لإنكار وجود خلل ما في المجتمع. كل المجتمعات في العالم تعاني من مشاكل وسلبات، والكويت ليست مستثناة منذ ذلك، بل ولا عيب في وجود الخلل، بل العيب في إهماله.

هناك تطرف في الكويت.. أن نختلف على النسبة هذا أمر آخر، ولكن أن ننكر وجود التطرف فهذا أول خطأ علمي لمعالجة أية سلبية.. ولنسترجع ما ذكرته قبل قليل كيف افترض الأمريكي أن كل الألمان نازيون، وهذه مبالغة متعمدة، ثم وضعوا خطة المعالجة ونجحوا فيها.

والإ كيف نفسر الخلايا الإرهابية التي تم القبض عليها، والخطط الإجرامية التي وُجدت بحوزتها، وتفجير مسجد الإمام الصادق عليه السلام، ومقاطع الفيديو التي يظهر فيها بعض الكويتيين ممن يهددون بالذبح، أو يتحدثون بلغة إقصائية عنيفة، والقضايا المطروحة في المحاكم، والأمثلة كثيرة جداً.

• تعريف التطرف والغلو:

٢. نحن بحاجة إلى تعريف التطرف والغلو.. هذه مسألة مهمة جداً.. ذكرت أكثر من مرة أن أغلب المشاريع تصب في اتجاه الفكر المعادي للدولة ومؤسساتها الرسمية، وهذا جزء من المشكلة لا كلها.

هناك تطرف تجاه الآخر المختلف دينياً.. ومذهبياً.. وقومياً.. ووطنياً.. وقبلياً.. والخطاب الديني المصنّع محلياً - أحياناً - يُغذي هذا التطرف، ولا أخص طرفاً معيناً، فالتطرف يجلب تطرفاً مقابلاً.

القائمون على مشروع «تحصين» يقولون أنه ستقام مائتا حلقة نقاشية وورش حوارية تستهدف ١٠ آلاف طالب وطالبة.. جميل جداً.. ولكن هل بين المحاورين علماء دين كويتيين شيعة؟ هل تم إدخال مجموعة منهم في برمجة المشروع؟ هل سيقوم بعضهم بالمشاركة في تنفيذ المشروع بصورة مشتركة مع علماء من أهل السنة، بحضور الطرفين معاً في جو ودي وبروحي ووطنية وإنسانية؟

أنا لا أملك إجابة، ولا توجد أية إشارات في التصريحات التي تم الإدلاء بها بحيث تشير إلى أن الإجابة ستكون بنعم.. ونعم كبيرة وواضحة كعين الشمس.. أتمنى من كل قلبي أن أكون مخطئاً.

فإن كانت الإجابة بلا، فهذا يعني أن المشروع لا يعالج إلا جانباً من المشكلة، ومعالجة جانب منها سيؤدي إلى بروز الخلل في الاتجاهين من جديد، لأننا إذا نزعنا التطرف تجاه الحكومة فقط، ثم صدر عمل إرهابي ضد مكّون ما، ثم اتخذت الحكومة إجراءاتها الأمنية ضد تلك الجماعة المتطرفة، فسيعود الموقف المتطرّف ضد الحكم من جديد.. أعتقد الأمر شديد الوضوح.

هل هناك تردّد في الاعتراف بوجود شركاء في الوطن لا ينتمون إلى مذهب معيّن؟ أم هناك تخوّف من الاعتراف بوجود علماء دين شيعة أكفاء قادرين على تحقيق الشراكة الوطنية؟

قد يقال هناك أكاديميون ومعلّمون شيعة.. هذا لا يكفي.. لأن الخطاب الديني أقوى من أي خطاب آخر.. ولذا من المهم إشراك علماء البلد أيضاً، ليس فقط في الإعداد بل في التنفيذ أيضاً.

• وزارة التربية و«تحصين»:

٣. وزارة التربية مشاركة في مشروع «تحصين».. وما زالت هناك مكابرة وإصرار على خلو مناهجها من الغلو والتطرف.

ولكن في آخر قراءة شاملة لي لكتب التربية الإسلامية المقررة حالياً، هناك موارد كثيرة ما زالت موجودة، ليس فقط ضد شركاء الوطن، بل ضد الحكم والمسؤولين ومجلي الأمة أيضاً، وأضيفها إلى تلك التي تحدّثت عنها مسبقاً في أكثر من مناسبة، ولم تتغيّر إلا بصورة طفيفة وتجميلية ضمن التعديلات. ولربما خصصت خطبة الأسبوع المقبل للحديث حول هذا الأمر.

وبالتالي كيف تستطيع أن تنجح وزارة التربية في مساهمتها في مشروع «تحصين» المهم والحساس وفي كتبها الدراسية تحريض إلى درجة الحكم بكفر وقتل المستهزيء باللحية لأنه يعتبر مرتدّاً!!!

• الانفتاح على كل المكوّنات:

إننا في الكويت كما في كل الدول العربية والإسلامية بحاجة إلى مشاريع من قبيل مشروع «تحصين» الذي يهدف إلى تزويد الشباب بمهارات علمية في مجال نشر وتعزيز الوسطية ومواجهة الانحراف الفكري والسلوكي والتطرّف، ليس من باب الوقاية فحسب، بل والمعالجة أيضاً لسلبيات موجودة فعلاً، وهي بحاجة إلى اعتراف منّا أولاً بوجودها، ومن ثمّ أن نقوم بدراسة سبل معالجتها والوقاية منها على أسس علمية.

وعلى القائمين على هكذا مشاريع أن يفتحوا أولاً على كل مكوّنات الوطن الواحد وإشراكهم في هذه العملية بجدّيّة وشمولية وبروح وطنية بعيدة عن روحية الإقصاء، فالتطرّف الذي يعيشه بعض شباب وطننا ليس تطرّفاً ضد الحكم فحسب، بل هو تطرّف ضد الآخر الشريك معهم في الوطن وفي المدرسة وفي الجامعة وفي كل مواقع الحياة.. اللهم اجعل هذا البلد آمناً وسائر بلاد المسلمين.



الخطبة الأولى المسيرة الأربعينية

عن علي بن ميمون الصّائغ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (يا علي، زُرْ الحسين عليه السلام وَلَا تَدْعُهُ. قال: قلت: ما لِمَنْ أَتَاهُ مِنَ الثَّوَابِ؟ قال: مَنْ أَتَاهُ مَاشِياً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْهُ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَةً).

بغض النظر عن كل الأسئلة التي تطرح حول البعد التاريخي والشرعي لمسيرة الأربعين الحسينية، وحول الأهداف الموجهة لتحقيقها من خلال المشي لأيام حتى بلوغ كربلاء، أصبحت مسيرة «المشاية» حدثاً مبهرًا للعالم كله، حيث يزحف الملايين من الناس في وقت واحد نحو كربلاء الحسين عليه السلام. ولا بد من تسجيل بعض الملاحظات بهذا الخصوص:

• الخدمات التبليغية:

١. على مستوى توظيف الحدث: ذكرت من قبل أن طموحنا يفوق الجانب البرتوكولي للمسيرة.. المضاييف.. الإطعام.. الخدمات اللوجستية.. وأمثال ذلك. فمن الضروري الاستفادة من هذه الفرصة في توعية الجماهير سواء فيما له علاقة بالقضية الحسينية أو بصورة أشمل.

بالطبع هناك بعض الجهود المتعلقة بإقامة صلاة الجماعة، والتوعية الشرعية، إلا أن هذا المقدار غير كاف ولا بد من تطوير ذلك. وهناك الكثير من المفاهيم الفكرية، والأخلاقية، والروحية، والشرعية التي يمكن طرحها والتركيز عليها

انطلاقاً من أحداث وأجواء ودوافع هذه المسيرة، من قبيل: أثر الولاء على سلوك الإنسان، الكرم، الإيثار، التضحية، حب الخير، النظام، تقدير الوقت، التواضع، وغير ذلك. هذا العمل الرسالي يحتاج إلى استعداد مُسبق، وتطوير لجان، وتنسيق، ورصد موازنات، وغير ذلك... والحدث الذي يحتضن ملايين الناس في مكان محدد وزمن محدد يستحق مثل هذا الجهد.

• حفظ المسيرة فكرياً وعملياً:

٢. لابد من حفظ المسيرة الأربعينية: من الخرافات والممارسات اللامسؤولة التي قد يسعى البعض عن عمد أو جهل إلى إقحامها كما فعل من قبل بالشعائر الحسينية. فقد أدى التراخي في مواجهتها إلى تثبيتها وشرعنتها، حتى بات مجرد توجيه النقد لها بل والتساؤل عن مشروعيتها خطأ أحمر وجريمة كبرى عند البعض.

• تسويق الحدث عالمياً:

٣. تسويق هذا الحدث الكبير إعلامياً: وعلى مستوى عالمي.. وللأسف فإن التغطية الإعلامية وعمل البرامج الوثائقية التي تُقدّم هذا الحدث السنوي بصورة جذّابة بأبعاده التاريخية، والثقافية، والدينية، والإنسانية، والأخلاقية، وبما يتناسب مع مختلف الثقافات، يعتبر أمراً شبه مفقود. لا أقول أن الخبر لا يُنقل عالمياً، ولكن من المهم جداً تقديم هذا الحدث بالصورة التي نريدها نحن، وبالرسالة التي يجب أن نقدّمها للناس، وبلغة العصر وأدواته.

هذا الحدث المهيّب يجب أن يُقدّم من خلال التحديات التي مرّ بها تاريخياً منذ العهد العباسي مروراً بعهد الحكم الصّدّامي، ومساعي الإرهابيين وجرائمهم التي لم تُثنِ الزائرين عن هدفهم، بل واعتبرها المؤمنون بالقضية الحسينية تحدياً لهم، فزادهم إيماناً وعزماً.

ختاماً ندعو الله عزوجل بقبول الأعمال الخالص لوجهه، وأن يحفظ الزائرين ومَن هم في خدمتهم من شرور الإرهابيين، وأن يعيدهم جميعاً سالمين مأجورين بإذنه إنه سميع مجيب.

الخطبة الثانية

مناهج التربية الإسلامية .. وقفة أخرى

ذكرت في الأسبوع الماضي في تعليقي على مشروع «تحصين» أن مشاركة وزارة التربية في هذا المشروع لن تكون ناجحة بالصورة المطلوبة ما دامت الوزارة تكابر وتصر على خلو مناهج التربية الإسلامية المعدة من قبلها من صور التطرف والغلو والتحريض والابتعاد عن الحقائق العلمية. وسأقدم في هذه الخطبة بعض الأمثلة ضمن العناوين التالية:

• التعارض مع المعطيات العلمية الحديثة:

• الصف ٩ ج ١ ص ٢٥: (عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ، يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفَعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلَعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً».)

هل يعقل هذا في زمن اكتُشفت فيه حركة الأرض حول الشمس لا عكس ذلك؟ وهل نريد تأكيد التصادم بين العلم والدين؟

ولنفرض أن الحديث جاء بلغة رمزية وأنه بحاجة إلى تأويل، فلماذا لم يذكر هذا التأويل في الكتاب؟ على الرغم من أنني على ثقة بأن من وضع الحديث في الكتاب يؤمن به على ظاهره.

• الصف ١١ ج ١ ص ٣٣: حول علاج السُّحر، ولا أدري ما حاجة الطلاب لتعلم علاج السحر: (استعمال الأدوية المباحة التي يعرفها الأطباء وأهل العلم مثل

تناول سبع تمرات من عجوة صبيحة كل يوم وهي تقي من السحر قبل وقوعه، وتنفع في حله بعد وقوعه. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اصْطَبَحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ».

هل فعلاً صدر هذا الكلام عن النبي؟ وأسأل الأطباء: هل فعلاً تناول سبع تمرات عجوة تعالج أو تقي من السم؟ وأي أنواعه؟ أين البحوث الطبية التي تثبت ذلك؟ ولماذا لا يطبق هذا في مستشفياتنا؟ ولماذا لا تأخذ كلية الطب في جامعة الكويت على عاتقها تعليم هذه الطريقة العلاجية البسيطة، فكيلو العجوة لا يتجاوز ٧ دنانير...

• الصف ١٢ ج ٢ ص ٥١ حول مراحل خلق الإنسان: (وبعد مرور مائة وعشرين يوماً يسأل الملائكة المكلفون بالأجنة رب العزة والجلال عن جنس الجنين وعن خلقه أهو تام أم ناقص، وعن أجله، وعن عدد الأجنة في الرحم، وعن رزقه، وعن السعادة والشقاء؟ ويظهر بعدها الخلق، وتظهر ملامح الجنين من اليدين والرجلين وبقية الجوارح والأجهزة المكوّنة للجسم).

هل يكون الجنين قابلاً للانقسام إلى عدة أجنة بعد ١٢٠ يوماً كي يسأل الملائكة عن ذلك؟ كما أن مراجعة صور نمو الجنين تؤكد ظهور ملامح الجنين من اليدين والرجلين وبقية الجوارح قبل ١٢٠ يوماً.

• عرض تفاصيل بعض المسائل الفقهية والعقدية الخلافية بصورة متشنجة وتكفيرية:

• الصف ١٠ ج ٢ ص ٣٢ حديث عن التبرك وزيارة المراقد والتمائم وأمثال ذلك، وأنها من صور الشرك الأكبر. وأنه بذلك (يخرج صاحبه من الإسلام... يوجب المعادة وقطع الموالة فلا يجوز موالاته مهما كانت قرابته). ومن المقصود والمستهدف بهذا التكفير عادة؟ الشيعة.

• الصف ٦ ج ٢ ص ٢٠: (اقرأ عن أحد علماء الكويت البارزين الذين ساهموا في نشر عقيدة التوحيد)!!

لا أدري هل كان أهل الكويت من مشركي قريش مثلاً؟ وما هي الرسالة هنا؟

وقد ذكرت أمثلة أخرى في أكثر من مناسبة ولا داعي للتكرار، ومواردها مبنوثة بكثرة في كتب المراحل الدراسية المختلفة.

• ذكر بعض القضايا غير الضرورية بألفاظ تخدش الحياء: والكتاب يُدرّس للذكور والإناث.

• الصف ٩ ج ١ ص ٢٩: (يُحشّر الناس حفاة الأقدام عراة لا كسوة عليهم، غُرلاً غير مختونين).

• الصف ٣ ج ١ ص ١٧: حول النبي إبراهيم عليه السلام: (وهو أول من يكسى يوم القيامة).

على فرض صحة الفكرة، هل التلاميذ بحاجة إلى هذه المعلومة كي تقدّم لهم؟ ثم ألن يجزّ هذا تساؤلات لدى الطلاب عن حال الشخصيات المقدسة في الإسلام يوم القيامة؟ فهل يراد إيصال هذا التصور للتلاميذ المراهقين؟ وما القيمة التربوية في ذلك؟ هل هذا الوصف ضروري إلى هذا الحد بحيث لا نراعي فيه الذوق؟ وأين أنتم من أدب القرآن؟

• التحريض على الدولة والمسؤولين:

• الصف ٨ ق ٢ ص ٢٠ من علامات الساعة وتحت عنوان «علو اللثام والحمقى»: (قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدينيا لُكع ابن لُكع) ثم تعليق جاء فيه: (وتلك علامة بادية للعيان في هذا العصر، ولا تزال تظهر سنة بعد أخرى، إذ أصبحت الأمور المهمة تُسند إلى غير أهلها فيُتُرفون ويسعدون بها ويتطاولون على الناس مستندين إلى ما وصلوا إليه من مناصب رفيعة ثم يتقلّدوها بعلم أو كفاءة، بل بطرق ملتوية وأساليب ليست مشروعة).

في من هذا الطعن بالتحديد؟ أليست هذه رسالة للتلاميذ ضد المسؤولين في البلد؟ والمسؤول: لُكع ابن لُكع.. يعني الشتيمة تجاوزت الشخص المسؤول لتصل إلى أبيه أيضاً.

• تقديم أحكام شرعية ومفاهيم تربوية غير دقيقة:

الأمثلة كثيرة جداً، ومنها ما جاء في كتاب:

• الصف ١١ ج ٢ ص ١٧ حول الاستهزاء بالدين حيث اعتُبر أن المستهزيء مازحاً أو هازلاً مرتد عن الإسلام، وحكم المرتد هو القتل! وأن الاستهزاء باللحية والسواك بمثابة ردّة عن الدين! وحكم المرتد بالطبع هو القتل!

• الصف ٧ ج ٢ ص ١٣٦ أن من جملة موارد جواز الكذب: أن يكذب الرجل على زوجته، والزوجة على زوجها.

هل هذه هي التربية المنشودة لزوج أو زوجة المستقبل؟ أن تكون حياتهم في المستقبل قائمة على الكذب والنفاق وانعدام الثقة؟!

• أخطاء تاريخية بالجملة:

• الصف ١١ ج ٢ ص ٧٨ حول تسمية أهل البيت أبناءهم باسم أبي بكر: (أبوبكر بن علي . أبوبكر بن الحسن بن علي . أبوبكر عبدالله بن جعفر، وقد استشهد الثلاثة مع الحسين رضوان الله عليهم أجمعين. أبوبكر علي زين العابدين . أبو بكر بن موسى الكاظم . أبوبكر بن علي الرضا . أبوبكر بن الحسن المثنى).

ولكن الصحيح أنه لم تكن كنية عبدالله بن جعفر «أبابكر»، ولم يستشهد مع الإمام الحسين في كربلاء - ولم تكن كنية الإمام علي زين العابدين «أبابكر» - ولم يكن لموسى الكاظم ولد باسم أبي بكر، ولا لعلي الرضا الذي لم يكن له سوى ولد اسمه محمد، وكنيته «أبوجعفر» - ولا للحسن المثنى ولد باسم أبوبكر.

• وفي ص ١١٦: (زين العابدين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).. وهذا خطأ فادح يعلمه أبسط الناس، فالإمام زين العابدين هو الإمام علي بن الحسين.

• إحالات إلى مواقع متعاطفة مع الإرهابيين:

• في كتاب الصف ١١ ج ٢ ص ٥٠ يُطلب من التلميذ: (تصفح موقع www.55a.net).

أولاً، هذا الموقع تابع لشخصية متَّهمة بالإرهاب.

وثانياً، عندما تفتح الموقع الذي تحوّل لاحقاً إلى quran-m.com ستجد مثلاً: «قصة إسلام حارس سجن غوانتانامو!» فهل يخفى على الوزارة ما سجن غوانتانامو ومن كان مسجوناً فيه؟!

ثم هل تضمن الوزارة محتويات الموقع في المستقبل؟

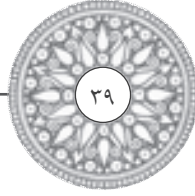
• قص ولصق:

أكثر مضمون الكتب الدراسية عبارة عن قص ولصق من مواقع من الإنترنت، ومن كتب قديمة كُتبت بلغة عفى عليها الزمن، أو أنها لا تناسب المراحل العمرية المخاطبة في المناهج الدراسية. ويمكن لأي من الأعضاء وبيحث سريع من خلال محرك قوغل أن يكتشف ذلك. ومن المعلوم أن تأليف الكتاب المدرسي لا يمكن أن يتم بهذه الصورة.. وإذا كان القائمون عليها متكاسلين، أو لا يمتلكون الإمكانيات اللازمة للقيام بذلك وفق الأصول العلمية، فهل خليت الكويت من قامات علمية قادرة على القيام بهذا الدور؟

• نحو تربية إسلامية سليمة:

نعود ونؤكد من جديد أن وزارة التربية معنيّة في ضمن أولوياتها القصوى أن تسعى لتعديل مناهج التربية الإسلامية، وقد وُقِّعت قبل بضع سنوات في تعديل منهج الصفين الأول والثاني الابتدائي، فخرج الكتابان بصورة بهيّة تختلف تماماً عن المراحل التي تليها، ولا أدري ما هي الضغوط التي مورست لمنع تكملة مشروع التطوير والتعديل هذا.

وأنا أدعو كل من يسمع كلامي أن يقارن هذين الكتابين بكتاب الصف الثالث ليشهد الفارق الكبير في المحتوى واللغة وأسلوب العرض. الأجواء الإقليمية ملبّدة بالغيوم، والبلد يختنق بلغة الكراهية والشحن النفسي، ولا نريد لأبنائنا أن يحملوا هذه النفسيات المعقّدة تجاه شركائهم في الوطن، بل ولا تجاه الإنسان أينما كان، بل نريد لهم أن يتلقوا التربية الإسلامية القائمة على روحية المحبة والتسامح والمفهوم القرآني الأصيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.



الخطبة الأولى قالوا أساطير الأولين

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
«الفرقان: ٤-٦».

كان القرآن الكريم بالنسبة إلى مشركي قريش شيئاً مُبهِراً على مستوى المضمون، ففي كل مرة يفاجئهم بمعارف وأخبار يعود بعضها إلى آلاف السنين، وما عرفوا تفاصيلها الدقيقة من قبل، وما كانت من واقع بيئتهم، وما كانت لديهم مدارس تطرح أو تعلّم ذلك.

كما كانت طبيعة أطروحات القرآن، وحكمته، وخطاباته مما لم يعهدوه في ثقافتهم الدارجة. وهكذا وقفوا مدهوشين أمام الأسلوب والمستوى البياني للقرآن، مما لم يعهدوه لا في قصائدهم، ولا في قص القصّاصين، ولا فيما سمعوه من الأحبار والرهبان، ولا في أحاديثهم الدارجة.

• البحث عن مخرج:

أمام هذه الحقائق، وعجزهم عن مواجهة القرآن أو الإتيان بمثل له، وسخافة نسبة الجنون والسحر للنبي ﷺ، كان لابد لمشركي قريش من مخرج يبرّرون من خلاله موقفهم الرافض والصّدّامي.

من هنا انصبَّت محاولاتهم للتخفيف من هذا الضغط الشديد بآتهام النبي في مصدر القرآن، حيث:

١- ادَّعوا أن نسبة القرآن إلى الله عَزَّجَلَّ من أسوأ الكذب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾.

٢- ولم يكتفوا بذلك بل وادَّعوا أن هذا الكذب متعمَّد: ﴿افْتَرَاهُ﴾.. فالافتراء هو تعمد الكذب.

٣- واعتبروا أن الناتج ليس فردياً، بل هو بمجهود جماعي: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.

ولكنهم كانوا يشهدون أن النبي ﷺ في تلك الفترة ما كان يلتقي بأحد على الدوام ليأخذ عنه ما يتلو عليهم من القرآن، كما أنه كان لا يقرأ من الكتب، ومن حوله من المسلمين هم أبناء نفس البيئة، ولا يملكون شيئاً يُذكر من المعرفة.. فمن أين يأتي كل يوم بشيء جديد؟ لذا من أجل إحكام تهمتهم، أضافوا الصورة التالية:

٤- قالوا لقد استعان في الماضي بمن يكتب له تلك المعلومات والأفكار والأساطير: ﴿وَقَالُوا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾، ونلاحظ استعمال كلمة ﴿اكتتبها﴾ وليس «كتبها»، لأن الاكتتاب يعطي معنى الاستعانة بمن يكتب له.

٥- وما فائدة ما كُتب له وهم يعلمون أنه لا يقرأ؟ قالوا: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أنه وظَّف مَنْ يعرف القراءة ليقرأ له تلك الكتب التي تراكت لديه عبر الزمن، في الصباح والمساء، فيحفظ النبي ﷺ ما يسمع، ثم يقدمها للناس على أنها كلام الله!

هذه الاتهامات تُقدِّم اليوم لشبابنا من جديد، على لسان الملحدين واللا دينيين والربوبيين، بعبارات جديدة، وبصيغات مختلفة، ولكن النتيجة واحدة. ومنشأ أكثرها هو ما طرحه المستشرقون خلال القرون الثلاثة الماضية. ف «ريتشارد بل» مؤلف كتاب «مقدمة القرآن» على سبيل المثال قال: (بعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمد من مصادر يهودية

ونصرانية، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة). فكيف هو الرد القرآني على هذه المزاعم الباطلة القديمة منها والحديثة؟ سأجيب على هذا التساؤل في الخطبة الثانية بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

الخطبة الثانية

قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَام بين القرآن والعهد القديم

بعد أن عرض الله عَزَّوَجَلَّ شبهة المشركين بحق النبي والقرآن، واعتبر أنّ ما قالوه ظلم، لأنه اتّهام كاذب، وأنهم قد سعوا لأن تكون كذبتهم مُحْكَمَةً ومَحْسَنَةً بحيث تشبه بالصدق، وهذا معنى ﴿وَزُورًا﴾، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. أي تدبّروا في هذا الذي زعمتموه إفكاً أو أساطير الأولين، ليظهر لكم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر. وفي هذا:

أ - تعريض بكتب اليهود والنصارى وقصص القصّاصين باعتبار أنها تشتمل على أباطيل واختلاقات وتحريفات.

ب - وأن في القرآن أموراً لم تُذكر في كتبهم، وأمور خفيت على القصّاصين، كقصة صالح وهود.

ولو كانت هذه هي مصادر القرآن لانسجمت معها وشابهتها.. بينما المقارنة تؤكد خلاف ذلك:

• الاختلاف في الأسلوب:

١. فأول ما يُلاحظ في أسلوب القصة فيما بيد الناس من العهد القديم هو

الركاقة، وهبوط المستوى الذي يصل أحياناً إلى درجة الإسفاف. فكيف يكون هذا من ذاك؟

(فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلُمَةٌ، وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ... وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَكُنْ جِلْدٌ فِي وَسْطِ الْمِيَاهِ. وَلِيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهِ وَمِيَاهِ»... وَقَالَ اللَّهُ: «لَتُنْبِتِ الْأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزَرُ بَزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجَنْسِهِ، بَزْرُهُ فِيهِ عَلَى الْأَرْضِ» وَكَانَ كَذَلِكَ.... وَقَالَ اللَّهُ: «لَتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لَتَفْصَلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسَنِينَ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لَتُنِيرَ عَلَى الْأَرْضِ». وَكَانَ كَذَلِكَ) سفر التكوين، الإصحاح ١: ١-١٤ مع الاختصار.

ولاحظ أسلوب القرآن ولغته: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَ إِلَيَّ السَّمَاءُ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَاتِلَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ «فصلت: ٢-٩» فكيف يكون هذا من ذلك؟

• الاختلاف في المضمون:

من حيث مضمون القصص، والمفاهيم المنتزعة منها، والقيم والمبادئ والأخلاقيات التي يطرحها القرآن ولا تجدها هناك. فلو أخذنا مفردة قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَام ما بين العهد القديم والقرآن الكريم، سنجد ما يلي:

١- في الوقت الذي يقدمه العهد القديم على أنه ملك حكيم يتحدث القرآن عن أنه نبي يوحى إليه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ «النساء: ١٦٣».

٢. وعندما نقارن قصته مع ملكة سبأ نجد في سفر الملوك الأول: الإصحاح الأول «١٢-١»: (وَسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَأَ بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ مَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ لِمَتَحِنَهُ

بِمَسَائِلَ). ثم يحكي النص كيف أعجبت بحكمته وبعظيم ملكه وعن الهدايا الرائعة والكثيرة التي أهدتها له. وينتهي المشهد بصورة مادية بحتة، فلا إيمان ولا تسليم لله: (وَأَعْطَى الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ الْمَلَكَةَ سَبَا كُلَّ مُشْتَهَاهَا الَّذِي طَلَبَتْ، عَدَا مَا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ حَسَبَ كَرَمِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ. فَانْصَرَفَتْ وَذَهَبَتْ إِلَى أَرْضِهَا هِيَ وَعَبِيدُهَا).

وأما في سورة سبأ فالتفاصيل مختلفة تماماً ومما جاء فيها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ثم ذكرت الآيات كيف استشارت قومها، وكيف حاولت أن ترشي سليمان بالهدايا الثمينة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وتصف الآيات كيف جُلب له عرشها: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

وتستمر الآيات في بيان القصة وكيف وفدت الملكة على سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولنلاحظ هنا كيف انتهت القصة بمشهد إيماني هو الأهم.. حيث تحققت الغاية من رسالة النبي سليمان إليها، فما علاقة هذا بذلك؟

٣. وتختتم قصة سليمان هناك باتهامه بعبادة الأصنام: (وَكَانَ فِي زَمَانٍ شَيْخُوخَةٌ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى... فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتَوْرَثَ إِلَهَةِ الصَّيْدُونِيِّينَ) ثم يتحدث عن بنائه المعابد للأوثان إرضاء لنسائه الوثنيات ثم يقول: (فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ).

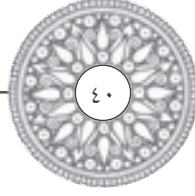
أما في القرآن فالصورة مختلفة تماماً: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ «البقرة: ١٠٢». ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ.... وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ «ص: ٣٠-٤٠».

هذه هي نهاية سليمان في القرآن.. العبد الصالح الذي كان يُكثر من الذكر والتسبيح لله.. فكيف يكون هذا من ذاك؟

وما ينطبق على قصة سليمان ينطبق على باقي قصص الكتاب المقدس عندما نقارن مضامينها بما جاء في القرآن الكريم، مما يؤكد بطلان التهمة القديمة المتجددة التي يطرحها البعض بأن النبي ﷺ صاغ القرآن مما أخذ من أخبار ورهبان أهل الكتاب.

• مسؤوليتنا:

لقد كان القرآن الكريم واضحاً في التأكيد على أنّ ما فيه من قصص الأنبياء والمُؤمنين هو من وحي الله الذي لم يعهدوه من قبل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، وبإمكان الباحث المنصف والمتجرد أن يصل إلى حقيقة أنّ ما ادّعى من أنّ «الكتاب المقدس» هو مصدر ما في القرآن ليس سوى كلام باطل أطلقته قريش وتورّطت به، وعاد المستشرقون ليجترّوا تلك الأباطيل، وتلقّف الملاحدة وأشباَهُهم تلك الترهات، وأطلقوا حملتهم المسعورة على كتاب الله ونبيّه، ووقع في شراكهم شبابٌ - ولأسف - لا يملكون أدنى مقوّمات المعرفة اللغوية والتاريخية والفكرية، فإذا بهم يثيرون إشكالاتاً هنا وسخريةً هناك، الأمر الذي يحمّلنا مسؤولية أن نشير أمامهم الحقائق، وأن نبين مكانم عظمة الكتاب الكريم، لا بالأسلوب الإنشائي والطريقة الشعراوية، بل بمعالجة القضايا المختلفة معالجةً منطقيّةً وعلميّةً، وبلغةٍ عصريّةٍ تخترق القلوب وتفتح عليها العقول.



الخطبة الأولى التدريب على العقوق

عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: (جراءة الولد على والده في صغره تدعو إلى العقوق في كبره).

يولد الطفل وهو لا يعلم ما المقبول وغير المقبول من التصرفات والسلوكيات، وهو يتعلم تدريجياً عن طريق مراقبة ما يحدث حوله، وكيف يتصرف أفراد عائلته، ويراقب أيضاً كيف تتم معاملته.

ويُشاهد في بعض الأسر أنها من شدة حب الطفل تشجعه على بعض التصرفات التي لربما تكون لها آثار غير محمودة عندما يكبر ويصل إلى مرحلة المراهقة أو الشباب.

فعلى سبيل المثال يتم تشجيع الطفل على السب والتلفظ بالكلمات غير اللائقة وذلك عندما يضحك الأهل ويطلبون منه تكرار هذه الكلمات من باب المزاح.

ولربما رغب هذا الطفل بعد ذلك في جذب انتباه الآخرين، وفي إطار المزاح، فيلجأ إلى ترديد مثل هذه الكلمات التي تُصبح تدريجياً جزءاً من قاموسه اليومي.

وهكذا، لربما تمرّد الطفل على إخوانه وأذاهم، أو أخذ حاجياتهم أو أ تلفها، فلم يتلقَّ تعنيفاً أو توجيهاً من الوالدين، بل ولربما وجد استحساناً منهما وتشجيعاً لأنه الأحب إلى القلب، أو لأنه يشبه أحدهما.

في الحديث السابق، الإمام العسكري عليه السلام ينبّه إلى جانب من هذا الخلل التربوي، وأثره المستقبلي والمتمثل في عقوق الوالدين، والذي يمثل أخطر خلل في إطار العلاقة بين الأبناء والآباء.

هذه العقوبة السيئة تتحقق عندما لا تتم معالجة الخلل والطفل في هذا العمر المبكر، أو عندما يتم تقبّل هذا السلوك الخاطيء تجاه أحد الوالدين أو تجاههما، أو عند تشجيعه عليه.

هذا السلوك قد يكون بصورة إساءة الأدب من حيث أسلوب التعامل، أو بالمناداة بالاسم وليس بالعنوان، أو بتشجيع الأب للطفل بالإساءة إلى أمه أو بالعكس، وأمثال ذلك.

كل هذا يعدّ نوعاً من التدريب العملي والتهيئة للعقوق في المستقبل.. فهل من أولياء الأمور من يحب أن يعيش تجربة عقوق أبنائهم لهم؟ وأختم بهذا المقطع من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لولده: (اللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضْدي، وَأَقِمْ بِهِمْ أَوْدِي، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدِي، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرِي، وَأَخِي بِهِمْ ذَكَرِي، وَاكْفِنِي بِهِمْ فِي غَيْبَتِي، وَأَعِنِّي بِهِمْ عَلَى حَاجَتِي، وَاجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّينَ، وَعَلَيَّ حَدِيثِينَ مُقْبِلِينَ، مُسْتَقِيمِينَ لِي، مُطِيعِينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلَا عَاقِينَ وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعِنِّي عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ).

الخطبة الثانية

التحرش الجنسي - القسم الأول

خلال الأسابيع القليلة الماضية كثر الحديث عن «التحرش الجنسي»، وظهرت اتهامات بالعشرات لشخصيات بارزة في عالم السياسة والرياضة والفن، وصار الموضوع مثاراً بقوة في وسائل الإعلام.

وباتت بعض النساء يتحدّثن - وبجرأة - عن تعرّضهن للتحرش من قبل مسؤولين أو مشاهير في الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا وغيرها، وتحوّلت بعض الحالات إلى دعاوى في المحاكم وتداعيات.

وبدأت بعض «الهاشتاقات» بهذا الخصوص تظهر على وسائل التواصل الاجتماعي تحت عناوين مختلفة، وتستقطب أعداداً هائلة من المتابعين والمتفاعلين معها.

• سوابق للموضوع:

هذا الموضوع الحساس ليس بالأمر الجديد، ففي سنة ٢٠١٢ ظهرت مثلاً مبادرة شبابية في مصر تحت عنوان «شفت تحرّش»، وفي ٢٠١٣ ظهرت مبادرة أخرى بعنوان «كرامة بلا حدود».

هذه المبادرات تقوم بتوثيق حالات التحرش لدعم الضحايا في الشكاوى أو القضايا المرفوعة من قبلهن، وتدريب النساء على أساليب الدفاع عن النفس، وإقامة برامج وندوات توعوية، وغير ذلك.

• أخطر مدينة على النساء:

وبحسب قناة «فرانس ٢٤» فإن تقريراً لمؤسسة «تومسون رويترز» شمل ١٩ مدينة كبيرة «أي عدد سكانها لا يقل عن ١٠ ملايين نسمة»، بيّن أن القاهرة هي أخطر مدينة على النساء بهذا اللحاظ.

«المركز المصري لحقوق النساء» تحدّث في سنة ٢٠٠٨ عن أن ٨٣٪ من النساء أكّدن التعرض للتحرّش، العديد منهن بصفة يومية، كما اعترف ٦٢٪ من الرجال أنهم يتحرشون بالنساء.

وفي دراسة أجرتها الأمم المتحدة في سنة ٢٠١١ يتبيّن لنا أن ٩٩٪ من النساء في مصر يتعرّضن للتحرش في الطرقات، و٩١٪ منهن لا يشعرن بالأمان في الشارع نتيجة لذلك.

وفقاً لدراسة أجريت عام ٢٠١٦، فإن ٨٤٪ من النساء العاملات بالجيش الأمريكي يتعرضن لهذا النوع من التحرش أثناء تأديتهن لواجبهن العسكري. وفي

دراسة أخرى أن ثلث النساء العاملات في الولايات المتحدة تعرّضن لذلك في مكان العمل.. هذان نموذجان من مجتمعين مختلفين.

إذاً هناك مشكلة، فما هي الأسباب؟ وكيف يمكن التخفيف من حدة هذه الظاهرة إلى مستوى كبير؟

• رؤية إسلامية:

للإسلام رؤية خاصة متعددة الجوانب، وقائية وعلاجية، وتتداخل فيها عناصر كالتقوى، والتربية، والأخلاق، والآداب، والأحكام الشرعية والقضائية، والعقوبات الجزائية، بالإضافة إلى البُعد الأخروي.

البعض يتصوّر أن المطلوب فقط هو أن ترتدي المرأة اللباس الشرعي، وحينها ستتقلّص الظاهرة بشكل كبير. ولذا عادةً ما يُقال أن السبب هي المرأة نفسها.. فلتحتشم في لباسها.. هي المحرّضة على ذلك بإظهار مفاتها، فلباسها بمثابة دعوة منها للتحرش بها. وتصوّرُوا أن هذا الكلام صدر من أطفال المدارس المشتركة في مصر حين سئل الذكور منهم لماذا تتحرشون بزميلاتكم؟

ويقول بعضهم: أريد بهذا التحرش تأديب المرأة لتحتشم، ولأبَيّن لها أن لباسها هو السبب.

• اللباس الشرعي وحده لا يكفي:

والحقيقة أن الالتزام باللباس الشرعي يمثّل عاملاً رئيساً، إلا أنه لوحده غير كاف. فكثير من نساء مصر يرتدين نوعاً من «الحجاب»، وقد قرأت أنه في عام ٢٠٠٧ كانت نسبة ارتداء الحجاب قد بلغت ٩٠٪. ومع هذا فإن نسب التحرش هناك بلغت تلك المستويات الخطيرة.

الإسلام لا يدعو فقط إلى التزام المرأة اللباس الشرعي، هذه مفردة ضمن منظومة متنوعة تقع مسؤولياتها على الأفراد ذكوراً وإناثاً، وكذلك على الدولة والمؤسسات.. ولن يمكن التخفيف أو الحد من هذه الظاهرة بإلزام المرأة باللباس الشرعي فقط.. هذه رؤية قاصرة وسطحية جداً.

ولست هنا في وارد الإحاطة بكل عناصر هذه المنظومة، فالموضوع متشعب،

ولكن سأذكر بعض المفردات فقط، ويمكن لمن يحب أن يمتلك تصوّراً أولياً حولها أن يقرأ ويدرس سورة النور بتمعّن.

• تعليم سورة النور:

بالطبع يتصوّر البعض أن علينا التركيز على تعليم الفتيات سورة النور، وتجنّبهن تعلّم سورة يوسف، وذلك بحسب ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: (لا تُعلِّموا نساءكم سورة يوسف ولا تُقرئوهن إياها، فإنّ فيها الفتن، وعلموهن سورة النور فإنّ فيها المواعظ) .. ولي ملاحظات على ذلك:

١. الروايات في الباب ضعيفة أو منقطعة السند، ولا يُعوّل عليها.

٢. التعاليم الخاصة بالعفة، والعلاقة بين الجنسين، والأحكام الشرعية والآداب في سورة النور مشتركة للرجال والنساء، فلماذا التركيز على آيتين تخاطبان النساء «٢١ و٦٠» وإهمال كل التعاليم الشرعية والأخلاقية والآداب الموجهة للرجال أيضاً؟ هذا جزء من التكوين النقي في الخاطيء الذي نشكله في وعي الإنسان المسلم، والذي ينتج عنه تحميل المرأة المسؤولية في مثل بروز ظاهرة التحرش الجنسي. والحقيقة أن المسؤولية مشتركة، وهو ما تؤكد عليه نفس سورة النور.

ومثلما يسعى البعض لتحميل حواء - وهي رمز المرأة - مسؤولية «الخطيئة الأولى» حين أكل آدم من الشجرة بإغواء وتحريض منها، فإن القرآن جاء وخطأ هذه الفكرة وحمل الطرفين المسؤولية معاً، بل وجعل آدم هو المحرك والمسؤول الأكبر عما جرى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ «طه: ١٢٠-١٢١».

٣. هل بعض سور القرآن ذكورية وبعضها أنثوية مثلاً كي نقول علموا هذه السورة للذكور وتلك للإناث؟ وهل المطلوب من الفتاة أن تغلق منافذ التفكير عندما تقرأ سورة يوسف وتعود لفتحها عند تلاوة باقي السور؟ هذا غير ممكن. أم أن المطلوب منها أن لا تقرأ هذه السورة نهائياً، فيكون عندنا مصحف غلافه باللون الوردي مثلاً ويكون خاصاً بالنساء، وآخر غلافه بالأزرق وهو خاص بالذكور؟

٤. ثم إنَّ في جانب من سورة يوسف بياناَ لسوء عاقبة المرأة التي كادت له، وكيف افتضح أمرُها وأصبحت مُهانَةً أمامَ الملِكِ، فهل هذا تعليم للفتنة أم خلاف ذلك؟ وهل في القرآن ما يُعلِّم الفتنة؟

٥. وأعتقد أنَّ أصلَ الفكرة مقولة للخليفة عمر بن الخطاب الذي كُتِبَ إلى أهل الكوفة - كما جاء في أكثر من مصدر كتفسير القرطبي والسيوطي وغيرهما - فقال: (عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ).

• التغلغل إلى الموروث الشيعي:

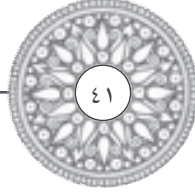
ثم دخلت هذه المقولة في الموروث الشيعي أيضاً - مع بعض الإضافات - باعتبارها حديث مروي عن الإمام علي عليه السلام، كما دخلت مرويَّات وأحكام شرعية بل وآراء لمفسرين من مدرسة أهل السنة على أنها روايات النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. والأمثلة على ذلك عديدة، ومن بينها:

في كتاب «أخبار النساء لابن الجوزي» وكتاب «الآداب الشرعية للمقدسي الحنبلي» عن الخليفة عمر بن الخطاب أنه قال: (استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهنَّ على حذر).

هذه المقولة تحوَّلت بقدره قادر إلى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يرويها الكليني كالتالي: (استعينوا بالله من شرار نساءكم، وكونوا من خيارهنَّ على حذر)؛ ودخلت في الموروث الشيعي.

ومن قبيل ما رواه الحاكم والطبراني والبيهقي وآخرون أنَّ الخليفة عمر خطب إلى علي عليه السلام أم كلثوم (فاعتلَّ عليه بصغرها فقال له: لم أكن أريد الباه، ولكنني سمعت رسول الله يقول: كلُّ سببٍ ونسبٍ ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي). ومرة أخرى تتحوَّل كلماته إلى رواية لعلي عليه السلام؛ وقد تحدثت في كتابي «ميثولوجيا الخضر» عن جانب من هذا الموضوع.

ابتعدنا قليلاً عن أصل الموضوع، ولكن كان من المهم أن أبيِّن أنَّنا كما نسعى إلى بيان الأحكام الشرعية والعناوين الأخلاقية عند معالجة موضوع خطير وحساس كموضوع التحرش الجنسي، فإننا بحاجة إلى إصلاح وعينا للمفاهيم، ورؤيتنا إلى الأمور.. وستكون لنا وقفة أخرى نكمل بها حديثنا هذا.



الخطبة الأولى

من لوازم الأخوة الإيمانية

نقل العياشي في تفسيره موقفاً للإمام الصادق عليه السلام يعالج من خلاله خلافاً في أسلوب تعامل المؤمنين مع بعضهم البعض. وقبل أن أنقل لكم الخبر لابد من مقدمة. فلأخوة الإيمانية حقوق وواجبات وأخلاقيات وآداب:

١. فهي علاقة مميزة وذات أهمية كبيرة في البناء الاجتماعي في الإسلام.
٢. ولذا فهي تستدعي التضحية والإيثار من أجل المحافظة عليها واستحكامها.
٣. كما وتستدعي التغاضي عن بعض الأخطاء والهنوات التي قد تصدر عن هذا الطرف أو ذاك.

٤. ولربما يكون للظروف العصبية التي يمر بها المجتمع الإيماني تأثيراً أيضاً في استدعاء كل ما يحقق التكاتف والتلاحم، وتجنب كل ما يمكن أن يثير الفرقة والتنازع. وقد عاش شيعة أهل البيت في بعض فترات إمامة الصادق وضعا متأزماً من خلال موجة الاعتقالات والإعدامات التي طالتهم.

• لنفهم موقف الإمام:

كل ما سبق يجعلنا نفهم موقف الإمام الصادق عليه السلام من هذا الرجل والحساسية العالية التي تعامل بها مع الموضوع. قال الصادق عليه السلام لرجل شكاه بعض إخوانه: (ما لأخيك فلان يشكوك؟ فقال: أيشكوني أن استقصيت حقي؟)!

أي أن كل ما قمت به هو أنني حاسبته على التفاصيل بما في ذلك الصغيرة منها، ولم أتجاوز عن شيء منها، فهذا حقّي (قال: فجلس مُغَضَّباً ثم قال: كأنك إذا استقصيت لم تُسيء!) أي هل تتصوّر أن استقصاءك لا يُعدّ إساءة إليه وإلى العلاقة بينكما وإلى حق الأخوة الإيمانية؟ (أرأيت ما حكى الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾؟ أخافوا أن يجور عليهم الله؟ لا والله ما خافوا إلا الاستقصاء، فسمّاه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء).

• أطراف التأثير السلبي:

هناك عدة أطراف يمكنها أن تؤثر بشكل سلبي على العلاقة الأخوية بين المؤمنين:

١. الشيطان، فهو لا يرتاح إلى نماء العلاقات الأخوية، قال تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. وأصل النزغ: الطعن السريع، واستعمل في الآية في الإفساد السريع الأثر. كأنها طعنات سريعة يوجّهها الشيطان إلى العلاقات الأخوية فيجعلها تنزف وتنزف إلى أن تفقد كل طاقتها وحيويتها وتموت وتزول.

فالشيطان دور تحريضي على النزاعات والخلافات والخصومات، وهو يتحين وقوع شيء من الخلاف أو الجفاء بينهم لينفخ في نار الكراهية وللدفع نحو إساءة الظن، وإثارة الذكريات السلبية ومراكمتها، والإلهاء عن إيجابيات تلك العلاقات وذكرياتها الجميلة، وما إلى ذلك من أساليب كثيرة وخفية، وحيل عديدة، تؤدي في النهاية إلى إفساد العلاقات وتهيج الشر.

٢. ومثل شيطان الجن هناك شيطان الإنس الذي قد يدخل على الخط، من خلال النميّة، أو الغيبة، أو بدافع الحسد، أو بدافع العداوة لأحد الطرفين، أو للمؤمنين عموماً، أو غير ذلك.

٣. النفس البشرية التي قد تدفع بأنانيّتها، وسوء سريرتها، أو بجهلها، ولغياب الحكمة والبصيرة إلى إيقاد الخلافات، واستحكام النزاعات.

وحيث أن إقامة العلاقات الأخوية، واستحكامها، ونمائها، وتطهيرها بأطر المحبة والإيثار والتعاون، يمثل غاية من غايات الإسلام، ولوجود تلك المؤثرات

السلبية التي أشرنا إليها، لذا نجد الإمام الصادق عليه السلام ينبّه في عدة روايات على دقائق الأمور المرتبطة بالعلاقات الأخوية، وأخلاقياتها، وآدابها، ونظام الحقوق والواجبات المتعلقة بها، وضرورة مراعاتها رغبة في استحكام تلك العلاقات، وتجنباً لما يمكن أن يعكّر صفوها. والحديث الذي بدأت به يعد نموذجاً منها.

لاحظ مدى تحسس الإمام من سوء تصرّف الشخص الملام.. فعلى الرغم من أنه قال أنه صاحب حق، إلا أن الإمام نبّهه إلى أن هذا النوع من التعامل لربما يؤدّي إلى إفساد العلاقات الأخوية.

إن العلاقة الأخويّة أثنى بمراتب من بعض الماديات، وهي تستحق أن يتغاضى من أجلها الإنسان عن بعض التفاصيل أو الأخطاء أو الهفوات التي يمكن أن تكون المحاسبة الاستقصائية عليها منفذاً من منافذ الشيطان لينزغ بين المؤمنين ويُفسد ما بينهما من وُدٍّ وصفاء.

الخطبة الثانية

مآسي الأمة والكفر بالنعمة

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «آل عمران: ١٠٣».

إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف يعني إحياء ذكرى النعمة الكبرى التي منّ الله عزوجل بها على البشرية برسالة سيد النبيين والمرسلين محمد ﷺ. وواحدة من أهم منجزات هذه الرسالة ما جاء في الآية الشريفة التي صدرت بها حديثي. إلا أن هذه النعمة تحتاج إلى رعاية، وإلى من يحوطها ويدافع عنها، وإلا فإنها

ستزول، حالها حال بقية النعم التي إن لم يُحِطها الإنسان برعايته فإنها ستكون مهددة بالزوال.

ولنلاحظ كيف خاطب النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بعد أن منَّ الله عليهم بنعمة النجاة من ظلم فرعون وطفغيانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذِكِّكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ «إبراهيم: ٦». ثم أعقب ذلك بالتحذير من الكفر بهذه النعمة حيث قال بعد الآية السابقة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ «إبراهيم: ٧».

• مسار واحد:

هذا المسار بتذكير بني إسرائيل بعظيم النعمة، والتحذير من الكفر بها، والتخويف مما سيجلب عليه من عذاب شديد، تكرر في الخطاب القرآني الخاص بأمة محمد ﷺ بعد التذكير بعظيم نعمة التأليف والتآخي.

قال عَزَّ وَجَلَّ في الآية ١٠٥ من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. هناك اختتمت الآية بالإنذار من العذاب الشديد، وهنا بالعذاب العظيم.. والمؤدي واحد.

وليس من الضروري أن نفهم هذا العذاب بكونه عذاباً أخروياً فقط، بل إن الاقتتال، والموت، والخوف، والجوع، والفقر، والذل، وتسلط الأعداء، وأمثال ذلك كلها من صور العذاب الدنيوي العظيم. والآن تعال وانظر إلى حال أمة محمد ﷺ.

فلو أردنا أن نقدّم وصفاً مختصراً لأهم ملامح المشهد السياسي والأمني – فقط – في العالم الإسلامي في أجواء المولد النبوي الشريف في هذا العام، فيمكننا أن نختصر ذلك في العناوين التالية:

• انقسام حاد:

أولاً، انقسام سياسي وأمني حاد بين جبهتين ومعسكرين رئيسيين، وبنكحة طائفية، ومسااعي صهيونية حثيثة لاستثمار هذا الانقسام، ومن بين ذلك ملفاً التطبيع ونقل السفارة الأمريكية إلى القدس.

الحديث عن التطبيع مع العالم العربي زادت وتيرته بشدّة هذه الأيام، وأصبح مُقلقاً لكل مَنْ يحمل في داخله شيئاً من الإحساس بالعزة والكرامة والغيرة الإسلامية أو العروبية.

قناة تلفزيونية محلية تحاور أحدهم فيتحدّث بجرأة عن أن وجود إسرائيل هو الحق الإلهي وأنه لا يوجد شيء اسمه فلسطين وأن الفلسطينيين هم الشتات، ويدعو لإقامة تحالف خليجي إسرائيلي.. ثم لا نجد أية ردّة فعل ذات أهمية.

لو كان قد تحدث عن سنة أو شيعة لقامت الدنيا ولم تقعد.. لو طعن في مطوّع سلفي أو معمم شيعي لقامت الدنيا ولم تقعد.. وأما أن يتحدّث عن القضية الأولى للعالم الإسلامي فغير مهم.

أنا لا أريد أن أعطي لشخص المتحدّث قيمة... ولكن أقول هكذا أصبحت معاييرنا، وهكذا تم توجيه بوصلة اهتماماتنا وأولوياتنا، وهكذا دوّخونا بصراعاتنا البينية.. وقد نجحوا في ذلك بامتياز.

أما قرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس والصادر سنة ١٩٩٥ والمخالف - على أقل تقدير - لقرارات الأمم المتحدة التي تقرّ بأن القدس الشرقية أرضٌ محتلة، فقد أجّلت الإدارات الأمريكية المتعاقبة تطبيقه مراعاةً لمصالح أمنها القومي. إلا أن الحديث اليوم بات قوياً بأن الإدارة الحالية ماضية قدماً في هذا الاتجاه، والذي يشجّعها على ذلك هو المشهد العام لأوضاع الأمة.

• الوضع في اليمن:

ثانياً، استمرار معاناة الشعب اليمني في أجواء الحرب القائمة في هذا البلد الذي يُعدّ من أفقر دول العالم من الناحية الاقتصادية، وحيث تعمّ المجاعة وتفتك به الملايا.

• مأساة الروهينجا:

ثالثاً، استمرار مأساة المسلمين الروهينجا الذين تمّ الاتفاق بين حكومتي بنغلاديش وميانمار على أن يعودوا إلى وطنهم بشرط أن يبقوا في ملاجئ مؤقتة فيها، لا أن يعودوا إلى بيوتهم. وحتى هذا المقدار من الاتفاق السيء لم يُنفذ.

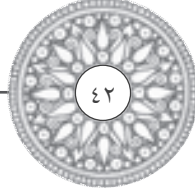
• تفجير سيناء:

رابعاً، تفجير وعدوان إرهابي على المسجد الروضة بسيناء، ترك وراءه أكثر من ثلاثمائة شهيد، ولم يكن لهم ذنب سوى أنهم لبّوا نداء صلاة الجمعة، وأنهم وقعوا ضحايا أهداف سياسية قذرة. وإن كان قد تم القضاء على دولة الخرافة الإرهابية التكفيرية بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من خلال تضحيات وجهود المخلصين من أبناء الأمة، إلا أن مساعيها الجهنمية لتدمير العالم الإسلامي لن تهدأ، وتوظیفها من قبل بعض الأطراف التي لا تريد الخير لهذه الأمة، أو التي لا يهمها إلا مصالحها الخاصة والضيقة، سيبقى مستمراً، بغض النظر عن الشعارات التي تُرفع من حين لآخر.

وهذا يستدعي اليقظة وعدم التراخي والاستمرار في مواجهة ومحاربة واستئصال الإرهاب التكفيري، لا على المستوى الأمني والعسكري فحسب، بل وعلى المستوى الفكري أيضاً.

• الوحدة في الموقف:

لقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المسلمين بعظيم المنّة عليهم إذ أرسل إليهم محمداً ﷺ الذي يحتفل العالم الإسلامي في هذه الأيام بذكرى مولده الشريف فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وكانت نعمة الألفة والتآخي والتحاب والتعاقد والوحدة في الموقف من أعظم تجليات تلك الرحمة الإلهية المهداة للبشرية، ومن هنا حملنا رسول الله ﷺ مسؤولية الحفاظ عليها، وحذّرنا من الارتداد العملي إلى السيرة الجاهلية التي كانت تستحكم فيها العداوة، مما يمثل كفراً صريحاً بتلك النعمة، حيث قال ﷺ في حجة الوداع وقد طلب من الناس أن يُنصتوا إليه تأكيداً على أهمية الأمر وخطورته: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) .. ومن المؤسف حقاً أن نجد الأمة قد وقعت فيما حُذرت منه وبأشنع الصور وأخسّها.. مما يستدعي من كل المخلصين أن يسعوا في الاتجاه الذي يعود بالأمة إلى المسار المتناغم مع الوصيتين الإلهية والنبوية، وإلا فلن تذوق بكفرها بعظيم النعمة إلا العذاب العظيم.



الخطبة الأولى

التحرش الجنسي - القسم الثاني

تحدثت من قبل عن التحرش الجنسي، وأرجأت الحديث عن العوامل المساعدة على الوقاية من هذه الظاهرة الاجتماعية السلبية ووسائل العلاج من وجهة نظر الإسلام. وسأتناول في هذه الخطبة بعضاً منها. وذكرت في حينه أن سورة النور توضح الكثير من معالم المعالجة الإسلامية للمسألة.

فهذه السورة جاءت بمجموعة من التشريعات الفردية، والقوانين الجمعية، والأخلاق، والآداب، وفلسفة كل واحدة منها. قال تعالى في أول السورة: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تشريعات وتوصيات واضحات الدلالة والغاية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولعلكم تعتبرون وتستفيدون.

• الفرق بين الأخلاق والآداب:

عندما نتحدث عن الصدق والأمانة والشجاعة والسخاء والعدالة وأمثال ذلك فإننا نتحدث عن الأخلاق.. عن القيم والمبادئ التي تحكم العلاقات الإنسانية، والتي إذا أخللنا بشيء منها ترك ذلك أثراً عميقاً وترتب عليه خلل اجتماعي.

وأما الآداب فهي السنن، والعادات، والتقاليد، وفنون التعامل، التي قد تكون جارية في مجتمع ما، ويعتبرها العُرف القائم أو المتوارث أو المشرع أمراً مطلوباً وزينة للفعل أو القول، ومكملاً لحسنه. وهذه الآداب ليس بالضرورة أن تكون موحدة لكل المجتمعات وفي كل زمان، على خلاف الأخلاق.

فالصدق من الأخلاق، ولو لجأ الناس إلى الكذب مثلاً انعدمت الثقة بين الناس اجتماعياً وسياسياً وثقافياً وعلمياً واقتصادياً.. أما قول: حاضر، من عيوني، ما يصير خاطرك إلا طيب.. فمن الآداب.

وهكذا فإن بر الوالدين من الأخلاق.. وأما تقبيل يد الأبوين فمن الآداب.. وعلى هذا فقس.

• آيات بينات:

سورة النور، ومن أجل تحقيق بيئة إنسانية سليمة وعفيفة في العلاقة بين الجنسين جاءت بالأمرين معاً.. الأخلاق والآداب.. بالإضافة إلى التشريعات والقوانين ونظام العقوبات، وكلها بحسب تعبير الآية الأولى من السورة: ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

مثلاً في الآيتين ٣٠-٣١ منها قَدَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بعض التشريعات: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ...﴾.

وفي الآيات ١٦-١٨ حديث عن الجانب الأخلاقي في التعاطي مع الخبر الكاذب الذي يمس أعراض الناس: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي الآية ٥٨ منها صورة من الآداب البيتية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذْنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وللقانون المحكم والصرامة في تطبيقه دور مهم أيضاً، وفي المثل: (من أمن العقوبة أساء الأدب). فعندما يغيب القانون، أو لا يكون صارماً، أو نجد التراخي

في تطبيقه، أو عندما يُمارَس بحق البعض دون البعض الآخر بلحاظات مختلفة كالنفوذ وسطوة المال والوساطات، أو تحت تأثير الرشاوى وشراء الذمم.. في مثل هذه الحالات نجد تقشّي الجرأة على كسر القانون وبكل وقاحة.

حتى في الدول المعروفة بصرامتها القانونية كالولايات المتحدة، نجد أن بعض التفاصيل المرتبطة بالإجراءات، ونقاط الضعف في القانون والتي يستغلها المحامون المتخصّصون في تبرئة المجرمين، تساعد على الجرأة على القانون وارتكاب الجريمة.

البيانات على موقع «رين» RAINN الخاص بأكبر منظمة تعمل ضد العنف الجنسي في الولايات المتحدة أظهرت أن ٩٩٤ من كل ١٠٠٠ مرتكب لجريمة الاغتصاب في أمريكا يفلتون من العقوبة!

بعد أن ذُكرت الآية ١٧٨ من سورة البقرة عقوبة القصاص، بيّنت الآية اللاحقة أن فائدة الصرامة في القانون تعود على المجتمع بالفائدة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

المسألة ليست مسألة تشفّي أو تعطش للعقوبة أو رغبة في فضح الناس ونشر غسيلهم.. المسألة هي مسألة حياة أو موت للمجتمع.. هذه هي وظيفة القانون في المجتمع.

ونجد في الآية الثانية من السورة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن أجل أن لا يكون هناك سوء استغلال لهذا القانون بإلقاء التهم جزافاً جاء التشريع اللاحق: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «النور: ٤-٥».

أي أن الفرق بين العقوبتين عشرون جلدة فقط.. بل إنَّ منعهم من الشهادة في المستقبل ما لم يتوبوا تعتبر ضربة قاصمة لمكانة الفرد وقيمه المعنوية في المجتمع، وهي أشد من عقوبة الجلد.

• التنشئة الإيمانية:

وأخيراً تأتي سورة النور لتبين لنا أن أهميّة التنشئة الإيمانية في صياغة الشخصية: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾.. سواء أكانت هذه البيوت هي المساكن التي يعيش فيها الناس أو المساجد أو المدارس أو غيرها، هذه البيوت: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رَجُلٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. فعندما تعيش هذه البيوت هذه الأجواء الإيمانية والعبادية والتقوئية والإنسانية الرفيعة والطاهرة، فإنها ستُخرّج أفراداً أسوياء في سلوكهم الاجتماعي، سواء فيما يرتبط بالعلاقة بين الجنسين، أو ما هو أشمل من ذلك، الأمر الذي يدفعنا إلى التأكيد على ضرورة إعادة الحيوية والفاعلية للدور التربوي للأسرة وللمدرسة والمسجد، وبما يوازي على الأقل التأثير الكبير لوسائل الإعلام والمعلومات على الأبناء.

الخطبة الثانية

القدس القدس.. وعض أصابع الندم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ نخاف من قوتهم وسطوتهم ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا﴾ أي الذين سارعوا فيهم ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ﴾ «سورة المائدة: ٥١-٥٣».

في سنة ١٩١٧ قدّمت بريطانيا ممثلةً بوزير خارجيتها «آرثر جيمس بلفور» وعداً بإنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين. واستغرق الأمر واحداً وثلاثين سنة إلى أن تحقق على الأرض، ففي سنة ١٩٤٨ وفي نفس اليوم الذي انسحبت فيه بريطانيا من فلسطين، أعلن «بن غوريون» زعيم عصاة «الهاغاناه» الإرهابية عن قيام ما يسمى بدولة إسرائيل.

في ذلك اليوم كانت الضفة الغربية تحت يد الأردن، وغزة تحت يد مصر.. وبعد أقل من عشرين سنة، وفي سنة ١٩٦٧ بالتحديد تم احتلال كامل الأراضي الفلسطينية.

• تساقط متتالي:

ومنذ ثمانينيات القرن العشرين صار العسكريان الغربي والشرقي يدغدغان مشاعر العرب بحلم إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، على أن تكون عاصمتها القدس.. وكان المطلوب منهم أولاً الاعتراف بإسرائيل كدولة لها الحق في الوجود، وعلى حدود ما قبل ١٩٦٧.. هكذا قالوا.

وبدأ بعض العرب يتساقطون.. الواحد تلو الآخر.. اعتراف أعقبه اعتراف.. واتفاقية بعد اتفاقية.. ووعود بالسلام، وأمنيات بإقامة دولة فلسطين.. ووعود بشأن القدس.. ولم يتحقق بعد كل التنازلات سوى إدارة فلسطينية – منزوعة السلاح والإرادة والاقتصاد – لغزة وشيء يسير من الضفة الغربية.. لا دولة ولا هم يحزنون.

• نقل السفارة الأمريكية إلى القدس:

وفي سنة ١٩٩٥ تكرر مشهد وعد بلفور.. ولكن هذه المرة بخصوص القدس على وجه التحديد. حيث وافق الكونغرس الأمريكي على نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وبالتالي اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل.. وليشرب العرب من ماء البحر.

وفي المقابل عُرض على الفلسطينيين والعرب أن يقبلوا بفرصة العمر.. بلدة صغيرة على أطراف القدس اسمها «أبو ديس» تكون بديلاً عن القدس.. إما أبو ديس أو لا شيء!

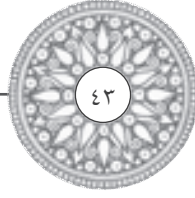
وعلى الرغم من تأجيل تنفيذ قرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، إلا أنه طوال السنوات التي تلت توقيع ما يُعرف بمعاهدات السلام، ومبادرات السلام، ومشاريع التطبيع وغيرها، استمر بناء المستوطنات الإسرائيلية على قدم وساق، وتم قضم المزيد من الأراضي من خريطة الضفة الغربية، وتغيير جغرافية الأرض وديموغرافيتها، واعتماد سياسة فرض الأمر الواقع على الأرض إلى أن جاءت الإدارة الأمريكية الحالية لتُمضي ذلك القرار المشؤوم.. وهذه المرة لم يستغرق الأمر واحداً وثلاثين سنة كما هو الحال مع وعد بلفور.. فهل سيعي العرب هذه المرة حقيقة أن لا شيء اسمه سلام مع إسرائيل؟ أم ستعلو بعض الأصوات المحتجة، ثم سرعان ما يتم الرضوخ للأمر الواقع لا سيما مع الانشغال بالمشكلات الداخلية والبنية التي تتعمد بعض الأطراف الدولية وأذنانها المحلية إغراقنا وإلهاءنا بها؟

• الموقف الكويتي:

وحسناً فعلت وزارة الخارجية بدولة الكويت إذ أعلنت رفضها القاطع لمثل هذه الخطوة، إلا أننا نتطلع إلى الاستمرار في الموقف الصلب برفض الاعتراف بالكيان الصهيوني فضلاً عن التطبيع معه، فهي مسؤولية تاريخية وستحاسبنا الأجيال القادمة لو خذلنا قضيتنا العادلة..

ومن مسؤوليتنا كأفراد وأحزاب ونقابات ومؤسسات أن نوصل صوت الرفض والاستنكار والاحتجاج عالياً، سواء عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو غير ذلك من الوسائل المتاحة كصورة من صور النهي عن المنكر.. وهل من منكر أشد من الصمت عن مثل هذه الجريمة بحق القدس وبحق قضية العرب والمسلمين الأولى؟

ولنتذكر أننا ككويتيين من أولى الناس بتحمل هذه المسؤولية، فقد ذُقتنا مرارة الاحتلال، وخبرنا ألم الظلم، ولا نريد أن نكون من ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ لا نريد أن نكون من هؤلاء.. لماذا؟ لأننا لا نريد أن نعص أصابع الندم حين لا ينفع الندم: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.



الخطبة الأولى أكل المال بالباطل

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ «النساء: ٢٩».

انتقال ملكية الأشياء من فرد إلى آخر، وعملية تبادل الملكية أيضاً أمر طبيعي في ظل حياة إنسانية مشتركة. بالطبع هناك صور من تبادل الملكية أو انتقالها تكون مقبولة عقلاً وشرعاً وحتى من الناحية الأخلاقية.. وهناك صور يرفضها العقل، ويحرمها الشرع، وهي قبيحة من المنظور الأخلاقي.

ومن هنا فرقت الآية الشريفة ما بين التجارة القائمة على التراضي بين الطرفين، وهي صورة من صور تبادل الملكية وانتقالها بين الأفراد، وما بين أكل مال الآخرين بالباطل.

والمقصود بكلمة الباطل كل الوسائل التي لا تركز على أساس شرعي وعقلائي وأخلاقي. فهناك أسس ثابتة تتسجم مع الشرع والعقل والأخلاق، وما يخالف ذلك فهو باطل وله آثاره السلبية.

والمسألة لا تدور مدار العناوين الواضحة فقط كالربا والقمار وتجارة المخدرات، فالدائرة أوسع.

ويمكن أن نأخذ بعض الأمثلة الفقهية في هذا المجال، وذلك من قبيل تحريم أخذ الأجرة على امتثال الحكم الشرعي، ولذا قال المرجع الديني الشيخ مكارم

الشيرازي: (لا يمكن لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يأخذ أجراً على ذلك، وإن أخذَه كان داخلاً في قاعدة أكل المال بالباطل).

مثال آخر: (لو أخذ مالاً في مقابل عمل ضمن وظيفته الإدارية أو الحكومية، لا يسمى ذلك رشوة، لكنّه مع ذلك حرامٌ على الآخذ؛ لأنّ أخذ النقود بإزاء عمل إداري يعدّ أكلاً للمال بالباطل).

كانت هذه مقدّمة مهمة للدخول في موضوع الخطبة الثانية حول التعامل بالعملات الرقمية من قبيل البيتكوين والإثيريوم واللايتكوين وأمثالها.

الخطبة الثانية

العملات الرقمية

كان الناس يتعاملون على أساس المقايضة، بتبادل مُلكية شيئاً بشيء.. ثم اخترعت النقود الذهبية والفضية.. ثم أوراق البنكنوت.. وهناك اليوم البطاقات البنكية والائتمانية.. ثم ظهر في السنوات الأخيرة ما يُعرف باسم العملات الرقمية. وقبل الحديث عنها، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أمرين:

الأمر الأول: أننا عندما نتحدّث عن الآثار السلبية المترتبة على ما عبّرت عنه الآية بعنوان «أكل المال بالباطل»، فإننا لا نتحدّث عن تلك المترتبة على الفرد فقط.

فالقرآن عندما يتحدّث عن المجتمع يتحدّث عنه باعتباره وحدة عضوية. ولذا فإن تقييم الأمور، بما في ذلك المعاملات، من حيث حُسْنها وقُبْحها، ونفعها وضررها، يجب أن يُلاحظ فيه ذلك أيضاً. فعندما تحدّثت الآية عن الأموال والتصرّف بها، والتحذير من العدوان عليها، فإنها تحدّثت عنها بعنوان «أَمْوَالُكُمْ».. فهل يقوم إنسان عاقل ورشيد بسوء التصرف بأمواله النقدية بأن يحرقها مثلاً؟

بالطبع لا.. هكذا عليكم أن تتعاملوا مع أموال الآخرين في دائرة المجتمع الواحد.. فالضرر الذي يلحق بملكية سائر الأفراد في هذا المجتمع ضرر بكم أيضاً، لأنكم وحدة واحدة.

• ملاحظة التأثير العام:

وعندما تحدّثت عن الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع، محدّرةً من الاعتداء عليهم بالقتل والظلم، فإنها تحدّثت عنهم بصفتهـم «أنفسكم».. فهل يقبل الإنسان العاقل بأن يلحق الضرر بنفسه فينتحر أو يقطع لسانه أو يقتلع عينيه مثلاً؟

ومن هنا – في التشريعات الخاصة بالمسائل الاقتصادية – لا ينبغي أن يُلحَظ النفع والضرر، والحسن والقبح، بما له علاقة بالفرد فقط، بل أن يُلحَظ أيضاً تأثيره على اقتصاد المجتمع، وترسيخ الطبقة الحادة، وتكوين الثروات لبعض الأفراد دون عائد حقيقي على التنمية، وغير ذلك.

ولودققنا في الشروط المتعلقة بصحة البيع والشراء وسائر التعاملات التجارية في التشريع الإسلامي، فإننا لن نجد لها من أجل حفظ حقوق الأفراد فقط، بل ومن أجل الحفاظ على الاقتصاد العام وتنميته أيضاً. وبالتعبير القرآني: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ «الحشر: ٧».

• النماء والتنمية:

الأمر الثاني: يبدو أن الإسلام يربط دائماً أو غالباً بين نماء المال وبين حصول ناتج خارجي حقيقي، أي أنه يمنع – أو على الأقل لا يشجّع – التعاملات التي ينمو من خلالها المال دون مردود تنموي حقيقي، وعلى الأرض، وفي الواقع.

وقد ذكر الشهيد الصدر في «اقتصادنا» أن من نتائج النظرية الإسلامية التي توصل إليها: كون الحصول على الربح من دون عمل حقيقي أو خدمة أو إنتاج يُعدّ من موارد أكل المال بالباطل.

وقد أشار المرجع الديني السيد فضل الله إلى أن أحد أسباب تحريم الربا هو أن صاحب المال يكسب دون إنتاج ولا عمل حقيقي ولا خدمة.. ومن هنا فهو أكل للمال بالباطل.

ومن هنا لم يصحّ بعض الفقهاء صوراً من التعامل بالأسهم، لأنها لا تستجمع شرائط عملية البيع والشراء، من قبيل:

١. التعامل بأسهم الشركات الورقية «أي الشركات التي لا يكون لها نشاط اقتصادي حقيقي».

٢. البيع الآجل.

٣. وعدم وجود مال عيني ضمن الشركة بما يقابل تلك الأسهم.

واليوم صارت العملة الرقمية مفردة مالية جديدة بدأت تأخذ مكانها في عالم الاقتصاد، ويجب أن تُدرس بدقة وحذر.

• ظهور العملات الرقمية:

في تسعينيات القرن العشرين، ومع بدء بروز تكنولوجيا المعلومات والإنترنت، ظهر الذهب الإلكتروني E-gold باعتباره صورة جديدة من صور تحويل وتبادل العملات عبر الإنترنت، ولكن بعيداً عن الأنظمة والقوانين المالية المعتمدة في العالم. وبعد ذلك بدأت تظهر بعض العملات الرقمية.. عملات ليس لها وجود حقيقي في الخارج، ولكن لها قيمة شرائية، وهذه القيمة يمكن أن ترتفع، ويمكن أن تنخفض، ويمكن أن تتلاشى نهائياً.

يعني يمكن لك أن تمتلك كمية منها، وتنتظر إلى أن ترتفع أسعارها مثلاً فتبيعها وتربح.. أو أن تشتري بها بعض البضائع من خلال شبكة الإنترنت... كما ويمكن أن تشتريها بمبلغ وقدره، فإذا بها بلا قيمة نهائياً، وضاعت بذلك أموالك كلها.

في مطلع العام الحالي كانت قيمة إحدى هذه العملات لا تتعدى الألف دولار، وقبل أيام ارتفعت لتصل إلى ١١ ألف دولار! ثم في ليلة واحدة فقدت ما يقارب الـ ٢٠٪ من تلك القيمة. تجاوزت الآن القيمة الاسمية الإجمالية لهذه العملة ١٦٧ مليار دولار! تخيلوا لو أنها تبخّرت في ليلة وضحاها!

• فقاعة اقتصادية:

هناك مصطلح متداول في عالم الاقتصاد، وهو مصطلح «الفقاعة الاقتصادية»

Economic bubble وذلك عندما تكون هناك مضاربة على سلعة فيرتفع سعرها إلى مستويات عالية جداً دون أساس واقعي، أو أن يشهد اقتصاد ما رواجاً كبيراً لفترات زمنية محدودة، دون أن تستند إلى قاعدة إنتاجية متينة.. في الحالتين يكون الوضع - كانتفاخ الفقاعة - قابلاً للانفجار في أية لحظة.

• تجربة المناخ:

ما جرى لسوق المناخ في الكويت في ثمانينات القرن العشرين، وللبورصة قبل سنوات قليلة أيضاً، وفي أزمة الرهن العقاري عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨، وما عُرف باسم «جنون أزهار التيوليب الهولندية في سنة ١٦٣٧» إذ ارتفعت قيمة بصيالات هذه الزهرة إلى أسعار خيالية حتى بيع القليل منها مقابل أرض زراعية بماشيتها! كلها أمثلة على هذه الفقاعات الاقتصادية المغرية والخطيرة.

ويؤمن عدد من الاقتصاديين أن العملة الرقمية مجرد فقاعة.. لأنها لا تعتمد على إنتاج حقيقي.

نعم، الباحثون عن الثراء السريع، والساعون وراء تحويل الأموال بطرق غير قانونية، وجماعات غسيل الأموال، وأمثال هؤلاء قد يناسبهم التعامل بالعملات الرقمية.

• لهاث وراء الأرباح:

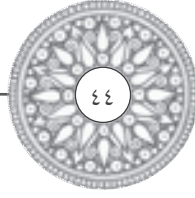
وللأسف فإن كثيراً من اقتصاديات العالم لا تتعلم من الدروس السابقة، لأنها لا تفكر إلا بالربح، ففي حين جرّمت بعض الدول التعامل بالعملات الرقمية واعتبرتها مضرّة بالاقتصاد، فإن بعض الدول وجدت نفسها أمام أمر واقع، وقبّلت بها بشرط خضوعها للضرائب مثل الممتلكات، بل ونجد أن ولاية شيكاغو أدرجتها في بورصتها.. ولربما تتخذ بورصات أخرى نفس الإجراء في المستقبل.

• ضرورة المعالجة الفقهية الدقيقة:

مسألة العملة الرقمية من قبيل «البتكوين والإثيريوم واللايتكوين» باتت مفردة جديدة وحساسة في عالم الاقتصاد، وهناك حديث جاد عند بعض الاقتصاديين في العالم عن أن صعود قيمة بعضها وبصورة كبيرة جداً مؤشّر على أنها دخلت

في منعطف جديد، وأنها ستفرض نفسها عاجلاً أو آجلاً على الساحة الاقتصادية العالمية كعملة من العملات المطروحة في الأسواق الحقيقية، وقد قامت بعض الدول - تبعاً لمصالحها الضرائبية - بالاعتراف بها ووضع القوانين الخاصة بتنظيم التعامل بها. إلا أن مكن الخطورة يتمثل في أنها سلعة بلا مردود إنتاجي حقيقي.

ولذا فإن العملة الرقمية بحاجة إلى معالجة فقهية اقتصادية دقيقة، خاصة وأن المسألة لم تُطرح إلى الآن فقهياً بصورة تُشبع كل جوانبها، وما هو متوافر عبارة عن استفتاءات تُعد على أصابع اليد وقائمة على تصوّرات فردية وسطحية. ونتطلّع إلى أن لا تُعالج المسألة كفقهاء يرتبط فيه الحكم بتكليف الأفراد، بل كمفردة اقتصادية تؤثر على المجموع، ولذا فهي بحاجة إلى قراءة اقتصادية متكاملة أولاً، ومن ثمّ عرضها على الفقهاء ومناقشتها وفق الأسس والعناوين الكبرى في التشريعات الاقتصادية الإسلامية، لتكون الفتوى أقرب إلى تلك الأسس وبمعالجة واقعية تحقق المصلحة وتدفع الضرر.



الخطبة الأولى المسؤولية الفردية في الآخرة

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ «النحل: ١١١».

تكرر الحديث القرآني عن تحمّل الإنسان مسؤولية أعماله بنفسه.. كما في الآية السابقة، وكما في قوله جَلَّالَهُ: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ «مريم: ٩٥»، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ «الأنعام: ٩٤».

وكأنّ الله يقول لنا أنّ الإنسان في الحياة الدنيا يملك أن يأتي بمن يدافع عنه.. أن يأتي بمحامي الدفاع ليتحدّث بدلاً عنه، وليقدّم الحجج نيابة عنه، ليستخلصه في نهاية المطاف من العقوبة.. أما في الآخرة فلا مجال لذلك أبداً.

• كلٌّ يحمل وزره:

في محكمة العدل الإلهي يُخلى كلُّ إنسان وكتاب أعماله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وليس هذا فقط، إذ تكمل الآية فتقول لنا: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ «الإسراء: ١٣-١٥». أي ولا يستطيع أحد أن يحمل خطايا شخص آخر، وأن يتحمّل مسؤولية ما فعل، لأنّ كلَّ إنسان يحمل خطايا الشخصيّة على ظهره.

في الكافي عن أبي النعمان العجلي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (يا أبا النعمان، لا يغررك الناس من نفسك، فإن الأمر يصل إليك دونهم).

فما أكثر الذين يخدعوننا ويقدمون لنا الأمان والوعود المرتبطة بالآخرة فيجعلوننا نتجراً على المعصية.. ولكن الحقيقة القرآنية هي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَلِيَحْمِلُنْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ «العنكبوت: ١٢-١٣».

• من دعاء أبي حمزة:

هذه الصورة الأخروية ليست بالأمر الهين.. وقد قدمها الإمام علي زين العابدين عليه السلام في الدعاء الذي علمه لأبي حمزة الثمالي كالتالي: (ومالي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تُخادعني، وأيامي تُخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت، فمالي لا أبكي؟ أبكي، لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكروني وأيامي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري، أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلّاق في شأن غير شأني، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

• ضرورة المراجعة:

هذه هي الحقيقة الأخروية التي يجب أن ندركها، وندع كل تصور آخر يزينا لنا المعصية، وبهون لنا الأمور، فإذا كان الإمام زين العابدين عليه السلام وهو الإمام الطاهر الطهر يتحدث عن خوفه من مصيره الأخروي بهذه اللغة، وبهذه التعابير، وبهذه الصورة المخيفة، فكيف بنا نحن؟ حري بنا أن نراجع أنفسنا في قناعاتنا وتصوراتنا التي لربما كان مصدرها تسويلات الشيطان الذي يريدنا أن نشركه الشقاء في الآخرة.

الخطبة الثانية في بيتنا فرعون

من خلال الحديث القرآني عن فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَام أخذت الشخصية الفرعونية طابعاً خاصاً في الثقافة العربية، وفي الذهنية العامة.. فهو:

١. الطاغوت الذي تضحمت شخصيته بحيث لا يرى إلا ذاته المتعالية: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ «طه: ٢٤».

٢. وطغيانه هذا يدفعه إلى احتقار كل من سواه، وتبرير كل ما يفعله، لأن كل ما يفعله هو الصواب، بل هو في ذاته ووجوده عين الصواب: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ «غافر: ٢٩».

٣. وهذا التعالي قد يبلغ المرتبة التالية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ «القصص: ٣٨».

وليس بالضرورة أن يقول هذا الكلام.. ولكن أفعاله تتم عن ذلك، بحيث يجعل نفسه كالإله، يفعل ما يشاء.

٤. ومن أجل أن يسيطر ويحقق لنفسه ما يريد، ولأنه لا يرى قيمة للآخرين الذين يقعون تحت نفوذه، فهو يمارس معهم ما شاء من صور الطغيان: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ «القصص: ٤».

وليس بالضرورة أن تبلغ أفعال الشخصية الفرعونية هذا المستوى من الإجرام، ولكنها من هذا النمط المفرق والمؤذي والمدمر للنفس وللشخصية.

٥. وهو متمادي في أفعاله وتصرفاته وطغيانه إلى درجة الإسراف فيها: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ «يونس: ٨٣».

٦. وقد تبلغ الأمور مستوى من الطغيان الذي يتمنى فيه من وقع تحت سلطانه

الخلاص منه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِّن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِّن الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
«التحریم: ۱۱».

وليس بالضرورة أن يكون الإنسان في موقع الحكم كي يكون فرعوناً.. ففي كل موقع فيه نوع من القيادة والسلطة يمكن أن يظهر لنا فرعون بحجم مختلف وبهيئة مغايرة. ففي دائرة العمل والوظيفة يمكن أن يظهر فرعون.. وفي العمل الحزبي يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الشارع يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الدوائر التعليمية يمكن أن يظهر فرعون.. وفي البيت يمكن أن يظهر فرعون.. وهو ما أود أن أتحدث عنه اليوم.

• معاناة بعض الأسر:

بعض الأسر تعاني من رب الأسرة المتفرعن.. الزوجة تعاني.. والأبناء يعانون.. ولربما عانت منه أيضاً زوجات أبناءه في المستقبل، وعانى منه أحفاده. كل الصور التي تحدثت عنها حول فرعون حاضرة في شخصيته وتصرفاته وطريقة إدارته.

وهذا قد يؤدي إلى تدمير شخصية أبنائه، إذ يلغي كل رأي لهم، حتى إذا دخل هذا الولد عالم الزواج فقد القدرة على إدارة بيت الزوجية، وكان أبوه هو الذي يوجهه كدفعة السفينة. ولا يعرف هذا الولد من إدارة بيت الزوجية إلا الصورة التي رسخت في ذهنه من ممارسات أبيه.. ضرب وشتائم وإهانات وتحقير.

• قرارات مدمرة:

وقد تتخذ الشخصية المتفرعنة إجراءات وقرارات تدمر الأسرة اجتماعياً أو اقتصادياً، وذلك بقرار أحق ومزاجي، بلا تفكير سليم، ولا استشارة، ولا مشاركة زوجته وأبنائه في ذلك.. يصدر الفرمان وعلى الجميع أن يطيعوا.

يدخل رب الأسرة في نزاع شخصي مع إخوانه مثلاً، أو مع بعض أهل زوجته، ويصدر الأمر الفرعوني.. منع تام لأي نوع من التواصل الاجتماعي معهم! قطع أرحام قد يمتد لعقود من الزمان، ويتوارثه الأبناء.. والتبرير حاضر: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

بمعاملة «تجارية» مزاجية يفقد من خلالها ممتلكاته بما في ذلك المنزل الذي يؤوي الأسرة، ويحوّل حياتهم الكريمة إلى جحيم الديون والسجون. يجلس في الديوانية، ويتأثر بالكلام الذي يدور فيها، ويُغرى بالأرباح السريعة، ولا يفكر باحتمالات الخسارة التي قد تضيق كل شيء، وهذه هي النتيجة.

• معنى القِوامة:

رب الأسرة.. مطلوب منه أن يمارس قوامته: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ «النساء: ٣٤»، إلا أن القِوامة شيء، والتفريع شيء آخر.

فالقِوامة لا تعني إلغاء الآخر، الزوجة.. والأبناء.. فلا رأي لهم، ولا قيمة، ولا هوية، ولا اختيار، ولا شخصية مستقلة.. خاصة في القرارات المهمة والكبيرة والمصيرية.. بل تعني القيادة والإدارة.. وهذا في حد ذاته فن، ويحتاج إلى مهارات.

وعندما تطّلع اليوم على فن الإدارة تدرك أنّ المدير الناجح هو الذي يستطيع الارتقاء بالمهمة الموكلة إليه بمساعدة مرؤوسيه، ولعل أبلغ ما يصوّر ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ «آل عمران: ١٥٩».

على مستوى أسلوب القيادة، هناك حزم وهناك لين.. فالإنسان الفظ غليظ القلب شخصية طاردة، ولو كان زوجاً أو أباً.. قد يصل إلى مبتغاه، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى القلوب.

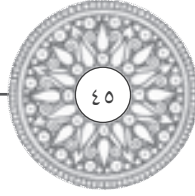
وإذا كانت هناك أمور لا يستطيع التنازل عنها.. لأنها لا تصبّ في مصلحتهم.. أو لأنها محرّمة.. المطلوب هنا أن يكون حازماً.. والحزم لا يعني العنف الكلامي، ولا العنف الجسدي.. ولذا عليه أن يمزج هذا الحزم باللين.. أن يبيّن لهم لماذا.. وأن يُظهر لهم المحبة.. وأن يدعو لهم بالخير.

وكما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ) وليس بالضرورة أن يكون حاكم دولة، فالرعية هم من يراعهم (وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ).

ثم على مستوى القرارات الهامة والكبيرة يجب أن ينتبه رب الأسرة إلى أنه قد تغيب عنه بعض التفاصيل.. وقد لا ينتبه إلى بعض النتائج السلبية المحتملة.. كما أن أصل إشراك أسرته في قراراته يحسبهم بقيمتهم وأهميتهم عنده.

• محبة وتراحم:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى أصل العلاقة الزوجية منذ بداية تكونها قائمة على المودة والرحمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ «الروم: ١٢»، ثم أعطى للزوج القوامة على زوجته دون أن يعني ذلك الطغيان والتفرعن والمزاجية والإيذاء، بل بمعنى حسن الإدارة والقيادة، وهذه الإدارة والقيادة فن، وهي تحتاج إلى مهارات تلخصت في قول الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، ومن الحكمة أن يختار رب الأسرة جوَّ المحبة والتراحم والتواصل على أجواء القهر والكرهية والتفكك، وكما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ).



الخطبة الأولى بين تجارتين

من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة برقم ٦٣، وهي في المبادرة إلى صالح الأعمال قال فيها: (وَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ).

ثم يبين الإمام عليه السلام أنه ولكي تتحقق التقوى لدى الإنسان لابد وأن يتخذ مجموعة من الإجراءات، وأن يبني نفسه فكرياً وروحياً بما يحقق هذه التقوى وذلك من خلال أمور، من بينها: (وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ) فلا تجعل الموت يفاجئك، فهو قد يهجم على الإنسان من حيث لا يحتسب، وإذا به وقد انتهى أجله، فلا مجال للعودة إلى الحياة، ولا مجال لإصلاح ما أفسد.

(وَابْتَاعُوا) واشتروا (مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ) عبر القرآن الكريم عن التعامل مع المصير الأخروي بالتجارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ «الصف: ١٠»، وهنا يكرر الإمام عليه السلام هذه الصورة... فهناك بضاعة أخروية معروضة، وهي الجنة، ولا بد لها من ثمن يقدمه الإنسان في هذه الحياة. وفي أية لحظة قد تفقد الظرف الذي من خلاله توفر هذا الثمن، فبادر لاستثماره في شراء بضاعة أعلى قيمة من الثمن المدفوع بمراتب، وهي بضاعة باقية لا تزول.

(وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ) أعدوا زاد الرحيل عن هذه الدنيا، فالسفر قريب، وهذا السفر ليس اختيارياً.

(وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكُكُمْ) أَي قَرُبَ مِنْكُمْ وَصَارَ كَالظَّلِّ (وَكُونُوا قَوْمًا صَاحِبِينَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بَدَارٌ فَاسْتَبَدُّوا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرَكْكُمْ سُدًى) مَهْمَلِينَ (وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ).

وأنتم بين خيارين، خيار الانكباب على الدنيا، وخيار الاستعداد للآخرة، فأما الخيار الأول فتجارة خاسرة، لماذا؟ يقول الإمام: (وَأِنَّ غَايَةَ تَنْقِصِهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِيمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقَصْرِ الْمُدَّةِ) كل شيء تعمله للدنيا فهو إلى زوال، وممتعته محدودة ومؤقتة، على خلاف ما كان للآخرة.

ثم يشبّه الإمام عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ الموت بالإنسان الغائب الذي قد ركب الناقة وقائدها الليل والنهار، يحدّوان لها للتقدّم به نحوك، فيقول: (وَأِنَّ غَائِبًا يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لِحَرِيٍّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ) والتوبة العاجلة (وَأِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ لِمُسْتَحِقٍّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ نَفْسَكُمْ عَدَاً).

الخطبة الثانية

الزوجة المتنمرة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
«التحریم: ۱-۲».

تحكي سورة التحريم واحدة من صور المعاناة ذات الطابع الاجتماعي التي واجهها رسول الله ﷺ، وهي ذات طابع خاص، ولدائرة خاصة، لأنها ترتبط بالخصوصية الأسرية للنبي.

وَعَرَّضُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ الْمَمْرُوجَةِ بِالْوَعِيدِ: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ، عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم: ۳-۴) «يُعْطِي انْطِبَاعًا بِأَنَّ الْقَضِيَّةَ تَرَكْتَ أَثْرًا نَفْسِيًّا عَمِيقًا فِي مَشَاعِرِ النَّبِيِّ ﷺ، الْأَمْرَ الَّذِي اسْتَدْعَى التَّدْخُلَ السَّمَاوِيَّ انْتِصَارًا لَهُ، وَحَسْمًا لِلْمَوْقِفِ.

وَالَّذِي يُوَكِّدُ هَذِهِ الصُّورَةَ مَا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الضَّغْطِ الْمُمَارَسِ عَلَيْهِ، إِذْ أَقْسَمَ عَلَى تَرْكِ أَمْرٍ لَمْ تَذْكُرِ الْآيَاتُ مَا هِيَ، وَلَكِنَّا نَعْرِفُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَصْلِ أَمْرًا مَبَاحًا لَهُ، فَآثَرَ الْامْتِنَاعَ عَنْهُ، وَالْغَايَةَ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ الْآيَةِ: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

• مفهوم التَنَمَّر:

فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي تَحَدَّثْتُ عَنِ الرَّجُلِ الْمَتَفَرِّعِ فِي أَسْرَتِهِ، وَالْآثَارِ السَّلْبِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي قَدْ تَهْدَمُ هَذَا الْكِيَانُ، أَوْ تَدْمُرُ شَخْصِيَّةَ الْأَنْبَاءِ.

وَذَكَرْتُ فِي حِينِهِ أَنَّ الشَّخْصِيَّةَ الْفِرْعَوْنِيَّةَ الْمَعْرُوضَةَ فِي الْقُرْآنِ تَرَكْتَ أَثَرَهَا عَلَى اللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَظَهَرَ مِصْطَلَحُ التَّفَرُّعِ... كَذَلِكَ نَجِدُ مِصْطَلَحَ «التَّنَمَّر» الْمَشْتَقَّ مِنَ النَّمْرِ، وَهُوَ الْمَفْتَرَسُ الْمَعْرُوفُ. جَاءَ فِي الْمَعَاجِمِ: (تَنَمَّرَ الشَّخْصُ: نَمَرَ؛ غَضِبَ وَسَاءَ خُلُقُهُ، وَصَارَ كَالنَّمْرِ الْغَاضِبِ).

وَلِذَا صَارَ يُطْلَقُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْعَنِيفَةِ، وَذَاتِ اللِّسَانِ السَّلِيطِ مِصْطَلَحُ «الْمَتَنَمَّرَةِ»، وَفِي التَّعْبِيرِ الشَّعْبِيِّ الدَّارِجِ عِنْدَنَا «النَّسْرَةُ» اشْتِقَاقًا مِنْ طَائِرِ النَّسْرِ الْجَارِحِ.

• كَلِمَاتُ مَعْبَرَةٍ:

وَمِنْ لَطِيفٍ مَا قَرَأْتُ قَوْلَ الْحَكِيمِ «بَزْرَجْمَهْر» أَحَدِ زُرَّاءِ بِلَادِ فَارَسٍ: (صَارَعْتُ الْوَحُوشَ فَصَرَعْتُهُمْ، وَجَالَدْتُ الشُّجْعَانَ فَغَلِبْتُهُمْ، فَلَمْ تُرْهَبْنِي إِلَّا الْمَرْأَةُ السَّلِيطَةُ الْلسَانُ).. وَلِلْعَلَامَةِ الْغَزَّالِيِّ فِي كِتَابِهِ «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» مَقُولَةٌ أُخْرَى طَرِيفَةٌ، قَالَ: (الصَّبْرُ عَلَى لِسَانِ النِّسَاءِ مِمَّا يُمْتَحَنُ بِهِ الْأَوْلِيَاءُ).

فِي مَوْرُوثِنَا الْإِسْلَامِيِّ هُنَاكَ أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ تَحَاوَلُ مِنْ خِلَالِ الضَّرْبِ عَلَى

الْوَتْرُ الأَخْرَوِي أَنَّ تُهْذَبَ سُلُوكُ هَذِهِ النُّوعِيَّةِ مِنَ النِّسَاءِ خَوْفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ مَا رُوِيَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ بَاتَتْ وَزَوْجَهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ فِي حَقٍّ، لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا).

والقيد المذكور في هذا النص «في حق» مهم في فهم سائر النصوص، فليست المسألة مجرد غضب الزوج على زوجته مطلقاً، كي نقول أَنَّ هذه النصوص ذكورية، بل في الحالات التي يكون فيها الحق معه.. فالله هو الحكم العدل، وهو لا ينتصر لطرفٍ ما بل يحاط جنسه.

ومن جهة أخرى فإنَّ هذه النصوص التي تتحدَّث عن العواقب الأخرى الوخيمة ليست مقصورة على المرأة كي يُقال مرّة أخرى بأنها وُضِعَتْ انتصاراً للذكر على الأنثى، إذ نجد على سبيل المثال الحديث النبوي التالي: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ آذَتْ زَوْجَهَا بِلِسَانِهَا لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهَا صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَلَا حَسَنَةً مِنْ عَمَلِهَا، حَتَّى تَرْضِيَهُ..... وكذلك الرجل إذا كان لها ظالماً).

والمتتبع للأحاديث يجد أنَّ هناك تأكيداً على حق الزوج في نيل الاحترام على المستوى الشخصي، والتقدير لمقام القوامه الذي اختاره الله عزَّ وجلَّ له، وربط ذلك بالرضا الإلهي عنها في الآخرة، ومنها الحديث النبوي التالي: (لا تُؤْذِي المرأةُ حقَّ الله عزَّ وجلَّ، حَتَّى تُؤْذِي حقَّ زوجها).

وعنه عليه السلام: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ لَمْ تَرْفَقْ بِزَوْجِهَا، وَحَمَلَتْهُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَمَا لَا يُطِيقُ، لَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا حَسَنَةً، وَتَلْقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهَا غَضَبَان).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَتْ لَزَوْجِهَا: مَا رَأَيْتُ قَطُّ مِنْ وَجْهِكَ خَيْرًا، فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهَا).

• صورة نمطيّة:

هذه الصور المذكورة في القرآن وفي الأحاديث صورٌ نمطيّة متكرّرة تظهر في سلوك المرأة المتمرّدة بأشكال وألفاظ متغايرة، ومؤدّاها واحد، وهي قد تكون ناتجة عن:

١. سوء تربية في البيت الذي نشأت فيه.

٢. أو تأثراً وتطبعاً بسلوك أمها، فلا تعرف أسلوباً آخر للتعامل مع الزوج سوى ذلك.

٣. أو نتيجة تساويات وتحريضات صديقاتها أو وسائل الإعلام والتواصل.

٤. ولربما يساهم الزوج نفسه في نفخ روحية التمر فيها، وذلك عندما تجد الزوجة أن زوجها:

أ. ضعيف الشخصية، لا يملك ثقة في نفسه، كثير التردد، قليل الهمة، غير مُبادر.

ب. أو قد تخلّى عن مسؤولياته وواجباته الأسرية الطبيعية، فهي التي تُنفق، وهي التي تتسوّق، وهي التي تُعزّز المعاملات، وهي التي تتابع الشؤون التعليمية والصحية لأبنائها.. إلخ.

وبهذا تجد الزوجة أنّ مَنْ يُفترض به أن تكون له القوامة، وإدارة شؤون الأسرة بالأصالة، قد تخلّى عنها، لتقوم هي بتقمص شخصية «سي السيد».

• مخالفة الفطرة:

وأيّاً كانت الأسباب، فإنّ عاقبة مخالفة الفطرة السليمة، والتمرد على نظام القوامة في الأسرة والذي رسم معالمه القرآن الكريم، وذلك من خلال الدور الذي تمارسه الزوجة المتمردة، لن تقف آثاره السلبية عند حدّ تهديد استمرار العلاقة الزوجية، بما يتناغم مع قول الله عزّ وجلّ لنبيه الكريم ﷺ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾، بل وتتجاوز ذلك لتلقّي بظلالها على تربية الأبناء، وبناء شخصياتهم، وعلى المستقبل الأخروي المُظلم الذي ينتظرها حين تقف بين يدي الله عزّ وجلّ.



الخطبة الأولى

أبناء متمرّدون

في سورة الأحقاف عرضُ لصورتين متضادتين من الأولاد.. صورة الولد المُحسن المنطلق في إحسانه من إيمانه بالله عَزَّوَجَلَّ ومن أخلاقه القويمة، وصورة الولد المتمرد المنطلق في تمرّده من القاعدة الفكرية الضالّة التي تؤثر على سلوكيّاته تجاه والديه، وتجعله شخصاً وقحاً ومتجبراً.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ تعبيرٌ عن تعبها وتأمّلها اللذان يدفعانها إلى التبرّم من الحمل والولادة. والآية تسعى لتحريك الجانب العاطفي عند الأبناء تجاه الوالدين لعل ذلك يثمر عن إيقاظ الجانب الإنساني فيهم من خلال هذه الحركة العكسية في الزمن بما تحمل من معاناة وذكريات ودلالات.

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ليس شهراً ولا شهرين.. ثلاثون شهراً من التعب والرعاية اللصيقة والسهر والدموع والآلام.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي أنّ هذا الإحسان بالوالدين يجب أن يستمر حتى في زمن بلوغ الأشد. وجاء التخصيص بزمان بلوغه الأشدّ لأنه زمن يكثر فيه الانشغال، بالإضافة إلى الشعور بالقوة والاستقلالية عنهما، خاصة عندما يتزوَّج... فجاء التنبيه بأنّ لا يفتر عن الإحسان إلى الوالدين.. والأربعون كمال الأشدّ جسدياً وعقلياً.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ وهذا من الإحسان إليهما، فهو مأمور بالدعاء لهما، بحيث لا يشغله الدعاء لنفسه وأوضاعه عن الدعاء لهما. وفي هذا إشارة إلى أن الإحسان إليهما يجب أن يتم في غيبتهما كما يتم في حضورهما.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾. وهكذا تنتهي الصورة الأولى بأروع ما يكون في خواتيمها.

ثم تعرض الآيات الصورة السلبية المقابلة، صورة الولد المتمرد: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُيَ أَفْ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ في احتقار وانزعاج منهما لأنهما يفرضان نفسيهما عليه، ويتدخلان في حياته، في الوقت الذي يرى أنه لا يحق لهما الاعتراض على فكره وسلوكه، لأنهما لا يملكان الدرجة العليا من الفكر والتقدم والثقافة المعاصرة في نظره.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هكذا يبقى قلب الأب وقلب الأم في لوعة وألم وحسرة لأنهما يتمنيان له ما يتمنيان لنفسيهما. وهذه عاطفة طبيعية لدى الأبوين، حتى أن نوحاً عليه السلام في اللحظات الحاسمة من الطوفان دعا الله عز وجل أن يستثني ابنه من الإهلاك، وهو يعلم أن ابنه ضمن الفئة التي حكم الله عليها بالإهلاك: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ «هود: ٤٥-٤٦». هذه هي عاطفة الأبوين الطبيعية التي طغت حتى على الحالة النبوية عنده.

وأما ردّة فعله على كل هذا الحنان والحب والتألم: ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ولهذا النموذج من الأبناء مصير أخروي بائس: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي العقاب الذي ينتظرهم في الآخرة ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

الخطبة الثانية

آباء يستغيثون

الشعور بالقوة والعظمة وتفعيل حالة العزة في الموضع الخطأ من أخطر أسباب تدمير جوانب الخير والصلاح في شخصية الإنسان.

فمثلاً أن تشعر بالقوة والعظمة والعزة حين تُنزل الهزيمة بالصهاينة وتذلّهم فهذا لا ضير فيه، بل هو أمر مطلوب وممدوح، وشعور في محله. ولذا قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ «المائدة: ٥٤».

وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ «الفتح: ٢٩».

• موقفان مختلفان:

ذكرت كتب السيرة أنه لما بلغ رسول الله ﷺ وادي ذي طوى يوم فتح مكة، ويقع هذا الوادي إلى الشمال من المسجد الحرام، وقف على راحلته وإنه ﷺ (ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عُثْنُونَهُ) طرف لحيته المباركة (ليكاد يمس واسطة الرحل).

بينما في عمرة القضاء حين دخل النبي ﷺ والمسلمون مكة بعد كل سنوات المحنة والتهجير والحرب، أخذ عبد الله بن رواحة بزمام ناقته ﷺ وأنشد أبياتاً تُظهر القوة والعزة، فقال له الخليفة عمر: (مه يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله؟ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهو

أسرع فيهم من نضح النبل) أي رشقات السهام المتتالية. ثم وجه النبي ابن راحة لقول أفضل وأكثر عزة. قال له: (إيها يا بن راحة، قل: لا إله إلا الله وحده. صدق وعده. ونصر عبده. وأعز جنده. وهزم الأحزاب وحده). هذا موقف، وذاك موقف، وكل منهما يتطلب أسلوباً مناسباً في التعامل، والخلط بينهما قد تكون له نتائج وخيمة أحياناً.

• اعتزاز، ولكن!

ومن هنا نقول أنّ من حقّ الأبناء أن يشعروا بالاعتزاز بما يمتلكون من علم وثقافة، ولكنّ تعاضل الاعتزاز بالنفس والشعور بالتفوّق على الوالدين علمياً أو فكرياً أو مهنيّاً أو جسديّاً، أو في غير ذلك من المجالات، سيجرّ إلى نتائج شبيهة لما ورد في آيات سورة الأحقاف.

أول حقيقة يجب أن يدركها الشاب أن التفوّق لا يكون بالعلم وحده، فهناك من يتفوّق بأخلاقه، وهناك من يتفوّق بحكمته، وهناك من يتفوّق بإيمانه، وهناك من يتفوّق بأعمال الخير، وهناك من يتفوّق بقدراته المعنوية والروحية.. إلخ.

ثم إن كنت تجد أنك تحمل علماً جماً، أو ثقافة معاصرة، فتذكر جمال تواضع العلماء.. فبتواضع الإنسان العالم يمكنه أن يقتحم قلوب الناس قبل أن يقتحم عقولهم، ويزداد عظمة في أعينهم، وفي الحديث النبوي: (من تواضع لله، رفعه الله). وقديماً قيل: (أكبر منك بيوم أفهم منك بسنة)! أي أن الحياة خبرات، والخبرات معرفة.

ثم إن كنت تجد أن تفكيرهم قد عفا عليه الزمن، فتذكر أنّهما اللذان صنعاك، وأعطياك من جسديهما وقلبيهما وروحيهما وعقليهما ما أوصلك إلى ما صرت عليه. وما ذكرت بشأن التفوّق العلمي ينسحب على سائر نواحي التفوّق التي قد يتميز بها الأبناء، دون أن يعني ذلك الترفع على الوالدين واحتقارهما.

• قابلية كبيرة:

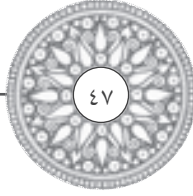
يجب أن نتنبه إلى أن هناك قابلية كبيرة لدى الإنسان أن يقع في فخ الكبر.. الأرضية مهياة بشكل كبير. قال أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة القاصعة: (فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ، إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ

الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سَنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سَنِي
الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟).

ويضاف إلى ما سبق أَنَّ الإنسان القويم في سلوكه هو الذي لا يتنكر لأصحاب
الجميل.. ومن بين كل الناس، مَنْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَ الْوَالِدِينَ؟

• حَبَائِلُ إِبْلِيسَ:

وليتذكر كل شاب وشابة أَنَّ حال الوالدين - وإن لم يُعبراً عن ذلك بالقول - هو
كما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الصحيفة السجّادية لولده حيث
قال: (اللَّهُمَّ وَمَنْ عَلَيَّ بَقَاءٌ وَوُدِّي، وَبِإِصْلَاحِهِمْ لِي، وَبِإِمْتَاعِي بِهِمْ) يا رب
اجعلهم سبباً لسعادتي كلما رأيتهم، لا سبباً للحسرة والألم النفسي (إلهي، امدد
لي في أعمارهم، وزد لي في آجالهم، ورب لي صغيرهم وقوّ لي ضعيفهم، وأصح
لي أبدانهم وأديانهم وأخلاقهم). وأنَّ لا محلّ للكبر على الأبوين بأيّ لحاظ،
مهما تعاظم شأنكم - أيها الشباب - واحذروا أن تقعوا في حبائل إبليس الذي حكم
على نفسه بالخروج من رحمة الله في لحظة كبر، وأقسم أن يجعل داءه هذا وباءً
يصيب الناس، فيبلسهم عن رحمة الله.. أيها الشباب، تواضعوا لله، تواضعوا مع
آبائكم وأحسنوا إليهم.. يرفعكم الله ويعلي شأنكم.



الخطبة الأولى

اتقوا الله

في الخطبة برقم ١٦١ من نهج البلاغة بعنوان: «ومن خطبة له عليه السلام في صفة النبي وأهل بيته وأتباع دينه وفيها يعظ بالتقوى»: (ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمَنْهَاجِ الْبَادِي، وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أَسْرَتُهُ خَيْرُ أَسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثَمَارُهَا مُتَهَدِلَةٌ. مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَبِيبَةَ، عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ..... أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النِّجَاةُ غَدًا، وَالْمَنْجَاةُ أَبَدًا. رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغْبٌ فَأَسْبَغُ، وَوَصَفٌ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعُهَا وَزَوَالُهَا وَانْتِقَالُهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا، لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا) لا تجعلوا قلوبكم متعلقة بالدنيا إعجاباً بما فيها، فهي إلى زوال وليست ذات قيمة تذكر في الآخرة.

(أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ) فلاحتمالات كبيرة في أن يكون التعلق بها والانغماس فيها سبباً للمعاصي والعقاب الأخروي.

(فَغَضُّوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لَمَّا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرَّفُوا حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ، وَاعْتَبَرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ، قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ. فَبَدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا) كانوا يعيشون بالقرب من آبائهم، فإذا بهم قد ماتوا ورحلوا.

(وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا) وهكذا فارقوا الدنيا فانتهت علاقتهم بأزواجهم.

(لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ) الذي يجاهد نفسه عن الحرام.

(الْمَانِعِ لَشَهْوَتِهِ) أي المسيطر عليها بحيث لا تقوده لفعل الحرام.

(النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ) فهو يزن الأمور ويتعقلها قبل أن يقدم عليها أو يتركها.

(فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعِلْمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدُّ) مستوي ليس به تعرجات.

(وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ) قويم ليس به اعوجاج.

اللهم اهدنا سواء الصراط ووفقنا لما تحب وترضى.

الخطبة الثانية

أين يقع المسجد الحرام؟

أين يقع المسجد الحرام؟ وما هي كعبة المسلمين؟ وما هي المدينة المقدسة التي تحتضنها؟ ثم أين تقع القبلة الحقيقية للمسلمين.. هل هي مكة المكرمة؟

قد يستغرب المستمعون هذه التساؤلات ويستهنونها، إلا أن المتابعين لما يُنشر على الإنترنت يُدرك سبب طرحي لها، حيث قام مؤخراً الملاحدة وبعض المحاربين للإسلام بنشر فيديو وفصل من كتاب «الجغرافيا القرآنية» لباحث كندي معاصر اسمه «دان جيبسون»، يتعرّض فيه لهذه التساؤلات.

لربما سيضحك ويستسخف الكثير من الإخوة والأخوات من الكلام الذي سأنقله عن هذا الكاتب، ولكن للأسف فإن:

١. زخم الحملة الإعلامية الأخيرة بهذا الاتجاه.
٢. وطريقة تقديم المعلومات المتلاعب بها.
٣. والمعلومات السطحية لدى كثير من الشباب عن القرآن والتاريخ واللغة والفقه.
- أدى كله إلى وقوع المشاهدين والقراء في الفخ المنصوب لهم.
- فماذا جاء في الكتاب وفي الفيلم المنشور؟ قال جيبسون - وباختصار - أن:
 ١. الأدلة بما فيها القرآن تُثبت أن النبي ﷺ لم يولد ولم يعيش بمكة، وإنما في البتراء بالأردن.
 ٢. أبو النبي ﷺ من الأنباط، وليس من قريش! علماً بأن الأنباط عرب هاجروا من الجزيرة العربية في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، واستقروا جنوب بلاد الشام.
 ٣. مكة لم تُذكر نهائياً في أي مصدر تاريخي قبل القرن السابع الميلادي.
 ٤. الوصف الخاص بالأرض الحرام في القرآن إنما ينطبق على البتراء لا على مكة.
 ٥. العرب كانوا يحجّون إلى البتراء لا إلى مكة.
 ٦. ولذا فإن قبلة كل المساجد ولأكثر من مائة سنة من الهجرة كانت باتجاه البتراء، وأنّ الأمويين وابن الزبير ثم العباسيين هم من زوّروا القبلة وجعلوها نحو الكعبة حيث مكة، وتم الانتهاء من تحويل كل المساجد إلى القبلة الجديدة بعد قرنين تقريباً من هجرة النبي!
 ٧. كل المصاحف كانت خالية من آيات تحويل القبلة، وأنها أُضيفت لاحقاً.
 ٨. كل ما ورد في كتب المسلمين عن القبلة مزور ولا قيمة له، وقد وُضع من قبل السلطات ليقدم مشروع تزوير قبلة المسلمين وأرضهم المقدسة.
- **تلاعب في الأدلة:**

هذه تقريباً خلاصة الأفكار التي طرحها جيبسون، ومن يشاهد الفيديو

«الوثائقي» - إن صح تسميته بهذا الاسم - وتكون له شيء من الدراية التاريخية والقرآنية والفقهية واللغوية يدرك كيف يتلاعب جيبسون في ما اعتبرها أدلة على صحة نظريته.

الخطبة لا تحتل الرد التفصيلي، ولذا سأحدث عن نقطة واحدة فقط وبشكل جزئي، وسأستمزج آراءكم حول إكمال الرد على ما جاء في كلام جيبسون أو الاكتفاء بما سأقوله اليوم.

• مكة عبر التاريخ:

من الأمور التي ادّعاها أنه لا يوجد أي مرجع تاريخي ذكر مكة المكرمة قبل القرن السابع الميلادي، ولكن هل تعلمون أنها مذكورة وبالاسم في العهد القديم من الكتاب المقدس وفي نص يعود تاريخه إلى قبل ٣٠٠٠ سنة تقريباً؟

قال عز وجل: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾
«سورة آل عمران: ٩٥-٩٧».

إذاً الحديث هنا عن:

١. بيت الله الذي بناه إبراهيم ببكة.

٢. وعند هذا البيت علامات وآيات بيّنات وواضحات على أن هذا هو البيت المقصود هنا.

٣. ومن هذه العلامات وجود مقام إبراهيم عنده. أي أن تاريخه يعود إلى ما قبل ٢٥٠٠ سنة من البعثة النبوية الشريفة.

٤. وأن هذا البيت يقع في الأرض الحرام.

ولطالما تساءل المفسرون لماذا ذكر الله مكة هنا باسم آخر لها عُرفت به وهو «بكة»؟ وكلُّ منهم قدّم تفسيره الخاص بذلك.. ولكن استمعوا الآن إلى المفاجأة التي تبين أن الأمر لم يكن اعتباطياً بل هي رسالة إلى أهل الكتاب ليُدرِكوا أن القرآن من عند الله، وأن محمداً رسول من عنده.

• بكة في الزبور:

في مزامير داود «الزبور» كلام عن الاشتياق إلى الحج، وإلى بيت الله الموجود في وادي بكة!

ففي الإصحاح ٨٤ جاء النص العربي كالتالي: (تشتاق، بل تتوق نفسي إلى ديار الرب.... طوبى للساكنين في بيتك، أبداً يسبحونك. سلاه. طوبى لأناس عزهم بك. طُرُقُ بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء). وهنا وقع التحريف في الترجمة.

هل النص الأصلي يقول وادي البكاء أم وادي بكة؟ في ١٤ ترجمة باللغة الإنجليزية على سبيل المثال جاءت الكلمة «بكة»:

As they pass through the Valley of Baka

وفي النص العبري ما لفظه: (يعبري بعمق هبكه ...)

yBUrY B'yMQ HBK'a M'yYN YShYThVHV GM-BUrKVTh'

.Y'yTH MVUrH

• مكة في التوراة:

وهناك مورد آخر أقدم منه زمناً حيث يعود إلى عهد النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَام. ففي الإصحاح ١٠ من سفر التكوين من التوراة نجد اليوم في الترجمة العربية نصاً يتحدث عن بعض قبائل العرب ثم يقول: (جميع هؤلاء بنو يقطان، وكان مسكنهم من ميسا....).

أما أول ترجمة للعهد القديم إلى العربية والتي تمت على يد الرابي اليهودي سعيد بن يوسف الفيومي «ت ٩٤٢م» فقد ترجم هذه العبارة قال: (كل هؤلاء بنو قحطان وكان مسكنهم من مكة...).

ما سبق نموذج فقط مما يفضح كذب التلفيقات التي ساقها جيبسون، والأدلة أكثر من ذلك، ومنها ما ذكره الجغراف في اليوناني بطليموس «ت ١٦٥م» عن مكة وباسم «ماكورابا» أي بيت الرب، وكلمات العديد من المستشرقين حول تاريخ مكة، فضلاً عن علماء المسلمين.

• نصيحة إلى الشباب:

إنّ ما ادعاه جيبسون حول عدم ذكر مكة في المصادر القديمة كلام لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، كيف والعهد القديم من الكتاب المقدس قد ذكرها مرة بهذا العنوان، وأخرى بعنوان بكة وارتباط الحج بها ووجود بيت الله فيها.

ومثلما كذب الباحث في هذه النقطة كذب في نقاط كثيرة ذكرها، حين نفى وجود آيات تحويل القبلة في القرآن، وأنّ هذا تم بعد أكثر من قرن من نزوله، وفي أنّ الرب كانوا يحجون إلى البتراء، وأن قبلة كل المساجد كانت باتجاهها لا باتجاه مكة وأمثال ذلك من سخافات. وعلى شبابنا أن لا ينبهروا بكل ما هو جديد ما لم يحمل في طيّاته أدلة قويّة، فما أكثر ما يُزخرف الباطل باستعمال العبارات ذات الدلالة القاطعة والأسلوب الشيق في العرض، إلا أنّ هذا كله لا يغير من حقيقة أنه باطل ووهم.

• رسالة إلى المملكة العربية السعودية:

ورسالة أخيرة أوجّهها إلى الجهات المسؤولة عن الآثار وعن الحرمين الشريفين في المملكة العربية السعودية، فقد حذر عدد من العلماء من سلبات إزالة الآثار التاريخية فيهما خوفاً من أن يأتي - في يوم ما - من يشكك في أصل وجود النبي والتاريخ الإسلامي كما صُنِعَ من قبل مع السيد المسيح ﷺ وآثاره حيث بات البعض يتحدث عن أسطورية شخصية السيد المسيح.. وما حذروا منه وقع بحق القبلة والكعبة ومكة والمسجد الحرام.. والمأمول منهم أن يتداركوا الأمر في ما بقي من آثار العهد النبوي، فهي مسؤولية كبرى أمام الله وأمام التاريخ.

الخطبة الأولى واسترجعت الودیعة

في الذكرى السنوية لرحيل الصديقة الشهيدة مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام عن هذه الدنيا الفانية إلى جوار الله عز وجل، نتوقف للحظات مع الكلمات الحزينة التي انطلقت من قلب أمير المؤمنين عليه السلام بعيد دفنها وكما نقلها العلامة الكليني في كتابه الكافي عن: (علي بن محمد الهرمزان، عن الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: لما قبضت فاطمة عليها السلام دفنها أمير المؤمنين سرًا وعفا على موضع قبرها، ثم قام فحول وجهه إلى قبر رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله عني، والسلام عليك عن ابنتك وزائرتك والباينة في الثرى ببقيعتك، والمختار الله لها سرعة اللحاق بك، قل يا رسول الله عن صفتك صبري، وعفا عن سيدة نساء العالمين تجلدي، إلا أن لي في التأسّي بسنتك في فرقتك موضع تعزّ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت نفسك بين نحري وصدري، بلى وفي كتاب الله لي أنعم القبول. إنا لله وإنا إليه راجعون. قد استرجعت الودیعة، وأخذت الرهينة، وأخلصت الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء. يا رسول الله، أما حزني فسرمد، وأما ليلى فمسهد، وهم لا يبرح من قلبي أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، كمد مقيح، وهم مهيح، سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها، فأحضرها السؤال، واستخبرها الحال، فكمن من غليل مغتالج بصدرها لم تجد إلى بنه سبيلا، وستقول، ويحكم الله، وهو خير الحاكمين. سلام مودع لا

قَالَ وَلَا سَئِمَ، فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقَمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ
 اللَّهُ الصَّابِرِينَ، وَاهِ وَاهَاً، وَالصَّبْرُ أَيْمَنُ وَأَجْمَلُ، وَلَوْ لَا غَلَبَةُ الْمُسْتَوِلِينَ، لَجَعَلْتُ
 الْمَقَامَ وَاللَّبْثَ لَزَاماً مَعْكُوفاً، وَلَا عَوَّلْتُ إِعْوَالَ الثَّكَلَى عَلَى جَلِيلِ الرِّزْيَةِ، فَبِعَيْنِ
 اللَّهِ تُدْفَنُ ابْنَتُكَ سَراً، وَتُهَضَّمُ حَقَّهَا، وَتَمْنَعُ إِرْثَهَا، وَلَمْ يَتَبَاعَدِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُقْ
 مِنْكَ الذِّكْرُ، وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى، وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنُ الْعَزَاءِ،
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرَّضْوَانُ).

الخطبة الثانية

خرافات دان جيبسون

تحدثت في الأسبوع الماضي عن جانب مما طرحه الكاتب الكندي «دان جيبسون» حول قبلة المسلمين وتاريخ مكة المكرمة.. وعرضتُ ردّاً جزئياً حول الامتداد التاريخي لمكة، وطلب مني بعض الإخوة والأخوات عرض المزيد من أوجه الرد على ما جاء في كلامه.

هناك مجموعة من الأمور المبنائية التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار لنذكر بعض مكامن الخلل في كلام جيبسون، ومَن طَبَّل لكلامه.

• إجازات القرآن:

النص القرآني الكامل محفوظ ومقروء عبر القرون من خلال تسلسل مستمر، يأخذه التلميذ عن أستاذه، والأستاذ عن أستاذه، وهكذا... إلى أن يصل السند إلى رسول الله ﷺ.

ولمزيد من الإمعان في الحفاظ على هذا التسلسل وبدقة شديدة، فقد استحدث المسلمون نظاماً يُعرَف باسم «إجازات القرآن»، وهي عبارة عن شهادة يُقدِّمها

الأستاذ للطالب بعد أن يقرأ عليه القرآن كاملاً مع التجويد والإتقان ودون أخطاء، وقد تكون عن ظهر غيب، أو من خلال المصحف.

كما يشترط فيها دراسة وحفظ بعض الكتب الخاصة بالقراءات، وغير ذلك. هذا يعني أن هناك سلاسل سند لقراءة القرآن الكريم متصلة من القراء إلى رسول الله ﷺ، وأن كل الكلام الذي يُقال عن تطوّر النص القرآني بالزيادة فيه والتغيير كلامٌ لا يعتمد على أساس علمي، بل هو ناشيء عن جهل بالطريقة التي من خلالها حفظ المسلمون القرآن من التغيير.

• أسلوب نبوي:

هذا المنهج في التعليم وحفظ القرآن وفهمه ابتدأ من عهد النبي الأكرم ﷺ واستمر من بعده. فعن عبد الرحمن السلمي: (حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل).

وعن أنس بن مالك: (إنما كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً، يقرؤون القرآن، ويتعلمون الفرائض والسُنن).

وتطوّر هذا الأسلوب بسرعة وتحولت الحلقات في غضون ١٠ سنوات تقريباً إلى مدارس لتحفيظ القرآن وتلاوته، حتى أننا نجد نموذجاً منها يُنقل عن مدرسة الكوفة للقرآن في عهد الخليفة عمر، حيث يقف كبير المعلمين وأمامه مجاميع مقسمة من الطلاب، ويقف أمام كل مجموعة معلمهم، وتبدأ عملية التمسيع والمراجعة والتدقيق والتصحيح لكل طالب.

ويضاف إلى ذلك أنه لا توجد ولا نسخة واحدة من مخطوطات المصحف الشريف تختلف في مضمونها عن المصاحف المطبوعة اليوم.

• إسقاط فاشل:

المشكلة عند أمثال جيبسون أنهم يتصورون أن حال القرآن كحال كتب العهد القديم والجديد، حيث فقدت لمدد زمنية طويلة، ثم أعيدت كتابتها بصورة أو بأخرى. فالتوراة فقدت بعد الغزو البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، وكتبت

من جديد على يد عزرا الكاتب بعد أكثر من خمسين سنة... ولا نعرف مصير الإنجيل، ويكفي أنك تجد اليوم أربعة أناجيل، وكل منها نسخة مختلفة عن الأخرى.. وكانت هناك العشرات من نسخ الإنجيل ألغيت.

هذه الصورة أسقطت على القرآن، والحال أن شأن النص القرآني ليس هكذا، ومن يقول ذلك إما جاهل أو مغرض.

• أسانيد المؤلفات:

ابتكر المسلمون أيضاً نظاماً دقيقاً لحفظ الأحاديث والروايات والكتب، فأولاً، لكل رواية سند واحد على الأقل متصل إلى مصدرها.. مثلاً، الكليني يروي عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل عن الإمام جعفر الصادق. وثانياً، اهتموا بأسانيد الكتب أيضاً واتصالها بمؤلفيها.

في هذا العصر مع وجود المطابع الحديثة وسهولة تواصل الناس مع بعضهم البعض يصعب صدور كتاب لمؤلف معاصر وهو ليس له.. أما في الأزمنة الغابرة فقد كان الأمر مختلفاً، حيث كان بالإمكان إصدار كتاب ونسبته إلى غير مؤلفه، كما كان بالإمكان التلاعب في الكتاب وتغييره.

ولذا ابتكر المسلمون أسلوباً يحفظون من خلاله كتبهم المهمة. يجلس العالم مع طلبته، ويبدأ كل طالب بقراءة نسخته الخاصة من كتاب الأستاذ، فإذا أتم كل الكتاب أجازته المعلم. ثم يقوم آخرون لاحقاً بالنسخ على هذه النسخة، ويقرؤونها على هذا الطالب الذي أصبح أستاذاً... وهكذا.

فأصبحت لدينا سلاسل سندية لكل كتاب مهم، بالإضافة إلى الأسانيد الخاصة بالروايات نفسها. ثم إنَّ أسانيد الكتب تُدرس من قِبَل أهل الاختصاص لمعرفة مدى صحتها ودقَّتْها وتقييم رواتها من حيث وثاقبتهم بالإضافة إلى عقد المقارنات بين مضامين النسخ المتعددة.

ومن هنا، فلدينا اليوم علماء يتصل إسنادُهم لكتاب الكافي إلى العلامة الكليني، كما لدينا من يتصل إسنادُهم للبخاري صاحب الصحيح مثلاً، وكلاهما من أعلام القرن الهجري الثالث.

ومضمون ما في الكافي والبخاري مروى بالأسانيد أيضاً، إما عن كتب مسندة بالرواية أو عن الرواة أنفسهم.. كل هذا يدرسه العلماء ويدققون فيه، وألفوا فيه مئات الكتب الاختصاصية. وأنا على ثقة تامة أن جيبسون والملاحدة وأمثالهم لا يفقهون من هذا شيء.

• حفظ الأنساب:

حفظ العرب الأنساب واهتموا بذلك أيما اهتمام، ولا يُنكر ذلك إلا جاهل. وقد تخصص بعضهم بعلم الأنساب بصورة مذهلة، وألفوا عشرات الكتب في ذلك، مضافاً إلى احتفاظ الكثير من القبائل والأسر بمشجرات النسب، بمن فيهم الأسرة الهاشمية التي ينتسب إليها رسول الله ﷺ.

زياد بن سمية إلى اليوم يُطلق عليه زياد بن أبيه، وقامت الدنيا على معاوية ولم تقعد حين نسبه إلى أبي سفيان.. لماذا؟ لأن مسألة النسب ليست مسألة هامشية في حياتهم.

مرة أخرى، هناك عملية إسقاط ناشئة عن جهل أو لغرض في نفس جيبسون وقرنائه.. حال المجتمعات الغربية اليوم في كثير من الحالات معلوم.. يُسأل الولد: من أبوك؟ يقول: اسألو أمي! اختلاط الأنساب، والعلاقات غير الشرعية، وعدم وجود عدة للمرأة، وغير ذلك جعل صورة النسب عندهم مشوشة. وهذه الصورة يتم إسقاطها على المجتمع العربي، فيقول جيبسون أن النبي ولد من أبوين نبطيين، وأنه لم يولد في مكة!

• كلمة أخيرة:

ختاماً أقول: إنَّ السخافات التي أطلقها جيبسون في كتابه، وفي الفيلم الذي أعدّه، يمثل حلقة في سلسلة طويلة من الافتراءات التي أطلقها المستشرقون والملاحدة وأعداء الإسلام لا بغرض البحث العلمي، بل انطلاقاً من الحربين المعلنة والخفية التي يشنونها، وشعارهم في ذلك أن الرصاصة التي لا تُصيب تُدوش! وأدعوا أحبابي من الشباب إلى المطالعة والسؤال وإطلاق الحوارات المفيدة التي ينمّون من خلالها حصيلتهم من الثقافة الدينية بما يجعلهم صلاباً في مواجهة الحملات المسعورة التي تستهدف دينهم وقرآنهم ونبیّهم.



الخطبة الأولى زيارة أمين الله

روى ابن قولويه القمي في كتابه المشهور «كامل الزيارات» عن مهدي بن صدقة الرُّقي، قال: (حدثني علي بن موسى الرضا، قال: حدثني أبي موسى الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، قال: زار علي بن الحسين السجاد قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ووقف على القبر، فبكي ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحجته على عباده.... إلخ).

وفي كتاب «فرحة الغري» للسيد ابن طاوس: (قال ابن أبي قرّة في «مزاره» بسنده عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: كان أبي علي بن الحسين عليه السلام، قد اتخذ منزله - من بعد مقتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام - بيتاً من شعر، وأقام بالبادية، فلبث بها عدة سنين، كراهية الناس وملاستهم. وكان يصير من البادية بمقامه بها إلى العراق زائراً لأبيه وجده عليهما السلام، ولا يشعر بذلك من فعله. قال محمد بن علي: فخرج عَلَيْهِ السَّلَامُ متوجّهاً إلى العراق لزيارة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنا معه وليس معنا ذرّو روح إلا الناقتين، فلما انتهى إلى النجف من بلاد الكوفة وصار إلى مكان منه فبكي حتى اخضلت لحيته من دموعه ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحجته على عباده....).

هذه الزيارة تُعرَف بزيارة «أمين الله»، على اعتبار أن بداية الزيارة جاءت بلفظ (السلام عليك يا أمين الله في أرضه)، وقد رواها عدد من كبار ومشاهير العلماء من بينهم: الشيخ المفيد، والسيد ابن طاوس، ونصير الدين الطوسي، والعلامة المجلسي. كما رواها أيضاً الشيخ الطوسي في كتابه «مصباح المتهدد» تحت عنوان: «زيارة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام يوم الغدير».

وقد نُقل عن العلامة المجلسي قوله: (إنها أحسن الزيارات متناً وسنداً، وينبغي المواظبة عليها في جميع الروضات المقدسة) مع ملاحظة خصوصية (السلام عليك يا أمير المؤمنين) للإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام فلا تقال عند غيره من الأئمة.

من خصائص نص هذه الزيارة والذي نفهم من خلاله أسلوب أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام في الزيارة أنها تمزج بين السلام على الإمام وذكر فضائله، وبين التوجه إلى الله عزوجل والدعاء، لا لحوائج الدنيا، بل أولاً والأهم لما له علاقة بالإيمان والعبادة ومصير الإنسان في الآخرة: (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك، مولعة بذكرك ودعائك، محبة لصفوة أوليائك، شاكرة لفواضل نعمائك، ذاكرة لسوابغ آلائك، مشتاقة الى فرحة لقائك، متزودة التقوي ليوم جزائك، مفارقة لأخلاق أعدائك، مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك).

في نص هذه الزيارة، وبعد المقطع السابق، قال الباقر عَلَيْهِ السَّلَام: (ثم وضع خدّه على قبره وقال: اللهم، إنّ قلوب المخبتين إليك والهة...). وهذا يرسم معالم الارتباط بين الإنسان الموالي وبين ربه من جهة وبينه وبين إمامه من جهة أخرى، ففي حين يضع الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَام خده على قبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام، يتوجه بالدعاء إلى الله، فلا يهم أن يكون الثرى قد احتضن جسده الطاهر، لأنّ روحه وكلماته ووصاياه وتعاليمه دلّتي عليك وقربّتي منك.

ثم يكمل الإمام زين العابدين كلماته المفعمة بروحية الناظر إلى رحمة الله الواسعة: (اللهم، إنّ قلوب المخبتين إليك والهة، وسبل الراغبين إليك شارعة، وأعلام القاصدين إليك واضحة، وأفئدة العارفين منك فازعة، وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأبواب الإجابة لهم مفتحة، ودعوة من ناجاك مستجابة، وتوبة

مَنْ أَنَابَ إِلَيْكَ مقبولة، وَعَبْرَةٌ مِّنْ بَئِي مِنْ خَوْفِكَ مرحومة... إلخ). وهكذا نتعلم من مدرسة الزيارة لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الإيمانَ والولاءَ، والرجاءَ والخوفَ، لنعيش الالتزام في حياتنا إلى اللحظة التي نغادر فيها هذه الدنيا، فلا نعيش الندم بعدها، ولا نتجرّع غُصَصَ الحسرة على ما فاتنا.

الخطبة الثانية

قصة القبلة في الإسلام

بُعِثَ النبي الأكرم ﷺ في مكة المكرمة وكثير من العرب الجاهليين يقدّسون المسجد الحرام والكعبة المشرفة ويحجّون إليها، وذلك من خلال ما ورثوه من الشريعة الإبراهيمية التوحيدية.

وأراد الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يختبر مدى صبر وطاعة المؤمنين برسالة النبي ﷺ، فأمرهم في العهد المكي أَنْ يتوجّهوا في صلاتهم إلى المسجد الأقصى حيث قبلة أهل الكتاب. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُّوفٌ رَّحِيمٌ﴾ «البقرة: ١٤٣».

فالمسألة من الناحية النفسية لم تكن سهلة، بل كانت كبيرة بحسب تعبير الآية وصعبة، فالنبي ﷺ من جهة مكي، وهو يقول، والقرآن يشهد، بأنّ رسالته امتداد للرسالة الإبراهيمية.. فلماذا تكون القبلة «مستوردة» أو «أجنبية»؟ لماذا لا تكون هي ذاتها البيت الذي بناه إبراهيم جد النبي؟

ولربما هنا حكمة أخرى، وهي محاولة جذب أهل الكتاب إلى الإسلام، فهم أقرب لهذه الرسالة من المشركين.. كما أنها محاولة للتأكيد على أن هذه الرسالة امتداد لرسالتي موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

• إشكالات اليهود:

وعلى كل حال، استمر الأمر كذلك إلى أن هاجر المسلمون إلى المدينة، وبدأت إشكالات اليهود تتوالى عليهم حول مجموعة من القضايا. تشكيكات، وإثارات فكرية، وأسئلة، وسخرية. إلخ.

وكانت مسألة القبلة واحدة من هذه العناوين المثارة.. فبدلاً من أن يفهمها اليهود على أنها رسالة إيجابية من الإسلام للدلالة على وحدة خط الرسالات، اعتبروا القضية «سرقة تشريعية» ناتجة عن «فراغ تشريعي» في دين محمد ﷺ!

ولذا بدأ القرآن يُجَلِّي الموقف، ويضع النقاط على الحروف، ويكشف حقيقة اليهود في تاريخهم، وسلوكياتهم، وانحرافاتهم، وطريقة تفكيرهم، وطريقة تعاملهم مع الرسالة الجديدة، ويخاطبهم ما بين أسلوب الترغيب والترهيب، وذلك ابتداءً من الآية ٤٠ من سورة البقرة حيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. وتتوالى الآيات الناصحة والمحدرة، ثم تتبعها آيات تتحدث عن تاريخ اليهود، في قصتهم مع فرعون، وكيف تمرّدوا على موسى عَلَيْهِ السَّلَام بعد كل المعاجز التي عايشوها، بما في ذلك قصة البقرة.

• كشف حقيقة اليهود:

ثم يتوجّه الخطاب إلى المسلمين في الآية ٧٥: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. أتريدون أن تعرفوا حقيقة هؤلاء القوم؟ إنهم:

١. المفترون على الله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ «٨٠».
٢. المتمردون عليه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ... ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ «٨٤-٨٥».

٣. المناقضون لأنفسهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ «٨٩».

هل هذا الأمر جديد عليهم؟ أبدأ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ «٩٢».

وتتوالى الآيات في كشف الحقائق: أيها المؤمنون برسالة محمد ﷺ، لا تتخذوا بأساليب اليهود الماكرة، وبكلماتهم المعسولة، وبظواهر انتمائهم لموسى والأنبياء من بني إسرائيل، وحملهم التوراة، لأنهم لا يريدون لكم الخير: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ «١٠٩».

إنهم يسعون لهدم مساجدكم، ومنع ارتباطكم بالله، كما سعوا في ذلك من قبل مع النصاري: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ «١١٣ - ١١٤».

• الامتداد الرسالي والتشريعي:

أيها المؤمنون برسالة محمد ﷺ، إن امتدادكم التشريعي يعود إلى الخليل إبراهيم عليه السلام.. إنكم لستم حالة طارئة، بل إن جذور رسالتكم وشريعتكم تضرب في عمق التاريخ إلى ما قبل شريعة موسى.

ولذا تبدأ الآية ١٢٤ بسرد قصته عليه السلام: (وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).

ثم كيف بنى الكعبة بمعية ابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ «١٢٥». وكيف أن ظهور مكة كبلد كان ببركة دعاء هذا النبي العظيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ «١٢٦».

وأن ولادة النبي الأكرم ﷺ ورسالته كانت أيضاً ببركة دعائه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «١٢٩».

ولذا فإن هذه الرسالة والشريعة هي الامتداد الحقيقي لرسالة وشريعة

إبراهيم ولسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
 «١٣٥-١٣٦».

• يعلمون أنه الحق:

ثم تأتي الآيات لتعالج مسألة القبلة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾
 «١٤٤».. ضغط هائل واجهه النبي من اليهود من جهة، ومن المسلمين من جهة
 أخرى بادعاء أن التوجه إلى قبلة اليهود

دليل على الإفلاس التشريعي.. هكذا قال اليهود، وهكذا اهتزت قناعات
 المسلمين.. فما هو الحل؟

يا رسول الله، سننسخ لك التشريع السابق، ونُزل عليك تشريعاً جديداً،
 فالأمر بيد الله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
 اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «١٠٦».

ونزل التشريع الجديد للقبلة: ﴿فَلَنُوَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فهي محببة إلى
 قلبك، وترفع عنك ضغط الإثارات التي بدأت في مكة واستمرت في المدينة، فما هي
 هذه القبلة الجديدة والأبدية؟

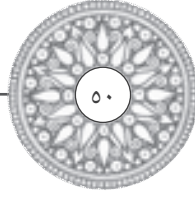
﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ
 وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ «١٤٤».

إنهم يتلون في مزامير داود عَلَيْهِ السَّلَامُ اشتياقه إلى بيت الله: (تشتاق، بل تتوق
 نفسي إلى ديار الرب.... طوبى للساكنين في بيتك). وأين هذا البيت؟ إنه البيت
 الواقع: (في وادي بكة).

• املكوا الثقة بإسلامكم:

وهكذا تخاطبنا الآية ١٤٣ من سورة البقرة بهذا النداء: أيها المؤمنون برسالة
 محمد ﷺ، لقد اختار الله لكم أن تكونوا القطب الذي تتطلع إليه الأمم.. لتكونوا

أنتم المرجعية لهم في الفكر، وفي التشريع، وفي الأخلاق، وفي القيم.. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لا العكس.. هكذا تحدث الآية في أجواء تشريع القبلية، والردّ على الإشكالات المثارة حولها... ولذا، فلتملّكوا الثقة برسالتكم، وبإيمانكم، وبشريعتكم، وبنبيّكم، وبقرآنكم، وبالقيم والتشريعات التي تحملونها، واشعروا بعزّة الانتماء إلى الإسلام، لتتطلقوا في الحياة - بقوة - مبشرين ومنذرين.. لا تهتزّوا أمام تشكيكات المشكّكين، ولا تخضعوا لإثارات الحاقدين، فإنّ ادّعاءاتهم لا تعدو أن تكون سفاهات لا قيمة لها، وإشكالات لا تحمل قوّة الحجّة في مضامينها: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ «١٤٢».



الخطبة الأولى

قدوة النساء

نعيش هذه الأيام الذكرى السنوية لرحيل مولاتنا الصديقة الشهيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عن هذه الدنيا الفانية. وللفيلسوف الأديب الدكتور محمد إقبال قصيدة رائعة فيها عليها السلام يقول في جانب منها:

نَسَبُ الْمَسِيحِ بَنَى لِمَرِيَمَ سِيرَةً	بَقِيَتْ عَلَى طَوْلِ الْمَدَى ذِكْرَاهَا
وَالْمَجْدُ يُشْرِقُ مِنْ ثَلَاثِ مَطَالِعٍ	فِي مَهْدِ فَاطِمَةَ، فَمَا أَعْلَاهَا
هِيَ بِنْتُ مَنْ؟ هِيَ زَوْجُ مَنْ؟ هِيَ أُمُّ مَنْ؟	مَنْ ذَا يُدَانِي فِي الْفَخَارِ أَبَاهَا
هِيَ وَمُضَّةٌ مِنْ نُورِ عَيْنِ الْمُصْطَفَى	هَادِي الشُّعُوبِ إِذَا تَرَوْهُمْ هُدَاهَا
هِيَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَكَعْبَةٌ الـ	أَمَالٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي آخِرَاهَا

وبعد أن يصف مطالع المجد المشرقة للزهراء عليها السلام، وهم النبي وعلي والحسنان عليهم السلام يقول في وصفها ما هو بمثابة رسالة إلى كل فتاة، وكل زوجة وكل أم، قال:

الْأُمّهَاتُ يَلِدْنَ لِلشَّمْسِ الضِّيَاءَ	وَلِلْجَوَاهِرِ حُسْنَهَا وَصَفَاهَا
هِيَ أَسْوَةٌ لِلْأُمّهَاتِ وَقُدْوَةٌ	يَتَسَمُّ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ خَطَاهَا

لَمَّا شَكَى الْمُحْتَاجُ خَلْفَ رَحَابِهَا رَقَّتْ لِتِلْكَ النَّفْسِ فِي شَكَاهَا
جَادَتْ لِتُنْقِذَهُ بِرَهْنِ خِمَارِهَا يَا سَحْبُ أَيْنَ نَدَاكِ مِنْ جَدَاهَا
نُورُ تَهَابِ النَّارِ قُدْسَ جَلَالِهِ وَمُنَى الْكَوَكِبِ أَنْ تَنَالَ ضِيَاهَا
جَعَلَتْ مِنَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ غِذَاءَهَا وَرَأَتْ رِضَا الزَّوْجِ الْكَرِيمِ رِضَاهَا
فَمَهَا يُرَدِّدُ أَيَّ رَبِّكَ بَيْنَمَا يَدُّهَا تُدِيرُ عَلَى الشَّعِيرِ رَحَاهَا
بَلَّتْ وَسَادَتَهَا لِأَلْيُ دَمْعِهَا مِنْ طُولِ خَشْيَتِهَا وَمِنْ تَقَوَاهَا
جَبْرِيلُ نَحْوَ الْعَرْشِ يَرْفَعُ دَمْعَهَا كَالطَّلِّ يَرُوي فِي الْجَنَانِ رُبَاهَا
لَوْلَا وَقُوفِي عِنْدَ أَمْرِ الْمُصْطَفَى وَحُدُودِ شِرْعَتِهِ وَنَحْنُ فِدَاهَا
لَمْضِيَتْ لِلتَّطَوَّافِ حَوْلَ ضَرِيحِهَا وَغَمَرَتْ بِالْقُبُلَاتِ طَيْبَ ثَرَاهَا

وَأَنَا أَقُولُ:

لَوْلَا أَمْرُهَا بِإِعْفَاءِ قَبْرِهَا وَخَفَاءُ لَحْدِهَا وَنَحْنُ فِدَاهَا
لَمْضِيَتْ لِلتَّطَوَّافِ حَوْلَ ضَرِيحِهَا وَغَمَرَتْ بِالْقُبُلَاتِ طَيْبَ ثَرَاهَا

وأود هنا أن أتحدث عن العطاء في سبيل الله.. لاسيما من قبل الأخوات..
الندورات والمجالس التي تعقد والأموال التي تتفق يجب أن تكون في مكانها الصحيح
فالكثير من الندورات لا تدرك الأخوات كيف تتفق.. وهناك من ينتفع منها بلا
معنى ولا حاجة.. بينما هناك الكثير من حالات العوز واليتم والحاجة إلى مسكن
هي أولى من هذه الإنفاقات بلا معنى.

عندما تحدثت الآية عن العطاء: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ «الإنسان: ٨»
لم تتوقف عند هذا الحد، بل بينت أن الإنفاق كان في مكانه الصحيح ﴿مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.. ولا يهم مقدار العطاء مادام ضمن الإمكانيات المتوفرة، بل
الإخلاص والإنفاق في المكان الصحيح هو الذي يعطي للعمل قيمته.

الخطبة الثانية أكلو لحوم البشر

برعت هوليوود في صناعة أفلام الرعب والمغامرات التي تُظهر أنواعاً من آكلي لحوم البشر، سواء بصورة قبائل بدائية، أو «زامبيز»، أو مجرمين مهوسين، أو من شدة الجوع في الأزمات.. إلخ.

وترسّخت هذه الصورة البشعة والمقززة في أذهان المشاهدين، ولكنها في نهاية المطاف تصبّ في اتجاه معين... بينما هناك اتجاه آخر لأكل لحم الإنسان ويرتبط بعناوين أخلاقية معيّنة نجدها في القرآن والأحاديث، وينبغي أن يترك تأثيره البشع في أذهان الناس، لأنه يرتبط بحياتهم اليومية.

• صور قرآنية:

لا يخفى علينا أن القرآن الكريم صوّر الغيبة بصورة أكل لحم الميت حيث قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ «الحجرات: ١٢».

لاحظ أن القرآن الكريم لم يكتف بتحريم الغيبة، بل قدّمها على شكل مشهد وصورة حسية تعبيرية، لأنّ تأثير هذا النوع من التعبير أقوى بكثير من التعبير المعتاد من قبيل «الغيبة حرام». إلا أن هذه الصورة البشعة والمقززة اليوم - لسبب أو لآخر - غير حاضرة في الأذهان عندما يمارس الإنسان الغيبة أو يستمع إليها دون اعتراض. لربما نحن بحاجة إلى جهود بعض شبابنا المبدعين في تقديم مشاهد تصويرية تُرسّخ هذه الصورة البشعة والمنفرة للغيبة، كي تتداعى هذه الصورة كلما نوى الإنسان أن يغتاب، أو استمع إلى غيبة.

• الحسد:

وهناك نوع آخر وغريب من أكل لحم البشر، وقلّما نلتفت إلى كونه كذلك، وهو أن يأكل الإنسان نفسه.. عن طريق الحسد... قال أرسطو: (الحسود يأكل نفسه

كما يأكل الصدا الحديد). أنا لا أتحدث هنا عما يُعرف بتأثير العين، فذاك أمر آخر، قد يكون حقيقة وقد يكون وهمًا، بل أتحدث عن الحسد بمعنى أن يتمنى الإنسان - عن قصد - زوال النعمة من الآخرين، ويسعى في هذا الاتجاه، إما على مستوى الكلام، بالغيبة أو النميمة أو البهتان مثلاً، أو على مستوى الفعل، بالعدوان على الممتلكات أو الاعتداء الجسدي الذي قد يصل إلى حد القتل.

• العُجْب.. الكِبَر.. الحسد:

لا بد أن نلاحظ أن هناك ارتباطاً وثيقاً ما بين بلوغ الأنا مستويات عالية جداً بحيث تتحوّل إلى عُجْب، وإحساس بالرفعة على الآخرين، ثم التكبر عليهم.. وما بين الحسد.

إبليس كان يعاني من الكبر والعُجْب بنفسه.. هل كان يدرك ذلك من نفسه؟ لا أدري.. ولكن في لحظة الاختبار التي تكشف العيوب اتضحت الصورة، أمره ربه المعبود بالسجود فأبى.. وتحوّل كبره وعجبه بنفسه إلى حسد.. وتحوّل الحسد إلى رغبة عنيفة ومجنونة بالانتقام.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص: ٧٥-٧٨)... إبليس في هذه اللحظة كان يعلم أن الأمر ليس مزحة، ومع هذا لم يطلب العفو والتوبة، بل اتقدت نار الحسد في قلبه والرغبة في الانتقام.. كيف لهذا المخلوق الطيني أن ينال رضا الله وينعم بعطاياه في الحياة وقد يحصل على الجنة، في الوقت الذي كان فيه سبباً لطردٍ منها ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (ص: ٧٩-٨١)... طلب المهلة، لا ليفكر ويعيد حساباته، ولا لكي يتوب ويكفر عن ذنبه، بل فضل أن يستجيب لمتطلبات الحسد على أن ينال التوبة والجنة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣).

• هابيل وقابيل:

الحسد شيء غريب، يجريء الأخ على أخيه إلى مستوى القتل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ «المائدة: ٢٧»، وهل طأوعته نفسه ونفذه وعده بأخيه الطيب البريء المتقي وبلا ذنب؟ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «المائدة: ٢٧-٣٠».

لاحظ هنا كيف ربط أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة القاصعة في قصة قابيل وهابيل بين الكبر والحسد: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ، سَوَى مَا أَلْحَقْتَ الْعُظْمَةَ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحْتَ الْحَمِيَّةَ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ، الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ أَثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وما قصة يوسف عليه السلام مع إخوانه ببعيدة عن الأذهان.. لا الدم، ولا اللقمة المشتركة، ولا الفطرة، منعت الإخوة من قتل أخيه! ولكن يمكر الحاسدون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

• الحسد بين العلماء:

أُسأل أحياناً لماذا يهاجم العالم الفلاني عالماً آخر؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بوضوح من خلال المثال التالي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ كَبِضَ الْيَهُودَ ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجُبِّ وَالطَّاعُوتِ﴾ بِالْأَصْنَامِ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ «النساء: ٥١»، عابدوا الأصنام أهدى من المؤمنين برسالة محمد ﷺ!

ما الذي دفعهم إلى هذا الكذب والتناقض مع أنفسهم مع أنهم حملة علم؟ ﴿.... أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ «النساء: ٥٤».. إنه الحسد! وما أكثر الحسد بين العلماء.

العلم وحده لا يطهر الإنسان وسلوكه إذا لم تقترن به تربية أخلاقية.. العلم هنا يكون كمية من المعلومات لا أكثر.. حتى على المستوى الإيماني قد لا يتأثر إيجابياً بعلمه.. فالحاسد عنده مشكلة إيمانية.. عنده خلاف مع الله الرازق الحكيم. لا توجد عنده ثقة بعدل الله عز وجل. فهل أفاده علمه؟ ومشكلة مثل هذه الحالات أن تأثيرها ليس محدوداً، لأن الناس يتبعون العلماء ويأخذون عنهم.

• الحسد بين الرؤساء:

والرؤساء كالعلماء.. تأثيرهم واسع المدى. صدام عاش هذا الداء الويل.. كبر وعُجِبَ تحوّل إلى حسد.. حسد الكويت على ما بها من نعم.. وملاً رؤوس شعبه بالأباطيل حول الأصل والفرع، وشحن صدورهم بالأحقاد، ثم غزا الكويت بكل وحشية.. صحيح أن بعض العوامل السياسية كان لها دور في ارتكاب جريمته، ولكن العامل النفسي كان حاضراً بقوة.. وعلى رأسه الحسد.. فكيف غدا مصيره؟ وُجِدَ مختبئاً في حفرة كالجرذان، فأخرج منها، وسيق إلى مصيره ذليلاً.

وتدور الأيام لتحتضن الكويت مؤتمر إعادة إعمار العراق، وكأنها تنطلق في هذا الموقف تناغماً مع قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ «فصلت: ٣٤». وفي هذا درس بليغ.

• مصير الحاسدين:

إنّ للحسد من التأثير أن جعل نهاية هايل المحسود قتلاً على يد أخيه الحاسد، في واحدة من أبشع جرائم الإنسانية، ولكننا إذ نؤمن بأن الموت في هذه الحياة ليس نهاية المطاف، بل مجاز إلى دار الخلود.. لذا فإن هايل لم يخسر شيئاً، بل ربح جنة الخلد بتقواه: ﴿لَنَنْبَسُطَ إِلَيْ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ «المائدة: ٢٨»، بينما خسر قابيل كل شيء.. دنياه، لأن الحاسد يدمر عافيته ويحرق نفسه ألماً وكمداً، وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (وَيْحَ الْحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ! بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ) .. وخسر آخرته لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ «النساء: ٩٣».

وهكذا هو مصير كل حاسد.. الخسران والندم.. رسالة أخيرة إلى كل من تحدّثه نفسه لعقد المقارنات مع الآخرين مما قد يجره إلى الحسد.. ثق بعدل الله وحكمته، ولا تمدّن عينيك إلى ما عند الآخرين.. ابذل جهدك لتحقيق طموحاتك المباحة في الدنيا.. وأعدّ العدة لآخرتك.. تشاغل بتنمية نفسك عن حسد الآخرين، وحدّق في ما وهبك الله عزّ وجلّ من نعم تتفوّق بها على من سواك، وكن من الشاكرين، لتعيش راحة البال، وطمأنينة الإيمان، ورضا النفس.